مجلد ١ — عدد ٤

يناير ١٩٤٦

الكاتب المصري

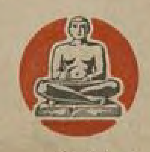
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس

طه حسين	المعذبون فى الأرض (قصة)	٤٤٩
محمد صلاح الدين	السياسة والتعليم	٤٦٦
محمد رفعت	مشكلة اسكندرونة	٤٧٤
محمود عزمى	تأميم البنوك فى فرنسا	٤٨٢
محمد مهدى الجواهرى	دجلة فى الخريف (قصيدة)	٤٨٦
سهير القلماوى	بين القدماء والمحدثين	٤٨٩
على أدهم	أبو الطيب المتنبي	٤٩٧
على النجدى ناصف	التعقيد فى شعر المتنبي	٥٠٧
وداد سكاكينى	السهولة فى شعر المتنبي	٥١٢
وصفى قرنفلى	تاريخ (قصيدة)	٥١٤
محمد عبد الله عنان	مصر ومصير المستعمرات الايطالية	٥١٦
حسن محمود	تأملات فى مسرحية روسية	٥٢٢
سليمان حزين	الجامعة العربية	٥٢٩
محمد عثمان الصمدى	بين المثالية والطباع البشرية (قصيدة)	٥٤٣
بشر فارس	رأى فى تدبير التربية فى لبنان	٥٤٧
لويس عوض	ت. س. إليوت	٥٥٧
أحمد فكرى	ما شاء الله	٥٦٩
يحيى حقى	صورة (قصة)	٥٧٧
اسكندر أسعد	تمثال الكاتب المصرى	٥٨٢

شهرية السياسة الدولية	٥٨٥	شهرية المسرح	٥٨٨
من كتب الشرق والغرب	٥٩٥	من وراء البحار	٦٠١
ظهر حديثاً	٦٠٦	فى مجلات الشرق	٦١٥



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

جائزة الكاتب المصرى للقصة

فى يوم ٣١ يناير سنة ١٩٤٦ ينتهى الأجل المحدد لقبول الاشتراك فى مسابقة القصة وهى التى أنشأت لها دار الكاتب المصرى جائزة قدرها مائة جنيه فضلاً عن التمتع بحق المؤلف، وقد نشرت تفصيلات هذه الجائزة من قبل فى الصحف و فى مجلة الكاتب المصرى ، فننبه القراء الذين يرغبون فى الاشتراك فى هذا الاستباق كى لا يتأخروا عن الموعد المحدد وهو شرط من شروط الجائزة فضلاً عن شروط أخرى .

لدينا مقالات وقصائد لكتاب وشعراء وقد أعلنا عن نشر بعضها ثم اضطررنا لكثرة المواد إلى إرجاء هذا النشر فنعتذر إليهم جميعاً ، وسننشرها فى الأعداد القادمة .

الكاتب المصرى

محرم ١٣٦٥



يناير ١٩٤٦

مجلد ١ — عدد ٤

المعذبون فى الأرض

[إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل ، وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل ، إلى أولئك وهؤلاء جميعاً أسوق هذا الحديث] .

إذا سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الأخيرة فأنبئنى ؛ فإن فعلت ذلك فأنت ابنى حقاً . قال الصبى وهو يبتسم لأمه التى كانت تحدّثه هذا الحديث وهى تداعب خده : فإن لم أفعل فابن من أكون ؟

هنالك وجمت أم الصبى شيئاً ، وتضاحك من حولها بنوها وبناتها ، ولكنها لطمت خد الصبى لطمة خفيفة ظريفة وهى تقول : إنك لطويل اللسان كثير الخصام ، ثم دسّت فى يد الصبى قطعة من سكر وأعادت عليه قولها : إذا سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الأخيرة فأنبئنى ، وإن فعلت ذلك فلك مثلها قبل أن تنام . قال الصبى وهو يقضم السكر قضما : أما الآن فنعم . ثم انطلق مسرعاً يتبعه ضحك أمه ومن حولها بنوها وبناتها .

وكانت الدار قائمة قاعدة فى ذلك المساء ؛ فقد ألمّ بها ضيف لهم خطر ومكانة فى الإقليم ، وهم لم يُقبلوا أصفار الأيدى ، وإنما يحملون من الطُّرَف والهدايا شيئاً كثيراً . وكانت سيدة الدار حريصة دائماً على الاحتفاء بالضيف ، مهتمة فى ذلك المساء بالتكبيرة الأخيرة حين يرفع الشيخ بها صوته ليخرج بها من دعائه

بعد صلاة المغرب . فقد كانت أصناف الطعام مهيأة تنتظر أن تحمل إلى المائدة حين يفرغ الضيف من صلاتهم مع الشيخ ، وكان الثريد وهو أول هذه الأصناف قد هيئ ، ولكن تهيئته لم تتم بعد ؛ فقد فتّ الخبز فى طبق كبير ، وأعد المرق وتم إعداد الأرز ، وقُطع الثوم قطعاً توشك أن تشبه الذرات . ولكن إعداد هذا الصنف يجب ألا يتم إلا فى اللحظة الأخيرة حتى لا يشرب الخبز كل المرق ولا يذهب ريح الثوم والخل فى الجو ، ولا يبرد الأرز فيفسد ما أُلقى عليه من السمن . من أجل هذا كله لم يكن بدٌّ من أن يتسمّع الصبى لدعاء الشيخ حتى إذا رفع صوته بالتكبيرة الأخيرة أسرع إلى أمه فأنبأها ، وأسرعت هى إلى هذه الأخلاط من الخبز والمرق والثوم والخل والأرز فجمعتها فى هذا الطبق الكبير الذى كان ينتظرها من حين . فإذا استفتح العشاء بهذا الصنف تبعته الأصناف الأخرى على مهل وريث ، فليس فى الإبطاء بها بأس ولا جناح . ولكن الصبى لم ينبئ أمه بشىء لأنه لم يسمع شيئاً ، وإنما شغل عن التكبيرة الأولى وعن التكبيرة الأخيرة بأمر ذى بال . وقد فرغ الشيخ وضيفه من صلاتهم وجلسوا يتحدثون ينتظرون أن يحمل إليهم العشاء . وجعل الشيخ يترقب هذا العشاء قلقاً لأنه لم يتعوّد مثل هذا الإبطاء حين يلمّ به الضيف . وقد همّ غير مرة أن يضرب إحدى يديه بالأخرى ليعلم أهل الدار أن الضيف ينتظرون ، ولكنه استحيا وكره أن يظن به تنبيه أهل الدار ، وأن يظن بأهل الدار غفلة أو إهمال . فمضى فى حديثه يرفع به صوته . ومرت من وراء الباب إحدى بناته ، فسمعت الصوت يرتفع بالحديث ، وأسرعت إلى أمها فأنبأتها بما لم ينبئها به الصبى ، وما هى إلا لحظة حتى كان الضيف إلى مائدتهم يأكلون ويلغطون .

وقد كان الصبى خالص النية صادق الرأى ، قد اتخذ مرقبه فى زاوية من فناء الدار ، هنالك حيث تجتمع قطع من الحديد كان يراها كنزه ، وكان يخلو إليها فينفق الساعة والساعات فى جمعها وتفريقها وطرق بعضها ببعض ، يجد فى ذلك تسلية ولهواً ، ينفرد به مرة ويشارك فيه أخته الصغيرة مرة أخرى . وقد جلس فى زاويته تلك أمام حديده ذاك ، واعتزم إذا أتم التهام قطعة السكر أن يُقبل إلى قطع الحديد فيعبث بها فى رفق مانحاً الشيخ وضيفه إحدى أذنيه ، مستمعاً متتبعاً لصلاتهم ، حتى إذا سمع التكبيرة الأخيرة يرتفع بها صوت الشيخ انسلّ إلى أمه فألقى إليها النبأ ثم عاد إلى لعبه فمضى فيه .

ولكنه لم يكد يستقر فى زاويته ويمضى فى قضم سكره حتى أحس يداً تمس كتفه ، ونظر فإذا رفيقه صالح ماثل أمامه يداعب كتفه بإحدى يديه ويقبض بيده الأخرى على طاقة من زهر الحقول يقدمها إليه باسماً . وقد نظر الصبى إلى صالح فراعه ثوبه الممزق قد ظهر منه صدره أكثر مما ينبغى وقد انشق عن كتفيه فظهرتا منه غليظتين نابيتين ، والثوب على ذلك رث قذر يظهر من جسم الصبى أكثر مما يخفى ، كأنه أسمال قد وُصل بعضها ببعض وصلاً ما ، وعلِّقت على هذا الجسم الضئيل الناحل تعليقاً ما ، لتستر منه ما تستطيع وليقال إن صاحبه لا يمضى به متجرداً عريان . ثم رفع الصبى رأسه إلى وجه صالح فرأى بؤساً شاحباً يشيع فيه ، ورأى ابتسامة فيها كثير من حزن وكثير من أمل ، ورأى عينين تدوران تنظران إلى ما حولها ، تنخفضان حينا إلى هـذا الحديد الملقى على الأرض ، وترتفعان حيناً إلى قطعة السكر فى يد رفيقه ، وترتفعان بعد ذلك إلى عناقيد الكرم هذه التى تتدلى على الجدران وتمتد على هذه العيدان التى نصبت لتحملها .

والصبى على ذلك كله باسط يده إلى رفيقه بهـذه الطاقة الساذجة الخشنة من زهر الحقول يقول له : لم أرد أن أعود إلى دارنا دون أن أمر بك وأحمل اليك هذه الأكمام التى لم تتفتح بعـد ، خذها إليك وضعها فى إناء فيه شىء من ماء وانتظر بها الصبح ، ثم أقبل عليهـا فستراها متفتحة عن زهر جميل طيب الرائحة . لم يقل الصبى لصالح شيئا وإنما أخـذ منه زهراته وأعطاه ما بقى فى يده من قطعة السكر ، وأشار إليه أن يجلس ويلعب معه بقطع الحديد . وقد أخـذ صالح قطعة السكر فأطال النظر إليها والتحديق فيهـا وقربها من فمه ثم أبعدها عنه ، ثم نظر إليها نظرة قصيرة ، ثم دسها فى فمه بين خده وأضراسه واستأنى بها لتذوب فى رفق وليطول استمتاعه بذوقها الحلو . ثم جلس وأخـذ يقلب مع رفيقه قطع الحديد . ثم لم يطل صمت الرفيقين ، وإنما استأنفا حديثهما عن الكتاب وعن الرفاق وعن الحقل وعن أهل القرية . وأُنسى الصبى بهذا كله صلاة الشيخ والضيف والنبأ الذى كان يجب أن يحمله إلى أمه ، ولم يرعه بعـد وقت طويل أو قصير إلا صوت أخته تدعوه من وراء الباب إلى العشاء .

وقد فرغ الشيخ وأصحابه من طعامهم وفرغوا كذلك من الصلاة الآخرة وما يتبعها من دعاء ، ودارت عليهم قهوة الليل . وجمعت ربة الدار الصغار من

بنيها وبناتها إلى طعامهم وافتقدت صاحبنا ذاك المهذار فأرسلت أخته تلتمسه فى مظانّه .

ولما سمع صوت أخته تدعوه أبطأ فى الاستجابة لها ، لأنه لم يكن يدرى كيف يخلص من رفيقه أو لم يكن يحب أن يخلص من رفيقه . ولكن صالحاً قال له فى صوت خافت حزين : أجب ، إنك تدعى إلى العشاء . قال الصبى لصالح : وأنت هل تعشيت ؟ قال صالح : سأتعشى حين أبلغ الدار ، ونهض متثاقلا وأدبر يريد أن يخرج ، ولو استطاع لأقام ، ولكنه مضى . وعاد الصبى إلى أمه وفى يده تلك الزهرات . فلما رأته أنكرت نسيانه لما أمرته به ، ولكنها سألته عن هذه الزهرات من حملهن إليه ، قال الصبى وفى صوته اختلاجة خفيفة : حملهن إلى صالح ابن الحاج علىّ . قالت أمه : ولم تعطه شيئا ؟ قال الصبى : أعطيته ما بقى لى من قطعة السكر . قالت أمه : وما تراه يصنع بقطعة السكر ؟ أتراه يدفع بها عن نفسه الجوع ، ألم تستبقه للعشاء ؟ ! قال الصبى مضطربا : هممت ولكننى لم أجرؤ . قالت أمه : فامض فى أثره مسرعاً حتى تعود به وحتى تتعشى معه . وانطلق الصبىُّ كأنه السهم . ولم يكد يجاوز باب الدار حتى رفع صوته بدعاء صاحبه ، ولكنه لم يحتج إلى أن يعدُ ولا إلى أن يكرر الدعاء ، فقد كان صالح قائماً أمام الدار قد استند إلى الحائط ومد بصره أمامه وقدّم إحدى رجليه وأخر الأخرى يريد أن يمضى وتُنازعه نفسه إلى البقاء . فلما سمع صوت رفيقه أجاب مستخذيا : هأنذا ، ماذا تريد ؟ قال الصبى: أريد أن تبقى لنتعشى معاً . ولم يقل صالح شيئاً ، وإنما تحول إلى رفيقه وسعى فى أثره هادئاً مطرقا كأنه الكلب يتبع صاحبه إذا دعاه .

ولم يكد الصبى يغلق البـاب من دونه حتى رأى إحدى أخواته قد وضعت فى زاويته تلك كرسيّاً مستديراً وعليه صينية مستديرة مثله ؛ وقد كثرت على هـذه الصينية الأطباق فيها من كل أصناف الطعام التى قدّمت للضيف . وأبت أخت الصبى أن تشارك الأسرة فى عشائها وآثرت أن تقوم على خدمة هذين الرفيقين ، حتى إذا فرغا من طعامهما مضى صالح موفوراً وعاد الصبى إلى أمه راضياً . فقالت له وهى تمسح رأسه : إذا زارك رفيق لك فى وقت العشاء فلا ينبغى أن تدعه ينصرف دون أن تدعوه إلى مشاركتك فى الطعام . ثم قالت له بعد صمت قصير : هل تعلم أن صالحاً إنما حل إليك هذه الزهرات ليتعشى ؟ قال الصبى : لا أعلم . قالت أمه : لقـد رأى الأضياف حين أقبلوا ، ورأى ما حملوا

من الطرف والهدايا ، وعلم أن سيكون فى الدار خير كثير هذا المساء ، فاراد أن يصيب منه شيئاً ، واتخذ أزهاره هذه تعلة يلمّ بها فى الدار ليقدّمها إليك . قال الصبي : لو رأيت ثوبه وقد بدا منه صـدره وظهره وكتفاه ! قالت أمه : إذا خرجت من الكتّاب غـداً فاحمله على أن يصحبك فإن عندى من ثيابك ما يكسوه .

ثم انصرفت إلى بنيها وبناتها تحدّثهم عن الضيف وعن العشاء ، تلوم هذه لأنها أنسيت أن تحرك الأرز حين ألقته فى الماء وهو يضطرب من الغليان ، وأوشك هذا اللون من ألوان الطعام أن يفسد ويصبح عجينة متماسكة لا تصلح لشيء ، ومن حق الأرز ألا يلتئم ولا يتماسك وأن تتفرق حباته وتمتاز . وتثنى على تلك لأنها رفقت بالفالوذج فلم تتركه سائلا تفيض به الملاعق كأنه الحساء ، ولم تجعله جامـداً تقطعه الملاعق قطعاً ، ولم تهمل تحريكه حتى تتخلله تلك العقد البغيضة التى لا تجعله سائغاً ولا يسيراً ، وإنما صنعته سواء سهلا لا يبلغ الأفواه حتى تدعوه الحلوق ، وهو فيما بين ذلك خفيف حلو المذاق . وإنها لتتحدث إلى بناتها هـذه الأحاديث التى كانت تعلمهن بها فنون الطهى والتى كان أبناؤها يسمعون لها فيغرقون فى ضحك متصل ، وإذا الصبى يقطع عليها حديثها ويسألها ما بال صالح لم يتعش فى داره ؟ أجابت أمه : ألم أقل لك إنه أحس أن سيكون عندنا خـير كثير فأراد أن يصيب منه ! قال الصبى : فإنى أرى الأضياف يلمّون بجارنا كما يلمون بنا ، وأعرف أن عند جارنا خيراً كثيراً فلا أسعى إلى أترابى من أبنائه ولا أحاول أن أصيب مما عندهم . قالت : لأنك لست فى حاجة إلى ذلك فلست محروماً . قال الصبى : فصالح محروم إذاً ؟ قالت أمه متضاحكة ، وقد أخذ إخوته من حوله يضيقون بلجاجته وإلحاحه قالت أمه : لأن أباك ميسّر عليه فى الرزق ، وقد قتر فى الرزق علىَ أبى صالح . قال الصبى : ولماذا ؟ قالت أمه : إنك لمكثار ، ثم التفتت إلى كبرى بناتها وهى تقول خذيه إلى مضجعه فقد تقدّم الليل وآن له أن ينام .

وأصبح الصبى فغدا على كتّابه كما تعود أن يفعل خمسة أيام فى الأسـبوع . وقد يخطر للقارئ أن يسألنى عن هذا الصبى ما اسمه ؟ وما موطنه ؟ وما بيئته ؟ وما أسرته ؟ ومن عسى أن يكون ؟ ولـكنى أجيب القارئ إن خطرت له هذه

الأسئلة كما كان الكاتب الفرنسى « ديديرو » يجيب قراءه حين يخيل إليه أنهم يسألونه أو يهمون أن يسألوه عن بعض الأمر من قصصه ، أجيب القارىء بأنه يسرف على نفسه وعلىّ بهذه الأسئلة التى قد يكون الرد عليها مفيداً لتكون القصة متسقة حسنة البناء ملتئمة الأجزاء ، يأخذ بعضها برقاب بعض كما كان النقاد القدماء يقولون . ولكنى لا أحاول أن أضع قصة فأخضعها لما ينبغى أن تخضع له القصة من أصول الفن كما رسمها كبار النقاد ؛ فقد يجب لتستقيم القصة أن يحدد الزمان والمكان وتستبين شخصية الناس الذين تحدث لهم الحوادث أو الذين يحدثون هذه الحوادث ، والذين تعرض لهم الخطوب أو الذين يبتكرون هذه الخطوب .

لا أضع قصة فأخضعها لأصول الفن . ولو كنت أضع قصة لما التزمت إخضاعها لهذه الأصول ؛ لأنى لا أومن بها ولا أذعن لها ولا أعترف بأن للنقاد مهما يكونوا أن يرسموا لى القواعد والقوانين مهما تكن ، ولا أقبل من القارىء مهما ترتفع منزلته أن يدخل بيني وبين ما أحب أن أسوق من الحديث ، وإنما هو كلام يخطر لى فأمليه ثم أذيعه ، فمن شاء أن يقرأه فليقرأه ، ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه ، ومن شاء أن يرضى عنه بعد القراءة فليرض مشكوراً ، ومن شاء أن يسخط عليه بعد القراءة فليسخط مشكوراً أيضاً . والمهم هو أن يخطر لى الكلام وأن امليه وأن أذيعه ، وأن يجد القارىء ما يشعره بأن له إرادة حرة تستطيع أن تغريه بالقراءة وتستطيع أن تصده عنها ، وأن يشعر القارىء أيضاً بأن له ذوقاً صافياً يستطيع أن يعرف فى الأدب وأن ينكر ، وأن يقبل من الأدب وأن يرفض ، وليس هذا كله بالشىء القليل . وما أحب أن يظن القارىء أنى أتحكم فيه أو أتجنّى عليه ؛ فأنا أبعد الناس عن التحكم وأزهدهم فى التجنى ، وأشدهم للقارىء حبّاً وإكبارا ، ولكنى لا أحب أن يتحكم القارىء فىّ ولا أن يتجنى علىّ ، ولا أن يخضعنى لذوقه ، كما لا أحب أن أخضعه لذوقى . ويجب أن تكون الحرية هى الأساس الصحيح للصلة بين القارىء وبينى حين أكتب أنا ، ويقرأ هو . ولو أنى استجبت لهذه الأسئلة فبينت موطن الصبى وبيئته وعرّفت أسرته إلى القراء لطال بى الحديث أكثر مما أحب أن يطول . وليس فى الحديث صبى واحد ، بل فيه إلى الآن صبيان ، أحدهما صالح هذا الذى يتخذ زهرات الحقول وسيلة إلى عشاء يصيبه ، والآخر هو هذا الصبى الذى وجد عنده صالح هذا العشاء . ولأكن منصفاً ، فقد يكون من

حق القارئ أن أسمى له هذا الصبى الثانى ما دمت قد سميت له الصبى الأول ليكون الأمر ميسراً له فلا يضطرب بين صبى يعرف اسمه واسم أبيه وصبى آخر لا يعرف من أمره شيئاً . والواقع أنى حين أخذت فى إملاء هذا الحديث لم أكن أعرف لهذا الصبى الثانى اسماً ، وما زلت أجهل اسمه إلى الآن . فلم يكن شخص هذا الصبى ولم يكن شخص صالح يعنينى ، وإنما كانت الأحداث التى حدثت للصبيين هى التى تعنينى . وأكبر الظن أن صالحاً هذا لم يوجد قط ، لأنه يملأ المملكة المصرية من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها ، يوجد فى القرى ويوجد فى المدن ويوجد فى كل مكان ، يملأ مصر نعمة وخيرا ، يُشعر الناس بأن مصر هى بلد البؤس والشقاء . وأنا أزعم أن قارئ هذا الحديث مهما يكن لا يستطيع أن يقضى يوماً من دهره أو ساعة من يومه دون أن يرى صالحاً هذا الذى لا يجد ما ينفق ، والذى يود أن تتاح له الوسيلة ليجد الغداء أو العشاء ، عند رفيقه ذاك الصبى الذى لم نجد له اسماً إلى الآن . فلنتفق على أن اسمه « أمين » ، وعلى أنه كان يختلف إلى الكتّاب مع قليل جدًّا من أمثاله الذين يعيشون فى شىء من اليسر ، وكثير جدًّا من أترابه الذين يستظلون بهذا الظل الوارف الجميل ظل البؤس والشقاء والحرمان وابتغاء الوسيلة للظفر بما يقيم الأود عند هذا الرفيق أو ذاك .

لم يوجد صالح قط لأنه يملأ المملكة المصرية . وإذا أسرف الشىء فى الوجود فهو غير موجود ، سواء أرضيت الفلسفة عن هذا الكلام أم لم ترض . أما أمين فموجود من غير شك ، لأننا نراه ولا نكاد نرى غيره لأنه عظيم الخطر ، فهو هذا الصبى الذى لا ينام جائعاً إذا أقبل الليل ، ولا يغدو طاوياً على المدرسة أو على الكتّاب ، ولا يطول انتظاره للغداء إذا آن وقت الغداء ، ولا ينبغى أن يطول انتظاره للعشاء إذا أقبل الليل ، لأن من حقه أن يتناول الطعام فى إبّانه ، وأن يأخذ بقسطه من النوم حتى لا تتعرض صحته الغالية لبعض ما يؤذيها . هذا الصبى أو هذا الفتى الذى اتفقنا على أن اسمه « أمين » موجود من غير شك ، لأنه لا يملأ القرى ولا يملأ المدن ، وإنما هو شخص ممتاز يمكن أن يُحْصَى أمثاله وأترابه إحصاء دقيقاً فى كل قرية وفى كل مدينة . وهو من أجل ذلك موجود لأن عدده محدود ، ولأننا نستطيع إحصاءه واستقصاءه والدلالة عليه .

وهنا يرتفع رأس القارئ وقد ظهرت على وجهه ابتسامة ساخرة وبرقت

عيناه بريق الانتصار والفوز وهو يسألنى فى صوت فاتر ساخر : لقد أردت أن تتجنب الإطالة بالإجابة على أسئلتنا ، فهل أنت إلا ممعن فى الإطالة بهذا الكلام الكثير الذى لا يغنى ولا يفيد ! معذرة يا سيدى القارئ الكريم ! بل إن هذا الكلام الكثير يغنى كل الغناء ويفيد كل الفائدة . فأنت تلقى فى كل يوم ألف صالح وصالح دون أن تحس لواحد منهم خطراً أو تعرف له وجوداً ؛ قد كثر لقاؤك لهم واتصلت معاشرتك إياهم حتى أصبحت الحياة بينهم شيئاً يسيراً مألوفاً لا يحفل به ولا يلتفت إليه ، وحتى أصبحت معاشرة البؤس والشقاء والحرمان شيئاً تطمئن إليه كما تطمئن إلى الصحة والعافية ، ولا تلتفت إليه كما أنك لا تلتفت إلى الهواء الذى تتنفسه والنور الذى تهتدى به . وترى أميناً أو آمينين أو أمناء بين حين وحين فيملأ كل واحد منهم قلبك وعقلك ويشغل همك وعنايتك . فأيهما خير أن ألفتك إلى صالح هذا البائس المسكين الذى ملأ مصر نعمة وخيرا ، وملأت مصر حياته شقاء وبؤساً ، أم أن أحدثك عن أمين وموطنه وبيئته وأسرته لتستقيم القصة وتستوى رائعة بارعة ملائمة لأصول الفن التى رسمها النقاد ؟ أما أنا فأوثر أن أتحدث إلى قلبك وما يضطرب فيه من عاطفة وما يشيع فيه من شعور على أن أتحدث إلى عقلك وذوقك وما يثيران فى نفسك من تهالك على النقد وحب للاستطلاع .

أوثر أن أتحدث إلى قلبك وأن ألفتك إلى صالح هذا الذى وُجِد وأسرف فى الوجود ، حتى اعتقدنا أو كدنا نعتقد أنه غير موجود . ومن يدرى ! لعلى حين ألفتك إلى صالح إنما ألفتك إلى نفسك . وما أحب أن تغضب ولا أن تثور ؛ فما أردت ، وما ينبغى أن أريد إلى إيذائك أو التعريض بأنك قد اتخذت فى يوم من الأيام زهرات الحقول وسيلة إلى خير تصيبه كما فعل صالح ، وإنما أردت أن أقول إن فى حياة كل واحد منا نحن كثرة المصريين شيئاً من صالح ؛ فصالح صورة البؤس والشقاء والحرمان . وما أقل المصريين الذين لا يصورون بؤساً ولا شقاء ولا حرماناً ؛ وليس البؤس مقصوراً على هذه الصفة التى تأتى من الفقر وما يستتبعه الفقر من الجوع الذى يمزق البطون والإعدام الذى يمزق الثياب ويظهر من ثناياه الصدور والظهور والأكتاف ، ولكن البؤس قد يتصل بأشياء أخرى ليست جوعاً ولا إعداماً ولكنها قد تكون شراً من الجوع والإعدام ، لأنها تتصل بالنفوس والقلوب . وإنى لأعرف قوماً كثيرين

تمتلئ أيديهم بالمال ويعظم حظهم من الثراء حتى يضيقوا به ، وهم مع ذلك يجدون بؤساً أى بؤس وشقاء أى شقاء ، ويتخذون زهرات الحقول أو هذا الزهر الذى تصنفه أيدى الحسان تصنيفاً فى الحواضر والمدن وسيلة إلى شئ يصيبونه عند من قد يكونون أقل منهم غنى وأضيق منهم ثراء .

***

مهما يكن من شئ فقد غدا الصبى الذى اتفقنا على أن اسمه «أمين» على كتّابه كما تعوّد أن يفعل إذا كان الصباح ، فلقى أترابه وشاركهم فى الجد والهزل وفى الدرس واللعب . حاول أن يحفظ حصته من القرآن فانصرف عن هذا الحفظ إلى مداعبة اللدات والأتراب . وكان قد أُنسى قصة صالح ولم يذكر إلا أنه سيعود معه آخر النهار إلى الدار ، ولكنه اضطر حين تقدم النهار إلى أن يذكر صالحاً فى كثير جدًّا من القلق والخوف ، ثم فى كثير جدًّا من الجزع والهلع ، ثم فى كثير جدًّا من الألم والحزن . فقد «سمع» سيدنا الضرير يسأل عريفه البصير: هل تفقدت الأختام ؟ قال العريف : نعم . قال سيدنا : وهل سلمت لك كلها ؟ قال العريف : نعم إلا ختم صالح ابن الحاج علىّ فإنه قد ضاع ، وما أشدحاجة هذا الفتى إلى التأديب فإنه لا يطيع أمراً ولا يسمع كلاماً ولا يخرج من الكتّاب مع العصر إلا لينغمس فى الماء .

وهنا يسأل القارئ — وما أكثر ما يسألنى القراء كما كانوا يسألون ذلك الكاتب الفرنسى الذى ذكرته آنفاً — هنا يسأل القارئ عن هذه الأختام ما هى ؟ وماذا يمكن أن تكون ؟ ولا بد من أن أجيبهم ؛ فأكثرهم من أبناء هذا الجيل الذين لم يذهبوا إلى الكتّاب ولم يعرفوا قصة الأختام والماء ، وقليل منهم قد بعد عهده بالكتاب وما كان يحدث فيه من الخطوب . كانت قصة الأختام هذه تمثل فى الكتّاب كل عام حين يقدم الصيف ويشتد القيظ ويحب الصبية والفتيان أن يتبردوا بماء النهر أو بماء القناة إذا خرجوا من الكتّاب مع العصر أو إذا ذهبوا إلى دورهم للغداء . وكانوا يسرعون إلى نسيان القيظ والتبرد متى انغمسوا فى الماء ، وينصرفون إلى العبث والسباحة والاستباق فى العوم . وكانت الأسر تشفق عليهم من ماء النهر ومن ماء القناة ، وتطلب إلى «سيدنا» أن يتخذ ما يرى من وسائل التأديب والتقويم ليصدهم عن هذه الرياضة

الخطرة . وسيدنا قد اتخذ قطعة مستديرة من الخشب واحتفر فيها شيئاً لا أدرى ما هو . فإذا كاد الضحى يرتفع أقبل العريف بهذه القطعة من الخشب التى كانت تسمى الختم وغمسها فى مادة حمراء وختم بها أفخاذ الصبية والفتيان الذين كان يظن بهم حب الرياضة فى ماء النهر أو فى ماء القناة . وكان زوال الآية التى يتركها الخاتم فى فخذ الصبى أو الفتى دليلا على أنه قد خالف الأمر وقارف هذا الإثم العظيم . فلم يكن بدٌّ إذاً من تفقد هذه الأختام فى كل يوم وتجديدها إذا محاها طول الوقت ، وعقاب الصبى أو الفتى إذا محيت آية الختم على فخذه قبل الأوان .

ولست أدرى أيعرف القارئ أو لا يعرف أن العريف فى الكتّاب قد كان رمز الرشوة والفساد، كما أن «سيدنا» قدكان رمز السذاجة والقسوة . ولكن المحقق أن الصبية والفتيان كانوا يقترفون إثمهم هذا العظيم فى غير اكتراث ، ولا يكادون يخرجون من الكتّاب حتى يسرعوا إلى الماء ويلقوا أنفسهم فيه . وكانوا يشترون كذب العريف ورضاه بما يقدّمون إليه من هذه الطُّرَف اليسيرة التى يحملونها من بيوتهم يسرقونها للعريف أحياناً ويصرفونها عن أنفسهم إليه دائماً . ولم يكن صالح يحمل طرفاً يسيرة ولا خطيرة لنفسه أو للعريف . وقد طال على العريف إبطاء صالح عليه بالرشوة . ولم يسأل نفسه أكان هذا الإبطاء عن عجز أم كان عن عمد ومكر . فأراد أن يؤدبه فأفشى أمره لسيدنا ، ولو آثر الصدق لما خص صالحاً بهذه الوشاية . وكان أمين يعلم هذا حق العلم كما كان يعرفه غيره من أترابه . ولأمر ما امتلأ قلبه فجاءة حبًّا لصالح وعطفاً عليه ورحمة له ، فلم يكد يسمع العريف البصير يغرى به سيدنا الضرير حتى صاح بأعلى صوته : إن العريف لم يقل لك الحق كله ؛ فليس صالح وحده هو الذى فقد ختمه ، وإنما فقده الأتراب جميعاً لأنهم يذهبون جميعاً إلى النهر أو إلى القناة ، ولكنهم يرشون العريف بما يحملون إليه من طرف ، فأما صالح فلا يحمل إليه شيئاً .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الشجاعة أن أُديرت « الفلقة » على ساق صالح وعمل السوط فى رجليه حتى دميتا ، ثم أُديرت « الفلقة » على ساق أمين ومس السوط رجليه مسًّا خفيفاً لم يدمهما ولكنه علّم أميناً أن الشجاعة والصراحة وقول الحق خصال لا تحسن فى جميع المواطن . . . ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهانت المحنة وسهل احتمالها ، ولكن الأتراب والرفاق أعرضوا عن صالح وأمين واتخذوهما عدوًّا ، وجعلوا يكيدون لهما ويمكرون بهما ويذيقونهما من

العبث فنوناً وألواناً . وقد عاد صالح مع أمين إلى داره لا يكاد يحسن المشى على رجليه ، ولكنه وجد عند رفيقه تسلية وتعزية . ولم تكد أم أمين ترى هذا البائس المسكين حتى رحمته ورقت له وآثرته ببعض الخير ، ثم أهدت إليه ثوباً من ثياب ابنها ، لم يكد صالح يراه حتى جُنَّ جنونه وخرج عن طوره من الفرح ، ونسى « الفلقة » التى دارت على ساقيه والسوط الذى مزق قدميه ، وأقسم ليسرعن إلى الماء وليغمسن نفسه فيه ، وليضيعين آية الختم الجديد ، وليتعرضن لوشاية العريف ، وغضب سيدنا ، فما ينبغى أن يلبس هذا الثوب الجميل دون أن يستحم ويزيل من جسمه آثار ذلك الثوب البالى القذر . قالت له أم أمين لا بأس عليك ، فسأطلب من سيدنا أن يعفيك من الفلقة والسوط غداً . وانصرف الصبى فرحاً مرحاً محبوراً . وقال أمين لأمه ألا تنبئيننى الآن لماذا ضرب سيدنا صالحا ضرباً مبرحاً حتى أدمى رجليه ولم يضربنى أنا إلا عابثاً ؟ قالت : لأن صالحاً أضاع الختم وخالف الأمر وانغمس فى الماء فكان ذنبه عظيما يستحق عقابا عظيما . فأما أنت فقد خرجت عن حدود اللياقة حين قلت أمام أترابك ما قلت فى العريف ، فكنت خليقاً أن تلقى عقاباً يسيرا . قال الصبى : وأنا مع ذلك لم أقل إلا الحق ! قالت أمه وهى تضحك : فإن الحق لا يقال فى جميع المواطن . قال الصبى : وكيف السبيل إلى أن أعرف المواطن التى يقال فيها الحق والمواطن التى يقال فيها الباطل ؟ قالت أمه وهى تضحك : ستعرف هذا كله إذا تقدمت بك السن ، فأما الآن فانصرف إلى حديدك هذا الذى جمعته فى زاويتك تلك والعب به ، وتحدث إليه حتى تدعى للعشاء .

وذهب أمين إلى حديده فلعب به وتحدث إليه ، وأحدث من الضجيج والعجيج ماشاء الله أن يحدث ، ولكنه انصرف عن حديده وزاويته وسعى إلى أمه يسألها : ما بال صالح لا يحمل إلى العريف مثل ما يحمل إليه غيره من الطرف والهدايا ؟ قالت أمه : لأن صالحاً فقير معدم لا يجد ما يقوت به نفسه فضلا عن أن يجد ما يهدى إلى العريف . قال أمين : ولماذا كان صالح فقيراً معدما لا يجد ما يقوت به نفسه وما يدفع به شر العريف ؟ قالت أمه وقد أخذت تضيق بإلحاحه : لقد عدت إلى ثرثرتك فامض لشأنك ولا تثقل علىَّ . ولكن الصبى لم يمض لشأنه وإنما مضى فى الإثقال على أمه ، فلم تتخلص منه إلا حين أظهرت له الغضب وأنذرته إنذاراً كاد يبكى له ، ثم رحمته فوضعت فى يده قطعة

من النقد وهى تقول : اذهب فاشتر بهذا شيئاً من الحلوى . قال الصبى مبتجهاً : سأشترى بنصفه شيئاً من الحلوى وسأدفع نصفه الآخر إلى صالح ليؤديه إلى العريف إذا كان الغد . ثم انصرف يعدو وقد ارتفع صوته بالغناء .

ولكن أميناً لم يدفع نصف القرش إلى صالح ، لأن صالحا لم يذهب إلى الكتّاب من غده . وقد وقع فى نفس الصبى شىء من الغيظ ثم من الحزن حين التمس رفيقه فلم يجده ، وحين انتظر مقدمه فلم يقبل حتى ارتفع الضحى ، وحين استيقن أن صالحاً لن يلمّ بالكتّاب من يومه ، ثم لم يلبث أن تسلّى عن صالح وغيبته بمداعبة الرفاق والأتراب . ثم لم يكد يفرغ من غدائه بين سيدنا الضرير وعريفه البصير حتى خرج ليشهد صلاة الظهر فيما زعم ، ولكنه اشترى بنصف القرش بعض هذا السخف الذى يحبه الصبية وعبث مع أترابه حول المسجد ، وعاد معهم إلى الكتّاب وما يشك سيدنا وما يشك العريف فى أنه قد شهد الصلاة .

وانقطع صالح عن الكتّاب يوماً ويوماً ، ثم أقبل عليه ذات صباح كئيباً محزونا لايكاد قدّه يستقيم من الضعف . ونظر أمين فإذا هو فى ثوبه ذلك البالى القذر . وقد تلقى أمين رفيقه مبتسما له حفيًا به مستنبئاً عن غيبته تلك التى طالت . وهمّ صالح أن يجيب ولكن صوته احتبس فى حلقه وجرت على خديه دموع منسجمة غزار ، فبهت أمين لأنه لم يعرف البكاء الصامت قط ، ولم يقدّر أن الصبية يمكن أن يبكوا دون أن يمسهم سوط سيدنا أو دون أن يعنف بهم الآباء والأمهات ليؤدبوهم بالأيدى حيناً وبالكلام أحياناً . ثم استبان لأمين من أمر رفيقه ما ملأ قلبه حزنا ودفعه إلى كثير من الحيرة والشك والاضطراب . فقد كان الثوب الذى أهدته أمه إلى رفيقه مصدر شقاء عظيم وضر ملحّ لهذا الرفيق البائس . خرج صالح بثوبه الجديد مسروراً محبوراً تكاد ساقاه تسبقان الريح عدواً ، ويكاد صوته المرتفع بالغناء يسكت الطير التى كانت ترقص على أغصان التوت وتنشر فى الجو ألحانها العذاب . وانغمس فى القناة كأحسن ماتعلّم أن ينغمس ، وعام فى القناة كأحسن ماتعوّد أن يعوم ، فبذ الأتراب وتفوق على الرفاق ، وخرج من القناة فرحاً مرحاً مبتهجاً مغتبطاً ، قد امتلأت نفسه رضاً وامتلأ قلبه سعادة ، وفاض من نفسه الراضية وقلبه السعيد على جسمه جمال

غريب لفت إليه أصحابه وأترابه ، وقال بعضهم لبعض : ما رأينا صالحاً كما نراه اليوم ، حسن المنظر رائع الطلعة قد امتلأ قوة وحياة ونشاطاً . ثم دخل فى ثوبه الجديد وكاد السرور أن يدفعه إلى شيء من الغرور ، ولكن الحياء اضطره إلى بعض القصد وأمسكه فى بعض الإعتدال ، فرضى عن نفسه فى دخيلة ضميره ، وارتفعت إليه أبصار أصحابه بألوان من الغبطة والحسد ومن العطف والبغض .

وعاد مع مغرب الشمس إلى داره يكاد يخطر فى ثوبه الجديد ، وقد طوى ثوبه البالى القذر وحمله بين ذراعه وجنبه متأذيا متكرهاً لاحتماله ، ولو استطاع لتركه فى بعض الطريق ، ولكنه كان أذكى من ذلك قلباً وأصدق من ذلك فطنة ، فاحتمل ثوبه ذلك البالى إلى امرأة أبيه لعلها تستطيع أن تصنع منه شيئاً .

وما أشك فى أن القارئ سيقف عند هذا الموضوع من الحديث ، وسيسأل نفسه ولو استطاع لسألنى أنا : ألم يكن من الخير أن نعرف من أول القصة أن صالحاً قد فقد أمه وأنه كان يعيش يتيما ينعم بما يختلس من حب أبيه سرًّا ويشقى جهرة بما يُصَبُّ عليه من بغض هذه الضرة التى قامت مقام أمه فى البيت ؟

ولست أشك فى أن القارئ سيضيف إلى هذا السؤال ملاحظة فيها شيء من القسوة والسخرية والغيظ ، فيقول فى نفسه : لو أن الكاتب سلك فى قصته الطرق الممهدة والسبل المعبدة التى رسمها النقاد للقصة لعرَّف إلينا صالحا فى أول حديثه ولأنبأنا بموت أمه وتزوج أبيه ، ولأعفانا من هذه المفاجأة التى لم نكن فى حاجة إليها . ولكنى أعيد على القارئ ما قلته آنفاً من أنى لا أضع قصة ، وإنما أسوق حديثاً ، وأضيف إلى ذلك أن الذين يسوقون الأحاديث لا يقدمون بين يديها هذه المقدمات التى يبينون فيها الموطن والبيئة والأسرة والزمان والمكان إلى آخر هذا الكلام الكثير الفارغ الذى يلهج به النقاد . ولو أنى بدأت هذا الحديث برسم واضح دقيق لشخصية صالح وأمين ومن يتصل بصالح وأمين من الناس ، لضاق القراء بهذه المقدمات أشد الضيق ، ولقال بعضهم : تجاوزْ حديث الطوفان وصِلْ إلى غايتك فلسنا من الغباء والغفلة بحيث نحتاج إلى كل هذا التمهيد .

وبعد فمن أنبأ القارئ بأن صالحا يتيم وبأن أمه قد ماتت ؟ الشيء

الذى لا أشك فيه ولا ينبغى أن يشك فيه القارئ هو أن صالحا لم يكن يتيما ، وأن أمه لم تكن ميتة ، وإنما كانت حية أكثر مما ينبغى أن يحيا الناس ، إن صح أن تكثر الحياة وتقل . وسواء رضى القارئ أم لم يرض فقد كانت أم صالح حية من غير شك لأنى أنا أريد ذلك ، وليس يعنينى ما يريد غيرى من الناس ؛ فأنا الذى أخترع صالحا من لاشىء ، أو أخذ صالحا من عرض الطريق لأن صالحا موجود ولأنه غير موجود . موجود فى حقيقة الأمر ، لأننا نراه فى كل ساعة وفى كل مكان ، وغير موجود فى حقيقة الأمر أيضاً لأنه يملأ المدن والقرى ويسرف على نفسه وعلى الناس فى الوجود ، والشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، كما يقال . فأنا إذاً وحدى - كما كان يقال أيضاً - أعرف من أمر صالح مالا يعرف غيرى من الناس ، وأقرر أن أمه لم تترك الدار لأنها ماتت ، وإنما تركت الدار لأنها طلقت . وأنا أستطيع ان أصنع بأمه بعد هذا الطلاق ما أشاء : أستطيع أن ادعها مطلقة تعمل خادماً فى بعض الدور ، وأستطيع أن أجد لها زوجاً تعيش معه سعيدة موفورة ، وأستطيع أن أسخرها لعمل من هذه الأعمال التى يعيش منها أمثالها من البائسات ، فقد أسخرها لبيع الخضر ، وقد أسخرها لبيع الفاكهة ، وقد أكلفها أن تصنع الخبز فى بيوت الأغنياء وأوساط الناس ، وقد أكلفها أن تغسل الثياب فى هذه البيوت ، وقد أجد لها ما أشاء من الأعمال غير هذا كله ؛ لأنى حر فيما أحب أن أسوق إلى القارئ من حديث ، ولأن القارئ يضطر إلى أن يتلقى حديثى كما أسوقه إليه ، ثم هو حر بعد ذلك فى أن يقبله أو يرفضه ، وفى أن يرضى عنه أو يسخط عليه .

والواقع من الأمر أنى لا أكلف أم صالح شيئاً من هذه الأعمال التى ذكرتها ولا أفرض عليها شيئاً من هذه الخطط التى رسمتها ؛ لأنى على حريتى فى أن أصنع بها ما أشاء ، أوثر الأمانة فى رواية التاريخ . وقد حدثنى التاريخ بأن خديجة أم صالح قد كانت شاذة الخلق سيئة العشرة ، وبأن الحاج علياً أبا صالح لم يكن ظالماً ولا جائراً حين طلقها بعد أن ولدت له صالحا بعام أو عامين . فقد كان هذا الرجل طيب القلب سليم النفس ، لا يحب شيئاً كما يحب الدعة والهدوء . وكانت امرأته خديجة أم صالح منكرة الخلق بغيضة العشرة كثيرة الكلام شديدة الصياح ، لا ترضى بشىء ولا ترضى عن شىء ، فاضطر هذا الرجل البائس إلى فراقها ، واستبقى ابنه صالحا فى كنفه . وحاول أن يفرغ له ويقوم على تربيته فلم يستطع

لأن خطوب الحياة تكلف أمثاله أن يعملوا ليعيشوا . ولم يكن من الممكن أن يعمل الرجل لكسب القوت وأن يفرغ لتربية ابنه . وهو بعد ذلك رجل من الناس لا يستطيع أن يعيش إلا كما يعيش الناس ، فاضطر إذاً أن يتخذ لنفسه امرأة تربى له صالحا وتمنحه غيره من الولد . واتخذت خديجة لنفسها زوجاً يعينها على الحياة ويعوضها من صالح هذا الذى احتجزه أبوه لأنه اشترى القاضى بأرطال من البن . وماذا تريد أن أصنع وقد كانت الحياة تجرى على هذا النحو فى ذلك العهد القديم !

وليس أدل على أن أبا صالح قد كان معذوراً حين فارق امرأته من أن خديجة قد اضطرت زوجها الثانى إلى أن يطلقها بعد أن وهبت له غلاماً أسماه سعيداً ، وهو قد فارقها لنفس الأسباب التى فارقها من أجلها زوجها الأول ؛ فقد كانت سيئة العشرة بغيضة الخلق كثيرة الكلام مرتفعة الصياح لا ترضى بشىء ولا ترضى عن شىء . ولكن حظها فى هذا الطلاق الثانى كان حسناً أو سيئاً لا أدرى ! فما أكثر ما تختلط أمور الناس على الأذكياء حتى لا يفرقوا بين الخير والشر ، فكيف بمن كان مثلى قليل الحظ من الذكاء لا يفرق بين السعادة والشقاء ! والشىء المحقق هو أن خديجة لم تكد تطلق حتى مات زوجها وترك لها ابنها سعيداً تربيه كما تشاء أو كما تستطيع . ولم تربّه كما شاءت أو كما استطاعت ، وإنما ربته الطبيعة كما أحبت . وقد زهد الأزواج فى هذه المرأة ذات العشرة السيئة والخلق البغيض ، وثقلت الحياة على هذه المرأة ذات الحيلة الضيقة والعقل الكليل ، فباعت الفجل حيناً والترمس حيناً آخر ، ثم اختلط الأمر عليها فجنّت جنوناً هادئاً رفيقاً ، عطف عليها القلوب وأخاف منها الناس ، فسميت « خديجة المعفرتة » وعاشت من إحسان المحسنين . وبينما كان ابنها سعيد ينمو فى ظل هذا الجنون الهادئ المخيف كان ابنها صالح ينشأ فى ظل هذه الضرة التى أظهرت حبّاً له وعطفاً عليه ، ثم رزقت البنين والبنات فأظهرت بغضاً له وضيقاً به . وكذلك نشأ أحد الأخوين فى حماية البغض العاقل ، ونشأ الآخر فى رعاية الحب المجنون .

حدثنى أيها القارئ العزيز أكان من الخير أن أعرض عليك تفصيل هذا كله فى أول هذا الحديث فتضيق بى وبصالح وبأمين وبالجملة التى تحمل إليك هذا الحديث ، أم كان الخير أن أذهب إلى المذهب اليسير الذى اخترته وأن أحدثك بكل شىء حين يحين التحدث به إليك ؟ أنا أعرف أنك ستعاند وستمارى ،

وستذهب فى عنادك ومرائك مذاهب مختلفة ، فأنت وما تشاء . أما أنا فقد ذهبت المذهب الذى اخترته ، وحدثتك بالأمر على النحو الذى آثرته ، وانتهيت منه حين إلى أن صالحاً قد استحم فى القناة ودخل فى ثوبه الجديد وعاد إلى امرأة أبيه مسروراً بهذا الثوب الذى لبسه مهدياً ثوبه القديم الذى ضمه بين ذراعيه وجنبه .

ولكن امرأة أبيه نظرت إليه من رأسه إلى قدمه فرأت ثوبه الجديد ورضيت عنه ورأت ثوبه القديم وضاقت به ، ثم أدارت بصرها فى الحجرة فرأت ابنها وبنتها قد اتخذا ثوبين باليين كذلك الثوب القديم يبديان عن الكتفين كما يبديان عن الظهور والصدور ، ثم ردت النظر إلى صالح فى ثوبه الجديد ، ثم أعادت النظر إلى ابنيها فى ثوبيهما القديمين ، ثم ارتدت عيناها إليها وقد ارتسمت فى نفسها الخطة واضحة جلية ولكنها بشعة بغيضة ؛ فإن هذا الثوب الجديد لم يخلق لصالح ، وإنما خلق لابنها محمود . ولم يشرق الصبح من غد حتى كان صالح قد لقى من أبيه ومن امرأة أبيه نكراً ، فضرب ضرباً مبرحاً مرض له أياماً ، وجرد من ثوبه الجديد الجميل ورُدَّ إلى ثوبه القديم البالى ، وعجز الفتى عن الذهاب إلى الكتّاب من غده ، وأقام فى الدار كَنًى فى زاوية من زواياها يهمل فى ازدراء ويمرّض فى عنف ، حتى إذا استطاع أن يمشى على قدميه سعى إلى الكتّاب ليشقى فيه ببغض العريف وقسوة سيدنا ، ولينعم فيه بعشرة أمين .

كذلك عرف أمين قصة رفيقه البائس ، فلم يدر عقله الناشئ كيف يقضى فى هذه القصة . لو أنه لم يتحدث إلى أمه عن ذلك الثوب البالى الذى كان صالح يلبسه لما أهدت أمه إلى صالح ذلك الثوب الجديد ، ولمضت أمور صالح على ذلك البؤس الهادئ المطرد . فهو إذاً قد أراد أن يحسن إلى رفيقه فأساء إليه . أيلوم نفسه فى ذلك أم يلتمس لها المعاذير ؟ والحق أنه لم يلم نفسه أو يعذرها ، وإنما فرغ لصاحبه يعزّيه ويسليه ، وحدث نفسه بأن أمه الكريمة قد تجد بين ثيابه ثوباً آخر تكسو به رفيقه المسكين . ولكن القارئ يخطئ أشد الخطأ إن ظن أن الحياة تجرى دائما على هذا النحو المألوف من المنطق وتلائم دائما ما ألف الناس من التفكير والتقدير . فليست الحياة أقل منى ثورة على الأصول الموضوعة والقواعد المرسومة والخطط المدبرة ، وإنما الحياة تمضى كما تريد هى لا كما يريد الناس . وقد راح صالح وأمين من الكتّاب مساء ذلك اليوم . فلم يرعهما حين بلغا ذلك المكان الذى تمتد فيه الخطوط الحديدية من الشمال إلى

الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال إلا جماعة مزدحمة تتصايح ويدعو بعضهما بعضاً ولم يبلغا هذه الجماعة حتى رأيا منظراً راعهما وروعهما : جثة قد شطرت شطرين وألقى عليها ثوب غليظ يستر بشاعتها عن العيون ، وامرأة قائمة تلطم وجهها وتضرب صدرها وتسفح دمعها وتنشر فى الفضاء ضحكا عريضا . فأما الجثة فكانت جثة سعيد أكلها القطار . كما كان يقال فى تلك الأيام . وأما المرأة فكانت خديجة تدفعها الغريزة إلى الجزع ويدفعها الجنون إلى الضحك . وأما صالح فنظر إلى أخيه ونظر إلى أمه وهمّ أن يقف ولكنه آثر أن يمضى مع رفيقه كأنه لم ير شيئا . ولست أدرى ما صنع الرفيقان ، ولكنى أعلم أن أبا أمين راح إلى أهله حين تقدّم الليل وهو يقول محزوناً : لقد كانت القطر شرهة منذ اليوم ، أكل أحدها سعيداً مع الظهر وأكل الآخر صالحاً مع الليل ، وفقدت « خديجة المعفرتة » ابنيها فى يوم واحد . ثم التفت فرأى ابنه أمينا مذعوراً يكاد ينقدّ من البكاء ، فمسح على رأسه وقبّل بين عينيه وقال له فى صوت رفيق : لن تغدو على الكتّاب إذا كان الصبح ، لأنك ستذهب إلى المدرسة الابتدائية فى عاصمة الإقليم .

قال أمين بعد أن تقدمت به السن وأصبح رجلا ذا خطر : ما زلت أرى تلك الجثة قد أُلقى عليها ثوب غليظ ، ولكنى أنظر إلى وجهها فلا أرى وجه سعيد وإنما أرى وجه صالح ؛ ومع ذلك فلم أر صالحا حين أكله القطار .

طه حسين

السياسة والتعليم

[ألقى هذا الحديث فى مؤتمر التعليم الذى انعقد فى الجمعية الجغرافية فى ١٨ نوفمبر الى ٢٠]

يكره بعض الناس السياسة ويَلْحَوْنَ السياسة ويلقون عليها التبعة فيما يفسد الحياة العامة من أكدار وأوزار . فالسياسة فى اعتبارهم خبث ودهاء ، ونفاق ورياء ، وحقد وجفاء ، وطغيان واعتداء ، وحرب هوجاء ، وحزبية صارخة حمقاء ، ونتائجها بالطبع شر فى شر وبلاء فى بلاء .

وهؤلاء فى نظرتهم هذه إلى السياسة معذورون . فهكذا أراد الساسة أن تكون السياسة فى أكثر أقطار الأرض وأغلب أدوار التاريخ .

ولكننا لو أنصفنا لخالفناهم ونظرنا إلى السياسة بغير العين التى نظروا بها إليها، فبرّأناها مما يصفون. فالسياسة فى حقيقة الأمر غير مايظنون. ولا ذنب لها إذا ضل الساسة وتنكبوا سواء السبيل .

السياسة تصريف المسائل العامة ورعاية المصالح العامة . والأصل أن نصرّفها وأن نرعاها بما يرضى الله والضمير . ولو فعلنا لكانت السياسة فى مخبرها وفى مظهرها أفضل المهن وأشرفها وأعظمها شأناً وأكثرها نفعاً وأبعدها أثراً فى سعادة الناس .

والسياسة بهذا التعريف تدخل فى كل شأن من شؤون الحياة وتلعب فيه دورها الخطير . ومن هنا تتجلى لكم العلاقة الوثيقة بينها وبين التعليم ، بل لعل علاقتها به أقرب وأوثق من علاقتها بأى شأن سواه .

فالتعليم غذاء العقول والنفوس والأرواح ، ضرورى كغذاء الأبدان ، لازم كالهواء لحياة الإنسان ، حيوى فى تأكيد الفرق بينه وبين الحيوان . وقد بلغ من أهميته أن أوصانا النبى الكريم عليه الصلاة والسلام بأن نطلبه من المهد

إلى اللحد ، وأن نطلبه ولو فى الصين . فلا عجب إذن أن تعنى السياسة أكبر العناية بشؤون التعليم ، وأن تعتمد عليه أعظم اعتماد فيما ترمى إليه من رعاية مصالح الناس وتحسين مصايرهم .

والتعليم من جانبه يستطيع إذا فهم رسالته على وجهها وأدّاها حق أدائها أن يخطو أوسع الخطوات ويُقدم أجل الخدمات فى هذا السبيل .

على أن للسياسة معنى أضيق تميل إليه فى البلاد التى شاء لها القدر القاسى أن يتحكم غيرها فى أقدارها ومصايرها وأبت همة أبنائها إلا أن ينهضوا لاسترداد الحق المهضوم . ففى هذه البلاد تمتزج معانى السياسة وتختلط مراميها بالمبادئ الوطنية والمطالب القومية والجهاد فى سبيل الحرية والكرامة والاستقلال . وإلى هذه الأهداف النبيلة ينبغى أيضاً أن تتجه مرامى التعليم .

ولا يتسع المقام أيها السادة للإسهاب فى علاقة التعليم بالسياسة وضرب الأمثلة عليها وتحريها عند غيرنا من الأمم لنقارنها بما عندنا . فأكتفى بأنْ أشير إليها فى تاريخ مصر الحديث إشارة عابرة فيها مصداق ما أقول ، وفيها ذكر وعبرة ونفع للمؤمنين .

فى أيام المماليك وأيام الحملة الفرنسية قامت فى مصر نهضة وعى قومى وشعور وطنى ، حمل لواءها العلماء وفى طليعتهم نقيب الأشراف السيد عمر مكرم الذى استحق أن يلقبه بعض المؤرخين برئيس الرؤساء وزعيم الزعماء . وساهمت تلك النهضة الوطنية فى تنصيب المغفور له محمد على باشا مؤسس الأسرة المالكة الكريمة ومنشئ مصر والياً على مصر . فجلس على عرشها باسم الشعب المصرى وبتأييد ناطق من المصريين . وكان هذا الوالى الكريم من عباقرة البنائين ، فلم يفته ما للتعليم من الأهمية الكبرى فى تأسيس الدولة المصرية وتوطيد أركانها ، فأولاه أشد العناية وأبلغ الاهتمام .

وكان التعليم القائم تعليماً دينيًّا ، يحمل أكبر عبئه الأزهر الشريف ، فلم يهدمه الوالى ولكنه أقام إلى جانبه صرح التعليم المدنى الحديث ، فأنشأ المدارس الابتدائية والتجهيزية والحربية والبحرية والخصوصية والفنية والصناعية ، ولم ينس مدارس البنات ، وأوفد البعوث العلمية ، وعنى بترجمة الكتب الأجنبية ونظم هيئة الإشراف على شؤون التعليم فأنشأ شورى المدارس فديوان المدارس ووضع اللوائح ، وأصدر القرارات بنظم الدراسة وبرامجها وخطط الإدارة

وتفصيلاتها . وعلى الجملة قد خلق من العدم نهضة تعليمية حديثة واضحة المعالم مستوفية الكيان .

ويجب أن نعترف بأن محمد على باشا مزج التعليم بالجندية إلى حد كبير ، وكان يسخره لأغراضه الحربية واعتباراته الحكومية ويرمى به إلى تعزيز الجيش بالضباط والأطباء والمهندسين والأسلحة والعتاد ، وتعزيز هيئة الحكومة بالموظفين المصريين والتمكن من الاستغناء عن الموظفين الأجانب الذين اضطر إلى استخدامهم . ولم يكن يعنى فى نهضته التعليمية إلا قليلاً بتهذيب عامة الشعب ورفع مستواهم الثقافى . ولكنى لا أحسب ذلك عيباً كبيراً ؛ فقد كان ينشئ من العدم ويماشى روح العصر ، ووفق مع ذلك إلى تحقيق الكثير من الأغراض القومية التى لخصها الأستاذ أحمد عزت عبد الكريم فى كتابه القيم عن التعليم فى عصر محمد على باشا على الوجه الآتى :

١ — توجيه البلاد وجهة التعليم الحديث
٢ — نشر الثقافة الغربية إلى جانب نشر الثقافة العربية
٣ — بث الروح القومية
٤ — توطيد زعامة مصر فى الشرق العربى
٥ — النهضة باللغة العربية
٦ — فتح الباب لدعم أركان النهضة التعليمية فيما يلى من العصور .

غير أن خلفاء محمد على لم يعنوا عنايته بالتعليم ، فخبت جذوته كما خبت جذوة غيره من النهضات حتى كان عهد إسماعيل العظيم .

وإسماعيل بعد جده الكبير منشئ مصر الحديثة وصاحب الأيادى البيضاء فى يقظتها والعامل الدائب على أن تصبح مصر جزءا من أوربا فى رقيها وتقدمها ، فعادت نهضة التعليم على يديه سيرتها فى عهد جده ، وأدخل عليها الكثير من التعديلات والتحسينات وبخاصة فى الروح والنظام والأهداف ، ففُتحت المدارس الأهلية ونشر التعلم فى الأقاليم ، وأنشئت مدرسة دار العلوم لتخريج المعلمين الصالحين ، ورتبت المحاضرات والدروس العامة ، وانتشرت الجرائد السيارة وتنوعت موضوعات الكتابة فيها . وعنى على وجه خاص بالموضوعات القومية والوطنية والتهذيبية والإصلاحية . واهتم اسماعيل بالفنون الجميلة على اختلاف

ألوانها ، فكان أول راع لها فى التاريخ المصرى الحديث . ومن هذا كله ترون أن إسماعيل خرج بالتعليم المدنى من دائرته الضيقة دائرة إعداد الضباط والموظفين إلى دائرة أوسع وأفق أسمى ، فأصبح من مرامى التعليم تهذيب عامة الشعب ورفع مستوى الثقافة عند الأمة كلها وتكوين رأى وطنى عام يفكر فى مصاير الوطن ويحرص على مصالحه العليا .

ووافق ذلك نهضة موازية فى أفق التعليم الأزهرى على يد الزعيم الروحى الكبير السيد جمال الدين الأفغانى ، فكانت هاتان النهضتان العلميتان الروحيتان أساس كل نهضة قومية وحركة وطنية قامت بعد ذلك فى مصر ، وإليهما تنتسب روح الثورة العرابية التى أوقدتها العناصر المصرية لإنصاف المصريين ، ولم يقم بها رجال الجيش وحدهم بل حمل عبئها معهم كثير من أهل الرأى وقادة الفكر وحملة الأقلام ، وفى طليعتهم محمد عبده ، وعبد الله نديم ، وسعد زغلول .

ثم منيت مصر بالاحتلال المشئوم ، وعنى رجاله عناية فائقة بوضع اليد على شؤون التعليم وتوجيهها فى خدمة الاحتلال ، وافتن مستشار المعارف المشهور المستر دنلوب فى وضع الخطط المؤدية إلى تلك الغاية ، فأصبح الغرض من المدارس إعداد موظفين يفكرون بروح الاحتلال ويخدمون أغراض الاحتلال . وضيقت دائرة التعليم وحوربت المجانية فيه بل ألغيت إلغاء تامًّا ، وهبط نوعه ومستواه فحول الكثير من المدارس الابتدائية إلى كتاتيب ، وصرفت العناية إلى هذه الكتاتيب على حساب التعليم العالى . وفرضت اللغة الانجليزية فرضاً لا على حساب اللغة الفرنسية وحدها ولكن على حساب اللغة العربية أيضاً . وترتب على فرضها فرض المعلمين الانجليز على دور العلم وإن جهلوا فى بعض الأحيان ما يعلّمون .

وغنىٌّ عن البيان أن الشعب المصرى لم يطق صبراً فى يوم من الأيام على الاحتلال بل كافحه منذ اليوم الأول وحاربه دون هوادة . وتوالت آيات هذا الكفاح وتعددت مظاهره ، وكلها تمُتُّ بسبب مباشر أو غير مباشر إلى التعليم .

فهذا هو الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل وصاحبه النبيل الأمين محمد فريد وأنصارهما من صفوة المثقفين ونخبة المفكرين يرفعون راية الوطنية ويقودون الحركة الاستقلالية بما أوتوا من تفوق علمى وتحرر عقلى ملأ نفوسهم بحب

الوطن وأفعم رءوسهم بحق الوطن ، وحبب إليهم فى سبيل الوطن احتمال أفدح الأرزاء وبذل أكرم الفداء .

وهذا هو سعد زغلول ابن الثورة العرابية أولا ، وأبو الثورة الاستقلالية أخيراً ، يشاء الله أحكم الحاكمين أن يتولى نظارة المعارف العمومية والاحتلال فى أشد جبروته ، فما يبالى جبروت الاحتلال ولكن يبذر فى أرض المعارف الخصبة بذور الحرية والاستقلال ، فيبادر من أول لحظة بوضع الحد لطغيان المستر دنلوب ويفهمه فى صراحة وجلاء أن الأمر فى نظارة المعارف أمر الناظر المصرى لا أمر المستشار الإنجليزى . ثم لا يزال بشؤون التعليم ينظر فيها بعين مصرية ويداويها بروح وطنية وينفى عنها أغراض الاحتلال حتى يستقيم لها أساس وطنى سليم . فهو يعيد المجانية وبخاصة لذوى الاستعداد من المتفوقين الذين لا تسمح لهم الحال بمواصلة التعليم . وهو يعنى بالدراسة العالية والبعوث العلمية ، وهو يحل اللغة العربية محل اللغة الإنجليزية فينصف لغة البلاد ويرفع كرامتها ، وييسر العلم للطلاب ، ويفتح للمعلم المصرى موصد الأبواب .

وهذا هو قاسم أمين يعرف بسليم فطرته وثاقب فكرته وواسع ثقافته مكانة المرأة فى المجتمع ، فيدعو دعوته إلى تحريرها وتعليمها لتنهض مع الرجل بواجبها فى تحرير الوطن ورفع شأنه بين الأوطان . بل هذه هى مصر الراقية كلها تضيق ذرعا بما يلقاه أبناؤها من تضييق فى التعليم العالى ، فيتنادى عِلْيَة مفكريها ونخبة مصلحيها وينادون غيرهم لإنشاء جامعة أهلية ينمو فى كنفها التفكير الحر والشعور الوطنى الصميم ، وتتقدم الباذلين لإنشاء هذه الجامعة الأميرة الجليلة فاطمة بنت اسماعيل فتجود بالحبوس والحلى والنقود . ويرأس المشروع الأمير الجليل فؤاد بن اسماعيل ، فيبذل أكرم الجهود حتى تستوى الجامعة الأهلية مثابةً لحرية الفكر ونور العلم ، ونواةً لأول جامعة حكومية تتوج الثقافة المصرية وترفع رأسها فى الآفاق .

ولقد كانت حتماً مقضياً أن تفضى هذه الحركات الوطنية الرائعة والنهضات العلمية المتتابعة إلى الثورة القومية الجامعة التى عمت مصر فى سنة ١٩١٩ وقاد زمامها ناظر المعارف القديم سعد زغلول وكان طلاب العلم جنودها المخلصين .

ثم تؤتى هذه الثورة أكلها مزدوجاً طيباً ، فتحظى مصر بالدستور ويعترف

لها الاستقلال وتخلص شؤون التعليم فى ظلهما للحكومة المصرية تحت إشراف البرلمان

أيهـا السادة

هذا عرض مختصر لتطورات التعليم فى مصر من عهد محمد على إلى اليوم. ومنه ترون أية علاقة وثيقة تربط التعليم بالسياسة وتربط السياسة بالتعليم، حتى لتكاد تكون علاقة اندماج وامتزاج. وإذا قلنا فى مصر السياسة فكأنما نقول الوطنية. فالوطنية المصرية كانت توقد شعلة التعليم وكان التعليم يوقد شعلة الوطنية، وكان الصفوة المثقفون هم قواد الحركات القومية، وكان طلاب العلم هم طلاب الحرية والاستقلال.

والآن وقـد خلصت شؤون التعليم للحكومة المصرية كما أسلفنا فانكم تدركون ولا ريب أية مسئولية خطيرة تقع علينا للنهوض بهـذه الشؤون كى تتسلح مصر فى هذا المعترك الدولى المتلاطم بالعلوم والمعارف والأخلاق الفاضلة فتستطيع أن تحمى سيادتها الناشئة وأن تأخذ مكانتها اللائقة بين الأمم فى خدمة الإنسانية والعمران.

وإذا جاز لمثلى أن يبدى رأيه فيما صارت إليه شؤون التعليم تحت الإدارة الوطنية فانى لا أحسبنا جد بعيدين عن سواء السبيل.

فنحن ننكر الآن أن يكون الغرض من التعليم إعداد الموظفين، ونحرص على أن نتجه به إلى تكوين المواطن الصالح والإنسان الصالح القدير على خدمة الوطن والإنسانية ومواجهة مشاكل الحياة ومسئولياتها بما يرفـع من قدر الحياة الفردية والعائلية والاجتماعية والوطنية ويحقق السعادة للفرد وللمجتمع جهد الإمكان.

ونحن نعرف أن أفضل الوسائل لإدراك هذه الغاية هى صرف العناية إلى شخصية الطالب وتعهـدها بالتربية الجسمية والعقلية والنفسية والروحية والخلقيـة، والـكشف عن ميولها ومواهبها، لمعاونتها على الظهور والنمو وتوجيهها وجهة المصلحة والخير.

ونحن نفهم أن أحسن التربية ماكان أساسه غرس الثقة بالنفس والاعتماد عليها وتنمية روح الإيثار والتضحية فى سبيل الصالح العام.

ونحن نحاول دائبين فى دوائرنا التعليمية رسمية وغير رسمية أن نأخذ بهذه الوسائل ونحقق هذه الغايات .

ونحن نتجه إلى تعميم العلم وتيسيره للجميع بنات وبنين وأغنياء وفقراء على السواء . وقد خطونا فى هذا السبيل الديمقراطى الوطنى خطوة طيبة بتعميم المجانية فى التعليم الابتدائى القائم وتوسيعها فى التعليمين الثانوى والعالى والأخذ بمبدأ تكافؤ الفرص لأبناء الوطن أجمعين .

ولكن يجب أن نعلم أننا لم نقطع إلا شوطاً قصيراً، وما زال أمامنا شوط ناء بعيد . وإن النتائج على وجه خاص لاتدعو إلى الإسراف فى التفاؤل؛ إذ بالرغم من المحاولات المتتابعة لتصحيح أهداف التعليم وتحسين قواعده ووسائله لايزال أكثر المتعلمين يجنحون إلى وظائف الحكومة ويجعلونها همهم الناصب فى الحياة . فإذا اتجه البعض إلى الأعمال الحرة فكثيراً ما يلاحظ عليه التقصير ونقص الاستعداد .

ثم إن الطلاب بوجه عام فى أشد الحاجة إلى روح الطاعة والنظام وتوقير الرؤساء واحترام أولياء الأمور . ويلاحظ على أكثرهم ضعف الشخصية وقصور الهمة والعجز عن احتمال التبعات ومواجهة المسئوليات .

وهذه النتائج السيئة جديرة بأن تلفت أنظارنا إلى ما لا يزال يعلق بأنظمتنا التعليمية من العيوب والشوائب ، وبأن تحفزنا إلى التماس ما يجب لها من الطب والدواء . وتلك مهمتكم معشر القائمين بأمور التعليم . وكل ما يستطيعه صديق مثلى هو أن ينصح بالأناة والتريث واستيفاء البحث والدرس قبل التغيير والتبديل . فنظامنا التعليمى بحاجة إلى الاطمئنان والاستقرار بمقدار ما يحتاج إلى التحسين والإصلاح .

وهناك عيوب أخرى يجب أن أشير إليها فى هذا المقام ولكنها ليست من عيوب التعليم بل هى من عيوب السياسة التى يمكن أن نصلحها بالتعليم . فقد أصبح جونا السياسى مليئا بالأثرة والأنانية والحقد والكراهية والمهاترات والخصومات ، وكادت المصالح الحزبية والشخصية تغرق المصالح الوطنية فى لجتها ، وتفرقت الكلمة أيدى سبأ ونحن أشد ما نكون حاجة إلى تضافر الجهود وائتلاف القلوب .

وأخشى ما أخشاه أن تنتقل هذه الآفات من الساسة المدبرين إلى الساسة

الناشئين وأن تغزو نفوس الشباب وهم ذخر الوطن فى الملمات وعدته للنائبات وأمل الحاضر الحزين فى مستقبل سعيد أمين .

فاحذروا معشر المعلمين هذه العاقبة النكراء ، وجنبوا مصر شرورها ؛ ففى ذمتكم أخلاق الشباب . ومن كانت أخلاق الشباب فى ذمته ففى ذمته مصير البلاد .

نشئوهم على إنكار الذات وإيثار المواطنين .

علموهم حب الوطن والتضحية فى سبيله بما يملكون .

واغرسوا فيهم روح التضافر القومى والتكافل الأخوى ليكونوا برداً وسلاماً على إخوانهم فى الوطنية وناراً حامية على المغتصبين .

ولا تخشوا أن يقال أقحموا السياسة فى التعليم ، فالسياسة المنكرة فى معاهد العلم هى سياسة الحزبية والتفريق ؛ أما دعوة الإخاء والوطنية فما أجدر أن تكون عندنا كما هى عند غيرنا أول الأسس فى سياسة التعليم .

محمد صلاح الدين

فى أفق السياسة العالمية

مشكلة اسكندرونة

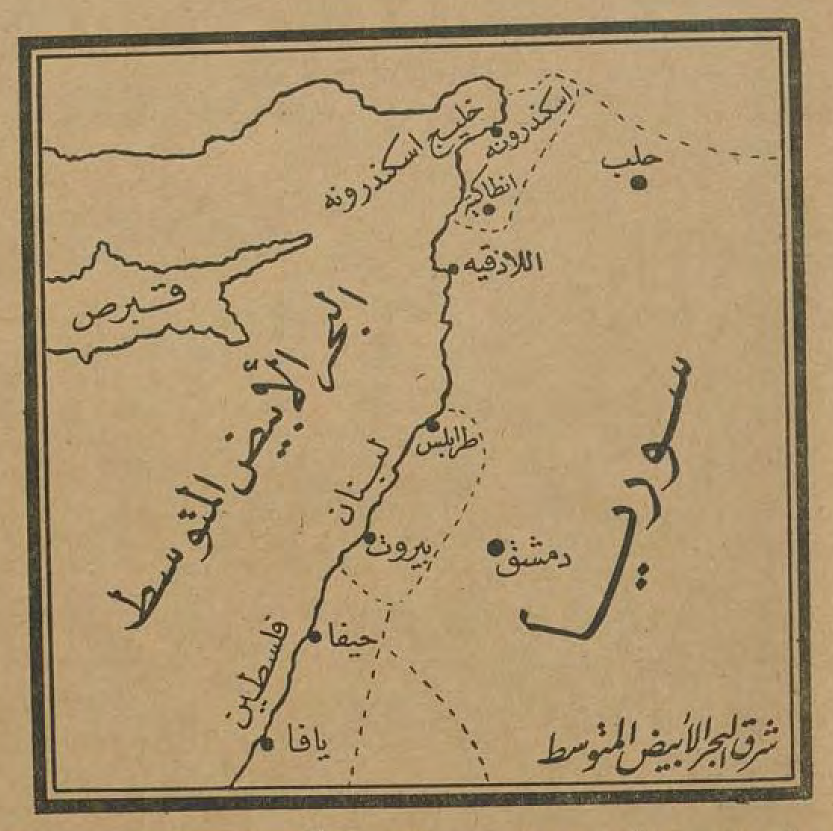
فى ربيع عام ٣٣٤ قبل الميلاد عبر الإسكندر الأكبر مضيق « الهلسبونت » بين أوربا وآسيا على رأس جيش مدرب من المقدونيين والإغريق ، وطلع به فوق هضاب آسيا الصغرى ، ثم سار فى محاذاة ساحل البحر قاصداً فتح الشرق وتقويض دولة الفرس . وبعد نزال وجلاد مع جنود الفرس الذين كانوا يحتلون تلك البلاد ارتد الفرس نحو الشرق ، واستمر الإسكندر يزحف شرقاً ويحتل فى طريقه المدن والأقاليم التى يجلو عنها العدو حتى التقى « بدارا الثالث » ملك الفرس الذى جاء يقود جيشاً عرمرماً تجمعت كتائبه من أطراف إمبراطوريته الواسعة وتقابلا فى موقعة « أسوس » عند رأس الخليج الذى يفصل بين جبال الطورس وسهول سوريا ، وهناك انتصر الإسكندر على الفرس انتصاراً حاسماً فتح له الطريق إلى سوريا وفلسطين ومصر . ثم عاد الإسكندر يطارد دارا شرقاً ، ومازال به حتى دانت له بلاد ميديا وبابل وما بين النهرين وبلاد فارس نفسها وشمالى الهند إلى ما وراء نهر السند شرقاً .

وقد تم للإسكندر هذا النصر العريض الذى امتدت به فتوحه من البحر الادرياتى غرباً إلى نهر السند شرقاً والذى فاق به الأوائل والأواخر من الفاتحين فى مدى لا يتجاوز عشر سنوات ، كان فيها الإسكندر كالشهاب الثاقب لم يكد يضىء ويبهر أنظار العالم الشرقى باسمه وبأسه وفتوحه حتى هوى واختطفته الحمى وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره ؛ فلا عجب إذا كان العالم على اختلاف أجناسه وأديانه قد خلد اسم الإسكندر فى قصصه وأساطيره وكتبه وآثاره .

ومن الآثار التى بقيت على الزمن تلك المدن التى اختطها الإسكندر نفسه أو التى أقامها خلفاؤه تخليداً لذكرى فتوحه وانتصاراته . وقد أطلقوا عليها جميعاً

اسم الإسكندر أو نسبوها إليه نسبة صحيحة أو محرفة على اختلاف اللهجات اللسانية التي كانت تنطق بها الشعوب التي أخضعها الإسكندر .

وعلى الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط قامت مدينتان تحمل كل منهما اسم الإسكندر : الإسكندرية التي أسسها الإسكندر نفسه على مصب الفرع الغربي للنيل ، والتي لم تلبث أن أصبحت أهم الموانئ التجارية في البحر الأبيض المتوسط ، « واسكندرونة » التي أنشئت على قرب من المكان الذي وقعت فيه معركة « أسوس » . ولما كانت الإسكندرية أعظم شأناً وأقرب منالا إلى الإغريق فقد عرفوا الإسكندرونة بصيغة التصغير فقالوا Alexandretta وعرفها الأروام والأتراك « باسكندرونه » .



وليس لي من المعرفة بعلم الصرف ما يجعلني أقرر ماذا يقال في اللغة العربية لتصغير الإسكندرية . ولكن الشيء الذي أعرفه يقيناً أن اسم «اسكندرونة» قد زال الآن أو كاد من المعاجم والخرائط الحديثة ؛ فقد أغنتنا تركيا أخيراً عن

البحث عن قياس عربى لتصغير أسماء المدن والبلدان ، فمحت الاسم كله محواً وأطلقت على المكان اسماً آخر قديماً هو « هاتاى Hatay » ليعيدوا — أولا — إلى أذهان الناس مجد « الحيطيين » القدماء الذين ينتسب إليهم الأتراك والذين استوطنوا آسيا الصغرى وفيها ازدهرت مدنيتهم قبل عهد الإسكندر بألف عام . وثانياً — ليزيلوا كل أثر عربى أو إغريقى قد يعلق باسم الميناء أو الإقليم أو السنجق بعد أن نزلت عنه فرنسا لتركيا فى سنة ١٩٣٩ . ولا ننسى أن الأتراك الكماليين قد غيروا اسم القسطنطينية وأبدلوا به اسم اسطنبول التركى ، حتى يقضوا نهائياً على الخرافة القائلة بإعادة الدولة البزنطية بزعامة الإغريق أو غيرهم .

ولكن حق الأتراك فى التمسك باسطنبول يقوم على العوامل الجغرافية والتاريخية . وهذه العوامل نفسها هى التى تحول دون « تتريك » الاسكندرونة، وإليها يستند السوريون فى المطالبة بردها إليهم ؛ فهى داخلة جغرافيا فى حدود سوريا الشمالية ، وهى الميناء الطبيعى لمدينة حلب ، وهى المدينة السورية التى تلى دمشق فى الأهمية .

ولقد كانت إسكندرونة ذات أهمية تجارية عظيمة القدر بالنسبة إلى سوريا قبل فتح قناة السويس حين كان طريق التجارة البرى بين آسيا وأوربا يمر بخليج فارس والبصرة ونهر الفرات وحلب وإسكندرونة ومنها إلى موانئ أوربا. ثم عادت لها أهميتها على أثر جهود الألمان قبل الحرب العالمية الأولى فى إنشاء الخط الحديدى الذى كان سيصل برلين ببغداد . فقد مد الألمان خطاً فرعياً ربط إسكندرونة بالخط الأصلى فى الأناضول ، فبرزت مكانتها فجأة بعد أن تدهورت على أثر حفر القناة .

ثم نشبت الحرب فقضت على أحلام الألمان، وقامت الثورة العربية ضد الأتراك حلفاء ألمانيا يقودها أنجال الشريف حسين وتؤازرهم قوات الحلفاء . حتى إذا كانت سنة ١٩١٧ — ١٩١٨ زحف القائد الإنجليزى اللنبى ففتح فلسطين وأخذت المدن السورية ترفع أعلام النهضة وتفتح أبوابها للفاتحين من العرب والإنجليز ، وكانت اسكندرونة من هذه المدن تجرى عليها ما جرى على الأقاليم العربية التى كانت تابعة لتركيا وتحررت فى نهاية الحرب . ويظهر أن فرنسا كانت تطمع فى ضم سوريا ولبنان إلى إمبراطوريتها الواسعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط . فلما خاب أملها فى الضم ولم تفز إلا بالانتداب على هذين الإقليمين

عوّلت على أن تتبع فى حكم هذه البلاد سياسة عقيمة أرهقت بها الأهالى إلى درجة نفرت أصدقاءها قبل أعدائها .

ومع أن نظام الانتداب قد غيّر الأساس الذى كان يقوم عليه الاستعمار قديماً فجعل واجب الدولة صاحبة الانتداب هو العمل على مساعدة الشعب المنتدبة له وإرشاده وتوجيهه حتى يتهيأ لحكم نفسه ، فان فرنسا سارت فى سوريا ولبنان وفق سياستها الاستعمارية التقليدية عاملة على إسعاد الفرنسيين بالوظائف والمكاسب وإضعاف الوطنيين سياسيّاً واقتصاديا بكل الطرق .

وكان مبدأ التفرقة بين الطوائف والجماعات الوطنية أول معول استخدمته فرنسا لقتل الروح الوطنية القومية بين أهل البلاد . وجعلوا أساس التفرقة المذهب الدينى ليزداد التجافى والتشاحن بين الأهالى ولتظفر فرنسا بمنزلة الحكم المتسلط عليهم جميعاً . وعلى هذه القاعدة أوجدوا دويلات محلية اصطناعية جعلوها مستقلة عن سوريا ، كجبل الدروز فى الجنوب ، وإقليم العلويين وسنجق اسكندرونة فى الشمال الغربى .

وتبلغ مساحة هذا السنجق ١٩٣٠ ميلا مربعاً ، وعدد سكانه ٢٢٨٫٠٠٠ منهم ٨٥٫٠٠٠ تركى و ٢٣٫٠٠٠ من المسلمين السنيين و ٦٢٫٠٠٠ من العلويين و ٤٩٫٠٠٠ من المسيحيين على اختلاف مذاهبهم . وتدخل فى هذا السنجق مدينة أنطاكية ذات الشهرة التاريخية .

***

وإنما دفع فرنسا إلى انتهاج هذه السياسة علمها بأن الشعور القومى بين الأهالى كان قويّاً ، وأن السوريين كانوا فى طليعة المجاهدين الذين لبوا نداء الثورة العربية وكافحوا وبذلوا أرواحهم فى سبيل الاستقلال والوحدة العربية ـ تلك الوحدة التى كانت تقضّ مضجع فرنسا فتقاومها ما استطاعت ؛ إذ كان نجاحها خطراً على النفوذ الفرنسى لا فى شرق البحر المتوسط فحسب بل فى جنوبيه وغربيه حيث أهل المغرب والجزائر وتونس الذين تربطهم وشائج نسب وقربى بالعرب فى مختلف الأقطار .

ولم يكف فرنسا أنها قطعت أوصال سوريا وسدت عليها منافذ البحر إذ وسعت الفرقة بينها وبين لبنان وبه ثغر بيروت العظيم ، وقد ضمت إليه ثغر طرابلس ،

وبما اخترعت من استقلال إقليم العلويين وبه ميناء اللاذقية ، وسنجق إسكندرونة وبه ميناؤه الكبير — لم يكفها هذا فراحت تحاول محاولة أخرى ، حين رأت نجاح الحركة الكمالية فى تركيا وبهرها ما أصابه الكماليون من تفوق ونصر مطرد على اليونانيين وتوقعت أن يكون لتركيا الجديدة من السطوة والسؤدد فى البلقان والشرق الأوسط ما يدعوها إلى اكتساب مودتها ، فسارعت وأرسلت إلى تركيا مندوباً من قبلها هو « فرنكلين بويون » ليبلغ الحكومة الجديدة فى أنقرة اعتراف فرنسا بها ورغبتها فى توثيق أواصر المودة بينهما . وكأن فرنسا قد خشيت أن يتجه الكماليون وهم فى نشوة النصر نحو الجنوب فيستردوا بعض مافقدوه فى سوريا ، فأسرعت بالنزول لهم عن بعض الأراضى على الحدود بين سوريا والأناضول . ولم يكن لفرنسا بمقتضى صك الانتداب أن تنزل لدولة أخرى عن شىء من أرض البلاد التى انتدبت لها إلا بموافقة العصبة . ثم جاء مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣ لتصفية ما بين الحلفاء وتركيا فأقر حدود تركيا الجديدة واعترفت تركيا بزوال سيادتها عن الأقاليم العربية التى كانت تحت حكمها ومنها سنجق اسكندرونة .

واستمر إقليم اسكندرونة يعانى مع باقى الأجزاء السورية متاعب الانتداب الفرنسى وما تبعه من ثورات وحروب وأزمات إلى عام ١٩٣٥ — ١٩٣٦ وفيه تلبد الجو الدولى السياسى فى أوربا واضطربت أحوال العالم جميعه من جراء عدوان إيطاليا على الحبشة وتحديها بريطانيا ومعها الكثرة العظمى من الدول الممثلة فى عصبة الأمم . وكان أول ما ظهر من بوادر هذه الاضطرابات فى الشرق قيام حركة وطنية فى مصر انتهت بتكوين الجبهة الوطنية المصرية وعقد محالفة الصداقة مع بريطانية سنة ١٩٣٦

ومن مصر انتقلت شرارة الثورة إلى فلسطين ثم إلى سوريا . وكانت الحال فى أوربا قد ازدادت حرجاً ، فاندلعت الثورة الأهلية فى أسبانيا ورفعت النازية فى ألمانيا رأسها تهدد أوربا بشر مستطير ، وتوالت نذر الحرب العالمية الثانية ، حينئذ لم تجد فرنسا إلا أن تقبل تنظيم علاقاتها مع سوريا ولبنان على أساس استقلالها وارتباط كل منهما بفرنسا بمعاهدة تشبه المعاهدة التى ربطت بريطانيا بالعراق أو بمصر .

وكان أول مقومات هذا الاستقلال أن تعود الدويلات التى اقتطعتها فرنسا

من جسم سوريا إليها ، وأن تتعاون سوريا ولبنان على المصالح المشتركة بينهما بشرط احترام استقلال لبنان وعدول سوريا عما يسمى بمشروع سوريا الكبرى . وفعلا تضامنت الحكومتان مخلصتين فى سياستهما الوطنية إزاء الدولة المنتدبة ، وأخذ البلدان يعملان لإدراك أهدافهما الوطنية . وجعلت فرنسا تعطى حيناً وتمنع أحياناً ، وتجود وتبخل ، وتعجل وتبطىء ، وأبى البرلمان الفرنسى إبرام المعاهدة ولم تزل فى ترددها هذا حتى اكفهر الجو الدولى واستهدف العالم لتلك الحرب الطاحنة .

***

وفى هذه الأثناء قامت الاضطرابات فى أنطاكية ، وعز على تركيا أن يؤدى استقلال سوريا وانتهاء الانتداب الفرنسى إلى عودة إسكندرونة إلى سوريا مع أن الجالية التركية فى هذا الإقليم تناهز ٤٠٪ من سكانه وهم من أقوى العناصر التى استوطنت الإقليم ، فقام الأتراك يطالبون باستقلال إسكندرونة وفصلها عن سوريا توطئة لضمها إلى تركيا فى الوقت المناسب .

عند ذلك رأت فرنسا أن مصالحها الحقيقية تحملها على تحقيق رغبات تركيا ، على حين تأبى عليها هذه المصالح أن تساعد على تقوية الجامعة العربية بضم إسكندرونة إليها ، فقررت عرض الموضوع على مجلس عصبة الأمم ، وندبت العصبة لجنة لبحث الحالة فى اسكندرونة ، ثم كانت النتيجة أن قررت العصبة أن توافق الحكومتان على احترام استقلال إسكندرنة الذاتى تحت إشراف العصبة ، وأصدر المجلس قانوناً ينظم حكومة السنجق ، فتتولى السلطة التشريعية جمعية منتخبة بطريق التصويت العام على درجتين ، ويمثل القوة التنفيذية منتدب فرنسى تعاونه قوة بوليسية مؤلفة من ١٥٠٠ فرنسى وبيده حق « الفيتو » أو وقف تنفيذ القوانين التى لا يوافق عليها . وعلى ذلك تقررت حيدة إسكندرونة وأصبحت اللغتان العربية والتركية فيها رسميتين .

ولكن هذا النظام لم يرق فى نظر العرب ولا فى نظر تركيا ، فاتصلت فرنسا بتركيا رأساً دون وساطة العصبة واتفقتا فى أغسطس سنة ١٩٣٨ على أن يكون لتركيا فى إسكندرونة قوة مساوية للقوة الفرنسية . وعلى هذا عقدت بين الحكومتين معاهدة صداقة وتعاون ، وأجريت الانتخابات للجمعية التشريعية

بعد أن مهدت لها تركيا ، فنال الأتراك ٢٢ مقعداً من ٤٠ واجتمعت الجمعية الوطنية فى أنطاكية فى ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٨ وقررت إطلاق اسم « هاتاى » على السنجق ، وانتخبت رئيسا تركيا للدولة الجديدة ، كما اختارت الجمعية رئيسها ورئيس الوزراء كليهما من الأتراك . واتخذت الجمعية علماً للسنجق لا يختلف عن العلم التركى إلا فى النجم الذى يتوسط الهلال ، فجعلوه نجماً مفرغاً لا يغطيه البياض ولكن تحيط به خطوطه . ومنذ ذلك الوقت بدأ الأتراك « يتركون » المنطقة ، فجعلوا اللغة التركية وحدها اللغة الرسمية ، ولغة التعليم ، وأبعدوا الموظفين العرب سواء منهم المسلمون والمسيحيون . وهاجر من المنطقة عدد كبير من الأرمن أنشئوا لهم قرية بين بيروت ودمشق أوى إليها نحو ألفين منهم . وفى يونيه سنة ١٩٣٩ وقد ظهرت بوادر الحرب تخلت فرنسا لتركيا عن إسكندرونة من تلقاء نفسها ومن غير أن تستشير سوريا . ومنذ ذلك اليوم أصبحت إسكندرونة جزءا من تركيا . وقد عزّ على سوريا أن يقتطع منها هذا الإقليم على غير رضا منها ، فنقم السوريون على فرنسا تصرفها فى أرض لا تملكها ، وجعلوا يترقبون الفرص لاسترداد حقوقهم فى هذا الإقليم .

***

ولقد أبرزت الحرب الأخيرة بصفة خاصة أهمية اسكندرونة لا من الوجهة الاستراتيجية فحسب حيث تقوم إسكندرونة على رأس خليج عميق الغور تحيط به الجبال فتكون له حصناً يقيه هجمات الأعداء وهبوب الرياح الشمالية الباردة ، بل من الوجهة الاقتصادية أيضاً ، فقد وجد فى المنطقة معدن الكروم وزيت البترول ، فأصبح الخلاف بشأنها شديداً ، وبلغ كفاح السوريين من أجلها منتهى القوة . وقد سبق لنا القول إن إسكندرونة لا غنى لسوريا عنها لأنها تجد بها العوض عن ثغرى بيروت وطرابلس الشام ، ولأنها البناء الطبيعى لجزء مهم من الشام وهو قسم حلب . وليست حاجة تركيا إليها بأشد من حاجة سوريا الحيوية . وإذا كان الأتراك يقرعون حجة السوريين بحجة أخرى هى أن جاليتهم كبيرة فى هذا الإقليم وعددهم يزيد على من عداهم من الطوائف الأخرى فان مجموع العرب – إذا أضفنا المسلمين السنيين إلى العلويين والمسيحيين – يفوق عدد الأتراك فضلاً عن الشواهد الجغرافية والتاريخية التى تؤيد دعوى السوريين .

والآن تقف إسكندرونة حجر عثرة فى سبيل الاتفاق بين العرب من جهة وتركيا من جهة أخرى ؛ إذ لا يخفى أن هناك ميثاق «سعد آباد» السياسى الذى أبرم سنة ١٩٣٧ وبه ارتبطت تركيا والعراق وأفغانستان وإيران للتشاور والتعاون معاً . وأعضاء هذا الميثاق يهمهم وقد انتهت الحرب أن يجددوه وأن يعززوه بانضمام الدول العربية الأخرى إليه ، وليس هذا مستطاعا مادامت مشكلة إسكندرونة قائمة .

ولو أن الموضوع عرض على هيئة دولية فلسنا نظن أن روسيا تؤيد تركيا فى طلبها ، كما يغلب على الظن أن بريطانيا ستؤيد قضية سوريا فلا يبقى إلى جانب تركيا إلا فرنسا التى خلقت هذا المشكل من أول الأمر . أما الولايات المتحدة فأكبر الظن أنها تقف على الحياد من هذا النزاع (ولا يبعد أن يقترح بعضهم جعلها قاعدة استراتيجية دولية) . ويبقى فى النهاية الجامعة العربية التى ستقف حتما إلى جانب سوريا . وقد تقترح الجامعة على الدول — كما اقترحت بشأن ليبيا — إجراء استفتاء شعبى محايد فى المنطقة . وحسنا تفعل الجامعة ويفعل مؤتمر الدول وتفعل هيئة الأمم المتحدة إذا لجأت جميعاً فى حل مشكلاتها الإقليمية إلى احترام إرادة الشعوب ، وخاصة إذا اقترن ذلك بالضمانات الكافية للتعبير عن هذه الإرادة بالصراحة والحرية الكاملتين . وكان يقال فى الماضى إن الملوك والبابوات لا يخطئون ، وقد جاء الوقت الذى ينبغى أن يعترف فيه الجميع بأن حق الشعوب فى تقرير مصيرها هو حق لا يغلبه باطل القوة ، وأن صوت الشعوب من صوت الله .

محمد رفعت

تأميم البنوك فى فرنسا

من خواص الفرنسى أنه يجمع بين إحساس الفردية والنزوع إلى مطالبة الحكومة بالكثير من المهام . فهو يغار على شخصيته أن تفنى فى شخصيات الآخرين ، وهو يحرص على ماله أن يتدخل فى طريقة توظيفه أحد بل أن يسأله عنه إنسان ، وهو فى الوقت نفسه يلقى على الحكومة تبعة كل ما يصيبه ويطالبها بتحقيق كل ما يمتعه . ولعل هذا الازدواج هو الذى جعل تاريخ النظام الاقتصادى فى فرنسا متردداً بين الفردية individualisme والدولية étatisme متراوحاً بين الأخذ بنظرية استثمار الأفراد والشركات لكثير من المرافق العامة ، والأخذ بفكرة امتلاك الدولة لهذه المرافق جميعاً . ولعل السكك الحديدية وسائر وسائل النقل هى المثل التقليدى الذى يصح ضربه تدليلا على ذلك التراوح ؛ فقد كانت أول الأمر ملكا للدولة ثم صارت استثمار الشركات ، ثم ظل بعضها ملكا للدولة وبعضها الآخر ملكا لشركات ، ثم ابتدع إلى جانب النوعين نوع ثالث يساهم فى استمراره الحكومة والشركات معاً ، ثم أنشئت للأنواع جميعاً هيئة قومية تشرف وتنسق وتوزع الأرباح أو تسد الخسائر .

والواقع أن أمر « التأميم » فى فرنسا كان محل شغل قومى لا يختص به حزب معين ولا تلوكه الألسنة فى فترة معينة ؛ لأن الفرنسى صاحب بطبعه تواق إلى النقد والشكوى ، يدفعه نقده إلى المقابلة بين مختلف الأساليب مترحماً على ما فات مستبشراً بما سيجىء ملقياً دائماً تبعات ما يحل به وبفرنسا على النظام القائم الذى يتولاه عادة إثر الكوارث بالتعديل والتبديل . ولذلك فما إن قامت فى فرنسا « لجنة المقاومة الأهلية » تناضل فى سبيل دفع العدوان عليها ورفع أعباء الكارثة عن كواهلها حتى ضمنت « ميثاقها القومى » بنداً يقضى « بتأميم البنوك ومنظمات الائتمان ومنابع القوى والطاقات » Nationalisation du crédit et des sources d'énergie وما إن وضعت « الحركة الجمهورية الشعبية » — وهى

أحد الثلاثة الأحزاب الفرنسية الكبرى — برنامجها فى اليوم الثامن من شهر نوفمبر الماضى حتى ضمنته ، على غرار ما هو وارد من قبل فى برنامجى الحزب الشيوعى والحزب الاشتراكى ، فى فصل من فصول بابه الثانى الخاص بالديموقراطية الاقتصادية والاجتماعية ، مبدأ التأميم ، بل التأميمات ، « وسيلة من وسائل وضع الاقتصاد فى خدمة الأمة وإقامة الديموقراطية الاقتصادية » . وقد جاء فى تفصيل أحكام هذا الفصل أن التأميم المصرفى للائتمان والعملة يستدعى ثلاثة أنواع من الإصلاح : أولها « إنشاء مجلس أعلى للائتمان والاستثمار يرأسه وزير الاقتصاد القومى ويكلف مهمة تحديد وسائل تمويل البرنامج العام للانتاج وإعادة الإنشاء ، وتكون له الهيمنة على مجموع النظام المصرفى » . وثانيهما « التأميم التام لبنك فرنسا بنزع ملكية رأس ماله مع التعويض عنها وإعادة تنظيم معاهد الائتمان العامة » . وثالثها « تأميم النظام المصرفى الخاص تدريجيًّا بحيث تكون خطوته الأولى إصدار تشريع يفرض على المصارف احترام التوجيهات التى يقررها مجلس الائتمان الأعلى ، ومراقبة جميع أنواع النشاط المصرفى وتنظيم طرق الادخار والتوزيع بكل الوسائل وبينها ادغام المصارف ومحو الفروع والوكالات » . وأخيراً « مراقبة توافر عنصرى الكفاءة والكرامة لدى رؤساء مجالس الادارة والمديرين » . وفى ذلك الفصل كذلك ذكر لأنواع أخرى من التأميم تشمل وسائل النقل ومنابع الطاقة كالفحم والغاز والكهرباء والبترول ، والمواد الأولية الضرورية ، والأسمدة ، والصناعات الثقيلة ، كما تشمل « المرافق العامة التى يجب أن تسحب امتيازات استثمارها كى تعود إلى الهيئات التى منحت هذه الامتيازات » .

فلما جرى الاستفتاء وجرت الانتخابات وأسفرت عنهما « الجمعية التأسيسية » وانبعثت منها الوزارة الفرنسية المتولية الآن الحكم ، كان أول التشريعات التى تقدمت بها هو التشريع الخاص بتأميم « وسائل الائتمان » عرضته على الجمعية التأسيسية — وهى الهيئة التشريعية الحالية فى فرنسا — فتناولته لجنتها المالية بالدرس والتمحيص ، وتلقت خلال درسها وتمحيصها مئة اقتراح بتعديل وستة ، وقدم له المقرر بالاشارة إلى الدور الذي لعبته المصارف خلال السنوات الأخيرة قائلا : « إنها قد ذهبت إلى حد التدخل بطريق مباشر فى سياسة البلاد وساهمت فى ألاعيب البورصة حول قراطيس الدولة ، ونظمت حركة تصدير رؤوس الأموال

وإن بنوك الأعمال منها قد وجهت مناورات ضد الدولة فى الداخل وفى الخارج ، وهى تشرف على كثير من المنشآت الاستعمارية ، فحملت جميعها نصيبها من المسئولية عن مصائبنا » ، ومضيفاً : « أن مؤسسات الائتمان قد وضعت نفسها فى خدمة المحتل ، وقد آن لنا بعد أن تحررت فرنسا من العدو أن نتحرر ـ لضمان إعادة بنائها ـ من سلطان المال » .

وانتهت الجمعية التأسيسية إلى إقرار التشريع فى اليوم الثالث من شهر ديسمبر لسنة ١٩٤٥ بموافقة ٥٢١ صوتاً من ٥٥٦ ، وهو قانون من اثنتين وعشرين مادة ، تقضى الأولى منها بتأميم « بنك فرنسا » عن طريق تحويل أسهمه إلى ملكية الدولة ، وإنهاء أعمال مستشاريه ومراقبيه (وهم مديروه) فى اليوم الأخير من شهر ديسمبر لسنة ١٩٤٥ . وتعالج المادة الثانية أمر تعويض حملة الأسهم فتقضى بإعطائهم مقابل أسهمهم « سندات اسمية قابلة للتداول » يعين وزير المالية بقرار منه خواصها وشروط استهلاكها فى بحر خمسين سنة على الأكثر دون أن تزيد الفوائد التى تدفع لها على اثنتين فى المئة من قيمتها التى تحددها لجنة ، بحيث لاتتجاوز عن متوسط سعر الأسهم الأصيلة فيما بين أول سبتمبر سنة ١٩٤٤ و٣١ أغسطس سنة ١٩٤٥ . وتنص المادة الثالثة على أن تأليف مجلس إدارة البنك ونظام موظفيه والضرائب التى يخضع لها يحددها قانون خاص يصدر قبل اليوم الثامن والعشرين من شهر فبراير لسنة ١٩٤٦ .

أما سائر المواد فتتصل بغير بنك فرنسا من مؤسسات الائتمان الفرنسى . وهى تقضى بتقسيم هذه المؤسسات إلى ثلاثة أقسام يجب أن ينتمى كل مصرف قائم إلى واحد معين منها : وهى بنوك الودائع ، وبنوك الأعمال ، وبنوك التسليف طويل الأجل أو قصيره ، كما يجب أن يعلن انتماؤه هذا إلى لجنة مراقبة البنوك فى بحر الثلاثة الأشهر التالية لصدور القانون . كما تقضى بتأميم بنوك الودائع الأربعة الكبرى ، وهى بنوك « كريدى ليونى » و « سوسيتى جنرال » و « كونتوار ناسيونال » و « كوميرس أى أندوسترى » ابتداء من أول يناير لسنة ١٩٤٦ ، وبتعويض حملة أسهمها عن طريق إعطائهم حصصاً اسمية يكون لها نصيب فى الأرباح بنسبة تحدد فى كل سنة وبحيث تعود الحكومة فتشترى جزءاً من خمسين من هذه الحصص فى كل عام ابتداء من أول يناير لسنة ١٩٤٧ بسعر يكون هو متوسط أسعار الأسهم الأصلية فى بورصة باريس بين أول

سبتمبر سنة ١٩٤٤ وآخر أغسطس سنة ١٩٤٥ ويعهد بإدارة هذه البنوك « المؤممة » — غير بنك فرنسا — إلى مجالس إدارة تؤلف من عشرة أعضاء ويختار وزير المالية أربعة منهم ووزير الاقتصاد القومى اثنين وتختار المنظمات النقابية الكبرى الأربعة الباقين ولا يكون بينهم أى عضو من أعضاء البرلمان.

أما بنوك الأعمال فيقضى القانون الجديد بخص كل منها بمندوب حكومى يعينه وزيرا المالية والاقتصاد القومى ليشرف على إدارته ويعاونه فيها مجلس مراقبة مؤلف من ثلاثة يمثل أحدهم المنظمات التجارية والصناعية ، ويمثل ثانيهم مؤسسات نقابات العمال الكبرى ، ويمثل ثالثهم المؤسسات المالية العامة أو الشبيهة بها.

وأما بنوك التسليف فينظم القانون الجديد لتوجيهها والإشراف عليها مجلسا يرأسه وزير تعينه الحكومة وينوب عنه محافظ بنك فرنسا ، ويشترك فيه ثمانية وثلاثون عضواً يمثل سبعة عشر منهم « القوى النشيطة فى البلاد » تقترح سبعة منهم منظمات العمال الكبرى ، ويعين وزير المالية سبعة ، ويمثل سبعة آخرون سائر الوزارات ذات الصبغة الاقتصادية كما يمثل السبعة الباقون المنظمات المالية العامة أو شبيهتها.

وتتولى سائر نصوص القانون تنظيم شؤون توزيع السلف ذات الآجال الطويلة ، وتهيئة السلف اللازمة لنشر التجارة الخارجية ، وتعرض للجمعيات العامة للبنوك « المؤممة » عن سنة ١٩٤٥ وما تصدره من قرارات.

وهكذا مضت فرنسا قدماً فى سبيل « تأميم » بنوكها وسيتلوه تأميم سائر مرافقها تحقيقاً للاتجاه الذى كرسته « لجنة المقاومة الأهلية » فى ميثاقها ، واتحدت عليه كلمة الأمة العليا.

محمود عزمى

دجلة في الخريف

بكَرَ الخريفُ فراحَ يُوعِده — أن سوف يزبده ويُرعده
وبدت من « الأرماث » عائمةً — فيه ، طلائعُ ما يُجنِّده
وكأنَّ من زَبد الرمال على — أمواجه طفلاً يهدهده
واستثقل النوتيّ مجذَفه — بَرِماً بمقبضه يجدده
وتحفزّت شُمّ الجبال له — بثلوجها كِسَفاً تهدده
ظلت تَعُدّ خطاه ترقبه — في الصيف مزدهراً وتحسده
جرداء وهو يضج ملعبه — ظلماء وهو يشبّ موقده
خرساء والأنغامُ ترقصُه — وكأنّها بالموج ترفُده
تتعثر الأجيالُ خالدةً — فيها ويحضنها مخلده
« داوُد » بالمزمار يوقظه — وينيمُه بالعود « معبده »
و « الهيم » تحزنه وتنهبه — و « الغيد » تنزله وتصعده
ألقت إليه من مفاتنها — ما ليس إلا الله يشهده
ورمت له يقظان من مُتَع — ما نحن في الأحلام ننشده
و « النجم » حارسها وحارسه — و « الظل » موعدها وموعده
الآن أدرك سر زفرته — إذ لم يعد سرًّا تجلّده
فلفقده « نفساً » تنفّسه — ولذكره « نهداً » تنهّده
يتعقب المسكين موجتها — عبثاً بموجته وتطرده
لم يدر حتى الآن شيمتها — حسب الهوى نغماً يردده
امس استطابت فيه مقصدها — واليوم ـ أهون منه ـ مقصده

*

لو يستطيع لردّ خضرته — وبرغم سفحيه توردِه
وبرغمه أن حُبَّ خابطه — للزارعين و ذُمَّ مورده

ما سرّه — والبيض تنكره —   أن المراعي الخضر تحمده
فالذكريات الغر يُشهدُها   رقراقه الصافي وتُشهِدُه
متطامن لم تخشَ صولته   لكن تضيق بصائل يده
فمن « الشمال » يد فتنهضه   ومن « الجنوب » يد فتقعده
كالناس للحُفَرات مرجعه   ومن النطاف النزر مولده
وخضوعه — كخضوعهم أبداً —   للغيب ، أنّى سار يرصده
والفصل دون « الفصل » ينعشه   والأرض دون «الأرض» تسعده
لغِبٌ ، فلا « الإمساء » يوسعه   عطفاً ، ولا «الإصباح» يُنجده
النجمُ أعمى لا يرافقه :   و الطير أخرس لا يغرّدهُ
متحيّر ، لا يستجِمُّ به   فلكٌ ، ولا الأضواء ترشده
وكان محتشد الضباب به   باب بوجه الشهب يوصده
والشّمْسُ فاترةٌ تذكّرهُ   وضح السنا ، أيام توقده
أيام تنفخ في قرارته   من روحها نفساً تجدده
والغيم يحلف لا يبارحها   و الريح تحلف لا تبدّدُه
و البدر حتى البدر يوحشه   في يوم محنته ويُفْرِدُه
هذا الذي ما كان مثلهما   للصيف من مثلٍ يخلّده
كانا يربّانِ الغرام معاً   ذا يصطفيه ، وذا يهدهده

✻

لم يبق من هَرَج الربيع به   إلا الذي قد فات أجوده
ومن « العريش » على شواطئه   إلا خُشيبات تحدّده
ركبٌ تحمل عنه « ناشطه »   وأقام « عاجزه » و « مقعده »
و السامرون انفض عرسهمو   لا جِدّه أغنى ولا دَدُه
حجَل الغُراب على مواقِدِهم   وعلى الرماد بها يُبلِّده
ومن الحمام أظله « زَجِلٌ »   كلف بلحن « الصيف » ينشده
ضنك المسفّةِ يدّنى عطشاً   وتموُّج الآذيّ يبعده
متسائلاً : لِمَ حال ريِّقه   عن حُرِّ لون كان يعهده
وعلى الضفاف البَطُّ منكمش   لاهٍ بذاوي النبت يعضِده

شُعْث النسيل كأنَّ عابسةً مجنونةً راحت تبدده
ما الصيف سبّط من جدائله جاء الخريف له يجعده
بادى الخمول يؤوده عنق فى أمس من زهو يمدده
وكأنه إذ خيف مَسْبحُهُ مترهب قد سُدّ « مَعبده »
أترى يعود غداً لملعبه أم لا يكون كأمسه غده
وتهضّمَ النوتى زورقه بـ« القار » ـ بعد الغيد ـ يحشده
يقتات من كِسَرٍ يثبتها فى « اللوح » أو « حبلٍ » يمسّده

*

لم أدر لو لم تُنْبِنى سُرُجٌ فى شاطئيه : أين مرقده
ومضتْ ، فقلت : النوم أعوزه وجفونه رُمْداً تسهده
وخبتْ فقلت : غفا وإن صدًى فى السمع من زَفْر يصعده
وكأن تابوتاً يعدّ له « ملاّحه » فيما ينضده
وحسبت مزماراً يُشَيّعهُ للقبر ، مسماراً يشدده
وتجاوُبَ الأجرار قافيةً سمحاء باكية تمجده

*

يا صامتاً عيًّا ومنطقه متفجر « الينبوع » سرمده
تهفو فرائد عقده جزعاً من سِرّها ، وتهيمُ شرّده
وتثير فيه الذكريات شجى يعيا به ، فيخور أيّده
وموكلا بالدهر ، يزرعه فى شاطئيه ، ثم يحصده
يا « شط » أنتَ أعز منقلباً فى « الناطقين » بما تخلده
وكذا الطبيعة : فى عناصرها « جن » حبيس الروح مجهده
ترتاد جامدها تفجره و « عقيم » غامضها نولده
فلعل ذا : ولعلها لغة من غير ما جَرَسٍ نعوده
ولربما ضحكت « بسائطها » هزوًا بنا مما تعقده

[بغداد]

محمد مهدى الجواهرى

بين القدماء والمحدثين

مسرحية الضفادع لأرستوفان

إن قيل إن تاريخ الأحداث يعيد نفسه فوجدنا ما يصدّق هـذا القول من الأحداث المعاصرة ، فتاريخ الأدب يعيد نفسه إعادة أدق وأصدق . والأدلة على أمانة هذه الإعادة لا تحتاج إلى بحث أو إشارة ، وإنما يكفى فيها أن نطلع عليها . فهذا النزاع بين القدماء والمحدثين منذ وجد فى تاريخ الآداب يكاد يعيد نفسه فى التفاصيل الدقيقة فى كل أدب وفى كل زمان ، وحجج المحدثين واتهاماتهم كحجج القـدماء واتهاماتهم هى هى لا تـكاد تتغير بتغير الأزمان والأمم والآداب .

ولعل مسرحية أرستوفان التى سماها الضفادع والتى كتبها آخر القرن الخامس قبل الميلاد ، تصور لنا النزاع كما نراه اليوم يتفق فى كل هام ، ولا يكاد يفترق إلا فى التافه والأقل . ولا تمتاز تلك المسرحية بأنها أقدم صورة وصلتنا لهذا النزاع ، بل إنها أدقها وأكملها وربما كانت أجملها . فلقد صور لنا النزاع مسرحية شعرية أضاف إليها خيال الشاعر ونبوغه فى فن المسرح حركة وحياة لا نجدهما فيما قد صور لنا من هذا النزاع فى كتب تاريخ الأدب أو أخباره . أكثر من هـذا أن المسرحية هزلية خففت السخرية المرة فيها من جفوة المتنازعين وحماستهم وجعلت العقل يمر بخطوات النزاع مروراً يسيرا خفيفاً لم يقلل يسره من عمقه ولا خفته من صدقه .

هذا أرستوفان عاش فى أثينا أواخر القرن الخامس وأوائل الرابع قبل الميلاد ، فشهد فى جمهور المسرح صورة مصغرة من التحلل الذى بدأ يدب فى كيان الأمة اليونانية . وهؤلاء شعراء المسرح ، أو معلمو الشباب كما يسميهم ، لا يفعلون أكثر من أن يمهدوا لهذا الانحلال سبيله بما يقدمون للناس من

مسرحيات . وكأنهم لم يكتفوا بما فعل السفسطائيون وما أدخلوه من صنعة على الأدب والمتأدبين ، فيها إفساد لعقول الشباب وملكاتهم فراحوا يقدمون هم أيضاً نصيبهم من هذا الافساد مسرحيات لاتحفز على عظمة ولا تحض على نبل ، بل لا تدل على خير .

إن المسرح الأثيني لم يكن كمسارح اليوم يقف ببابه من يفرز الداخلين ، فلا يسمح إلا لمن دفع الثمن بالدخول . كلا ! إنه مسرح حرّ يؤمّه الأثينيون أجمعون لا فرق بين غني وفقير . كل من أراد دخله ولا يكلفه الدخول شيئاً . لذلك كان خطره أشد وافساده للناس أبعد مدى . كل أثيني عرضة لهذا الإفساد . ومنذا الذى كان يعيش فى القرن الخامس قبل الميلاد فى أثينا ولا يحب المسرح يدخله كلما سنحت له الفرصة . وهؤلاء كتّاب المسرح بدءوا يتملقون شعور النظارة بما يقدمون إليهم من نكات سمجة وموضوعات سهلة والجمهور يقبل ، والأدب الرخيص يؤلف فى سرعة ، وعوامل الإفساد والانحلال تقوى وتشتد .

هذه هى الظروف التى مهدت لهذا النزاع أن يقوم فى شدة وقوة . فهل تختلف تلك النُذر عما ألفنا أن نجد فى كل قومة لهذا النزاع فى تاريخ الآداب على اختلافها ؟

وهذا عميد شعراء المأساة الشاعر العبقرى أوربيبد الذى فتن به الأثينيون فرفعوه إلى عرش الفن ، وراحوا يقدمون له من إعجابهم قربانا . وتشجع الشاعر وراح يؤلف ويؤلف ، ونظر أرستوفان فى أدب أوربيبد فلم يجد فى فنه الجديد جمالا على مافيه من روعة ، وكل ما أحسه الشاعر هو أن هذا الجديد عامل قوى فيما أصاب الأثينيين فى خلقهم ، فليصبّ جام غضبه على هذا الشاعر لأنه رمز التجديد ، بل هو فى نظره رمز الإفساد باسم التجديد . وراح يؤلف المسرحية تتلوها الأخرى ، كلها فى نقد هذا الشاعر ، والحط من مركزه . ولكن النتيجة التى يعرفها كل قارئ لتاريخ أى أدب من الآداب هو أن الجديد يخلد بجدته ، وأن الجديد وإن يكن عاملا من عوامل الإفساد هو صورة جميلة للواقع الذى لانستطيع أن نبرأ منه . فإن تكن مسرحيات أوربيبد فى نظر أرستوفان قد أفسدت الخُلُق الأثينى كما أراده هو ، فلقد نفثت فيه من قوة الشخصية وحب الحقيقة مالم يكن لمثل أرستوفان أن يقدره . وليس المجد الحربى

أو السياسى ، للأسف ، هو المقياس الذى تقاس به حضارة الأمة . فلئن ضعفت أثينا سياسيًّا فى هذا القرن ، لقد بلغت فى الحضارة أوجها فى نفس هذا القرن الذى سخط فيه على الأثينيين أمثال أرستوفان . ولكن أرستوفان وأفلاطون من بعده وغيرهما لم يريدوا أن يروا شيئاً من هذا ، فليصبّوا سخطهم على الشعر والشعراء وليكن النجاح الذى صادفه أوريبيد حافزاً على الحقد عليه والإمعان فى الحط من شأنه .

ومسرحية الضفادع ما هى إلا واحدة من تلك التى ألّفها أرستوفان هجاء لأوريبيد وإن تكن أجملها . فقد تفنن فيها خياله فجعلها هزلية بارعة حقًّا . هذا أوريبيد بطل التجديد . وبحث أرستوفان عن ممثل للقديم فلم يجد أفضل من شاعر المأساة العتيد اسخيلوس بطل المأساة القديمة وحامل لواء الأدب التقليدى ، هذا الأدب الذى لا يتحدث إلا عن الجميل ولا يحض إلا على الشجاعة والإقدام ولا يبصر إلا بالخيرات الطيبات . هذا هو المعلم الحق ، وأوريبيد هو المفسد الحق . فلتكن المسرحية امتحاناً لهما أو ميزاناً يوزنان به ، فيرى النظارة إلى من تكون الغلبة .

ولكن النظارة تحب أوريبيد ولقد نسيت اسخيلوس . وأرستوفان ناقد حرٌّ يرى الجمال حيث هو ولا يتعامى عنه فى سبيل ما يجب من مُثُل عليا للخُلُق الآثينى . ولقد خفف موت أوريبيد كثيراً مما كان بينهما من حقد وعداوة . فللشاعر الجديد إذاً فى هذا الميزان شىء من القيمة تجعل الامتحان شيق النتيجة ، فهو امتحان حق تعلق فيه قلوب النظارة وأسماعهم تلهفاً لسماع القول الفصل فى شاعرين لكل منهما مزاياه . ترى أتكون الغلبة للجديد أم للقديم ؟ لما قد قدّسوه أو لما قد أحبوه ؟ فلننظر إذاً فى هذا الذى فعله أرستوفان .

تبدأ المسرحية بأن إله اللذة والفن واللهو قد برم بالحياة بعد موت شاعر أثينا الفذ أوريبيد ، وهو يريد أن يعيده إلى الحياة بأى ثمن . لقد ذهب إلى أعماق الأرض بحكم الموت ، ولكن هرقل قد رحل من قبل رحلته المعروفة فى غياهب الموت وعاد منها ، فماضرهذا الإله إذا حاول محاولةهرقل فنزل إلى الجحيم ليستخلص روح أوريبيد ويعود به إلى ظاهر الأرض ، إلى الحياة من جديد ! هيا يا عبد احمل حمولتك ولنذهب إلى ظلمات الجحيم نستخلص روح من كان يسعدنا ويلهينا . ويقوم العبد وما يحمل ليتبع سيده ، ويتنكر السيد فى زى

هرقل ، فلعل فى هذا مايساعد على اقتحام ظلمات الموت . وتبدأ الرحلة . ومنظر إله الفن فى زى البطل الحربى العظيم مبعث ضحك منذ افتتاح المسرحية . ويلتقى السيد وعبده بهذا وذاك وكلهم يأتيهما عن الطريق بأخبار ، وإذا هما أمام بحيرة الموت التى لا بد من عبورها ، ولا بد من رشوة النوتى بدنانير معدودات معلومات ، وإذاهما بالزورق الصغير يعبر بهما البحيرة والضفادع يعلو نقيقها ويعلو حتى يتصدع من صوتها الإله ويصيح ضجراً . ولكنها تمضى فى نقيقها الذى يشبه شعر الشعراء الغنائيين ، فيما يقول النقاد فى ذلك العصر ، يصدع ولا ينتهى وأخيراً يصل إله الفن وعبده وقد أمرضهما النقيق إلى شاطئ الموت أو الجحيم . والإله فى زى هرقل يريد أن يخيف أهل الجحيم بشجاعته ، ولكنه مايكاد يصل إلى قصر إله الجحيم حتى يضطرب ويخاف . وهذا عبده يشجعه ساخراً ، فيشجُعُ ويطرق الباب ، فيخرج إليه حارس القصر فى جلال وهيبة وصوت يدوّى كالرعد يسأل من الطارق ، فيقول إنه هرقل . فيخرج إليه يريد أن ينتقم منه بما أفسد فى الجحيم يوم جاء إليها . ويخاف إله الفن ويحاوره ويغافله ليستبدل مع عبده لباسه ، حتى يتلقى العبد ما قد قدّر له من ضرب وتعذيب . ويقبل العبد وإذا المارون به والخارجون من القصر يجلونه على أنه الإله هرقل ، فيغتاظ سيده ويطلب إليه أن يعود إلى لباسه من جديد . ولكن الحارس يخرج من القصر يريد أن ينفذ فيه العقوبة ، فيغافله مرة أخرى ويعود إلى لباس العبد ، وهكذا حتى يحار فيهما الحارس . والعبد إذا مادنا العذاب صاح أن سيده هو الإله وأنه هو العبد ، وإذا كان وقت التمجيد والإجلال أصر على أنه هو الإله ونهر سيده على أنه العبد ، بل سخر منه مر السخرية . ولا يجد حارس القصر حلاً إلا أن يشبعهما ضرباً ليعرف أيهما الإله لأن الإله لن يؤذى بالضرب . والعجيب أن العبد وسيده يثبتان لهذا الامتحان فلا يعرف الحارس أيهما السيد وأيهما العبد . وأخيراً يقول ادخلا القصر ورب القصر سيعرف الإله من العبد ؛ فالآلهة لاشك متعارفة . فيقول العبد : حل جميل لاعيب فيه إلا أنه أتى بعد أن أشبعتنا ضرباً . ويدخلان القصر . .

وقبل أن نرى ماذا حدث لهما داخل القصر لابد لنا من وقفة بهذا المنظر الذى طال بين الإله وعبده وتبادلهما اللباس . فما قيمة هذا المنظر فى الفكرة العامة ؟ يقول النقاد إنه إشارة من الكاتب إلى ما كان من الأحداث السياسية

فى أثينا إذ ذاك . فلقد نفت الدولة زعيما من الزعماء الذين أخلصوا لأثينا ، فرمز الكاتب بالإله فى هذا المنظر إلى أثينا ، وبالعبد المخلص إلى هذا الزعيم ، يتبادلان اللباس ، فلم تكن أثينا وزعيمها إلا شيئاً واحداً فى الواقع . ويصيب أثينا الخير إذا سلمت نفسها إلى الزعيم كما يصيب العبد الخير إذا ما ألبسه سيده لباسه ، وهما على كل حال أمام الخير والشر وحدة لا يضارّان إذا ما اتفقا ، وكل منهما قوى شجاع يستطيع أن يخوض الشدائد غير هياب ولا وجل .

والواقع أن كتّاب المسرح بل أدباء أثينا عامة لم يكونو ليستطيعوا ، وخاصة فى هذا العصر الذى ازدهرت فيه الديمقراطية أيما ازدهار ، إلا أن يشيروا إلى الأحداث السياسية التى كان الأثينيون يحبونها وكأنها حياتهم الخاصة ، يطربون لخيرها ويجزعون من شرها كما يطربون ويجزعون لخير حياتهم الخاصة وشرها . ولعله مما يقوى هذا الفرض أيضاً ما أتى به الشاعر فى شأن هذا الزعيم نفسه فى المسرحية فى امتحان الشاعرين فقد سماه الشاعر بالذات ، وكان إبداء الرأى فيه من أسئلة امتحان الشاعرين . ولكن أقصد الشاعر حقًّا إلى هذا ، أم هو أراد مجرد إضحاك الناظرين من هذا العبد الذى ظل محور الفكاهة فى أكثر من نصف المسرحية ؟ إن طريقة هذا الإضحاك والتمادى فى تكراره تجعل لهذا الفرض الأخير شيئاً من القيمة وتشكك المرء على الأقل فى أن يكون الشاعر قد أراد بهذا الفصل جدًّا أو سياسة .

وتعلو الضوضاء فى قصر إله الجحيم ، ويسأل إله الفن عن الأمر فيخبر . إن حدثاً قد وقع فى هذا القصر العظيم . فعلى يمين الإله عرش احتفظ به لملك المسرح من المؤلفين . وشغل العرش لزمان طويل شاعر أثينا الأمجد أسخيلوس . لكن الموت حمل إليهم حديثاً شاعراً مجيداً هو أوريبيد ، فجاء هذا وحاول أن ينزل أسخيلوس عن عرشه ليحل مكانه ، وأبى ذاك أن يتنحى له ، فقامت المعركة . واقترح إله الجحيم إقامة مباراة بين الشاعرين ، من فاز منهما جلس على العرش . وهذا إله الفن واللهو أتى ليستخلص أوريبيد ، فما ضره لو نظر هذه المباراة وحمل معه إلى الدار الدنيا من هو أحق بالإحياء من الشاعرين . ويدعو إله الجحيم إله الفن ليحكم فى هذه المباراة التى احتشد إليها رهط الجحيم كلهم متحمسين مترقبين . وتبدأ المباراة .

وفى هذه المباراة يصور لنا النزاع بين القديم والحديث ، فأسخيلوس شاعر

القدامى ، وأوريبيد شاعر المحدثين . ويقف أوريبيد معتدًا بنفسه إن جمهور أثينا معه ، هم الذين نصبوه على عرش المسرح فى الحياة ، وهم الذين نسوا أسخيلوس وشعره . هم الذين اهتزت قلوبهم لما ألف لهم من شعر ، فالجمهور معه كما هو مع المحدثين فى كل نزاع قام بينهم وبين القدامى . ومن طريف ما يقول الشاعر المحدث لخصمه القديم عندما يدعى إلى تلك المباراة قوله : إنه لايقف مع الشاعر القديم على قدم المساواة فى مثل تلك المباراة . فلما سأله الإله لماذا ؟ قال : لأن شعر أسخيلوس معه هنا فى الظلمات لأنه مات معه ، أما شعرى أنا فليس معى لأنه حى هناك على الأرض .

إن يكن النظر فى تفاصيل هـذه المباراة عسيراً لأنه يشير إلى أبيات بعينها ومواقف من مسرحيات معروفة لدى جمهور أثينا فإن جوهر الإشارات واحد. فالحديث يعيب على القديم تكلفه وبعده عن الواقع . والقديم يعيب على الحديث نزوله عما يجب له من جلال فى سبيل تملق شعور العـامة حيناً وتصوير الواقع الدقيق على ما فى الواقع من معايب يجب أن تخفى حيناً آخر . والحديث يعيب على القديم صناعته اللفظية ، فيقول أوريبيد لأسخيلوس إنك لم تستعمل قط لفظة بسيطة ، ولما سامتَنى إله الشعر كان مزركشاً مزخرفاً يمج من منظره الذوق السليم فحرصت على أن أخلع عليه جمال البسـاطة والذوق الرفيع . والقديم يعيب على الحديث ألفاظه المبتذلة وتصويره لعامة الشعب بل جعله الملوك كعامتهم . يقول أسخيلوس لأوريبيد : إنك ألبست الأمراء والنبلاء لباس الشحاذين فظهروا فى خرق مهلهلة ليستدروا عطف الجمهور ، وأسأت استعمال الـكلام فلم تستعمل إلا كل عامى عادى مبتذل .

ويحمى بينهما النقاش وتثار قضية الأخلاق التى تثار فى كل نزاع بين حديث وقديم . ويسأل الإله عما يفضل به الشاعر شاعراً ، فيجيب أوريبيد : بما يبث فى نفوس النـاس من فضيلة وما يزرع فى عقولهم من حكمة . وهنا ترجح كفة القديم هذا الذى تناسى الواقع ليرسم المثل الأعلى فلا يُرى الشعب إلا كل جميل وكل كامل مهذب على مسرحهم . وحجة الحديث تلك الحجة الأبدية فى مثل هذا النزاع هى أنه إنما كان يصور الواقع والحقيقـة . وحجة القديم أن من الواقع ما يجب ستره فى سبيل الأخلاق ، وحجة الحديث أن الحقيقة أولى من الفضيلة .

ويأتى الفصل الأخير حيث يهزأ الـكاتب من السفسطائيين فى عصره

وصناعتهم الـكلامية المحضة ، فيؤتى بميزان يقف كل شاعر منهما أمام كفة من كفتيه ليقول أثقل بيت من أبياته فيحكم الإله أيهما كان أثقل ميزاناً . يقول أوريبيد مثلا « إن الـكلام معبد الإقناع ومذبحه » . ويقول أسخيلوس « إن الموت إله لايقبل الضحية» . ويوزن البيتان فترجح كفة أسخيلوس . فإذا سئل الإله لماذا ؟ قال : إنه ذكر فى بيته الموت والموت أثقل المصائب فكيف لاترجح كفته . وهكذا لعب بالألفاظ صريح ترجح فيه كفة الشاعر القديم أبداً . ويأتى امتحان أخير يقوى فكرة الرمز السياسى فى الفصل الذى تبادل فيه الإله والعبد لباسهما ، وهو سؤال صريح عن هذا الزعيم المنفى من أجاب عنه إجابة خيراً من صاحبه فقد فاز ، فيجيبان ويظل الإله حائراً . ويتطور السؤال من رأى فى الزعيم إلى سؤال عما يراه الشاعر وسيلة لإرجاع أثينا إلى ما كانت عليه من مجد وأمن ورخاء ، فيجيب الشاعران وكان الشـاعر الحديث أحسن إجابة ؛ يقول القديم لأنه أحدث عهداً بالمدينة وأحوالها . ويأتى ميعـاد النتيجة والـكل متلهف على سماعها وخاصة أن الإله قد وعد أن يأخذ معه إلى أثينا الشاعر الفائز . ويتلـكأ الإله فى التفضيل . إنه يشعر بما نشـعر به جميعاً نحو القديم والحديث بل بما شعر به النـاس فى كل العصور نحو المتنازعين فى هذا النزاع الأبدى . إن أحدهما يعجب والآخر يُلذ ويُطرب ، فأيهما أفضل ؟ وأخيراً يفضل الإله الشاعر القديم . والطريف حجته فى ذلك إذ يقول: «ذاك أنى أميل إليه » . وكأنما الذوق الشخصى هو كلمة الفصل فى النقد . وهنا يثور الشـاعر الحديث وقد جزع أن الإله سيتركه للموت فيقول له « ياقاسى القلب أتتخلى عنى للموت ! » فيجيبه الإله بأسلوبه الفكه الذى لازمه طوال المباراة : « ولم لا فلعل الموت خير من الحيـاة ولعل فى الموت حياة وفى الحياة الموت » . وقبل أن يغادر إله الفن الجحيم مع شاعره يقام له حفل يكرم فيه هو وشاعره وبذلك تنتهى المسرحية .

لم يكن أرستوفان أول من ابتدع صورة هذا النزاع بين الشعراء محكمة أو مباراة بين القديم والحديث ؛ فلقد سبقه الشعراء وغير الشعراء إلى ذلك وإن يكن ما فعلوه فى هـذا المضمار لم يصلنا إلا ناقصاً مشوهاً ، ولـكنه على نقصه وتشويهه يدل دلالة واضحة على هذه الصورة . ولعل النزاع بين أسخيـلوس وسوفوكليس كان قريب عهد بأرستوفان . ولم يميز أرستوفان بأنه صور لنا الإله فى سذاجة فكهة كانت روح الإضحاك فى المسرحية وخاصة عند ما ينبهه الشعراء

إلى مواطن الجمال والقبح فى مسرحياتهم فيوافق عليها فى سذاجة من قد أحسها فعلا من قبل ولم يستطع أن يعبر عنها بل خاصة فيما صوره من عدم الكلفة الصريحة بين الإله وأبطال المسرحية مما جعل تلقيبه بالمغفل أو الجاهل أبسط ما يوجه إليه من ألفاظ ، فلقد فعل الشعراء ذلك من قبل فى آلهتهم؛ إذ أن تلك كانت أهم مميزات شعور الأثينى القديم الدينى نحو آلهته فى المعابد وفى الحياة الخاصة . كل ما امتاز به أرستوفان هو النظرة النافذة ، نظرة الناقد الحق فى الشعر وما يجب له ، وفى شعر هذين الشاعرين بالذات ، نظرة جعلت تصوير هذا النزاع على قدمه قويًا كاملا ، قد أكسبه الفن المسرحى روعة وجمالا . وبذلك تعد تلك المسرحية أقدم ما نعرف من صورة لهذا النزاع يصورها ناقد حق ، ولعلنا لا نكون مغالين إذا أضفنا : وأجمل صورة له أيضاً .

سهير القلماوى

أبو الطيب المتنبي

بين الغرور والطموح والحزن

يروى فى بعض أساطير الجان أن ملكا من ملوك الجان كان يمقت الغرور ويغالى فى كراهة المزهوين بأنفسهم الشامخين بأنوفهم . وأراد أن يعبر عن هذه الكراهة فى شكل يسترعى الأنظار ، ويملأ الأسماع ، ويبقى ذكره على الأيام ، فأعلن أنه لا يزوج ابنته الحسناء إلا من الرجل الذى يثبت أنه أقل الناس نصيباً من الغرور ، وأبعدهم عن الزهو والخيلاء ، وأن هذا الرجل — إذا وجد — سيكون وارث عرشه المكين وملكه الواسع وجلّ ماله . ولتحقيق هذه الغاية نصب مرآة كبيرة على الطريق الرئيسى المفضى إلى قصره ، وأخذ يراقب السابلة ، فكان كل من يمر بالطريق يتجه ببصره إلى المرآة ليطالع فيها صورته المحبوبة ، ويصلح من هندامه ، وبخاصة الذين كانوا يقدمون لخطوبة كريمته الحسناء ، فقد كانوا يحرصون على أن يكون لمنظرهم الرائع وزيهم الفخم الأثر المرغوب والوقع الحسن الذى يعين على قبول الخطوبة ويذلل العقبات . وطال الزمن ، وملّ الملك الجليل المراقبة والتنظر ، ودب إليه اليأس ، وإذا برجل عادى المنظر يمر إلى جانب المرآة مستغرقاً فى التفكير فلا يلقى عليها نظرة عجلى ، ولا يعيرها لفتة عابرة ، وقد عرته الدهشة واستولى عليه الذهول حينما حمل إلى الملك للمثول بين يديه فأزاً منتصراً . وكان هذا الرجل السعيد شاعراً ينحت القوافى ويقرض الشعر ، واتفق فى أثناء مروره بالمرآة أنه كان ينظم إحدى القصائد ويروض قوافيها فألهاه ذلك عن النظر إلى المرآة وأظفره بيد ابنة الملك ، وورثه الملك والسلطان والجاه والمال .

وواضح أن هذا الشاعر المجدود لم يبصر المرآة ، ولو كان رآها لما مر بها غير حافل ولا مكترث ، ولكان له أمامها وقفة يتأمل فيها طلعته وقوامه ، ويسوى

من بزته وهندامه . على أن هذه الأسطورة تنطوى على سخرية القدر القاسية بهذا الملاك الهمام ؛ لأن الشاعر السعيد لو كان لحظ المرآه وأعرض عنها لكان ذلك أدل على غروره وافتتانه بنفسه لاشتغاله بتأمل نفسه فى مرآته الداخلية الخفية وهو لون من الغرور أقوى مراساً وأبعد أعراقاً من غرور المزهوين الكلفين بالنظر إلى ملامحهم الخارجية البارزة فى صقال المرآة . والواقع أن أى إنسان يتاح له مخالطة الشعراء وسائر أصحاب القرائح الفنية يدهشه إدلالهم بمواهبهم وفرط تدلههم بأنفسهم وخيلاؤهم التى قد يعجز عن احتمالها أشد الناس إعجاباً بهم وأعظمهم تقديراً لفنهم ، ويعجب لاشفاقهم من النقد الرفيق والملاحظة اليسيرة . وحذار ان يخدع الانسان فى ادعائهم الترحيب بالنقد وتقبل الملاحظة؛ فليس هذا النوع من الصبر والاحتمال فى طوقهم ، وليس الغرور بوجه عام مقصوراً على أصحاب الأمزجة الفنية فإنه من الخلائق الشائعة بين الناس . فكل منا يخال نفسه محور الوجود ، وغرض الحياة ، وأنه أنفذ الناس بصيرة ، وأصحهم إدراكا ، وأن العالم لا يستغنى عنه ، ولا يصلح بدونه . وهذا الغرور الملازم للطبيعة الانسانية هو الذى يهون علينا احتمال الحياة فى أقسى الظروف وأسوأ الحالات ، وهو الذى يشد من عزمنا ويعيننا على لقاء عثرات الحظ ونوبات التخاذل واليأس .

وكل منا يحاول فى حياته اليومية المألوفة أن يتجمل للناس ، ويصانعهم ويتظاهر لهم بالتواضع ، وخفض الجناح ، وتوطئة الأكناف ، فإذا ما أجنه الليل أو حفت به الوحدة خلا إلى أنانيته ودخل محرابه المقدس الذى لا يسمح لأحد بأن يطأ أرضه أو يدنس حرمته ، وناجى غروره وقدم القرابين إلى كبريائه المتوارية وزهوه المستور . وأكثرنا فى العالم الخارجى يخلع رداء الغرور ويتناسى الكبرياء ويمثل دور التواضع ويحاول أن يكون خليقاً بقول أبى تمام فى رثاء صاحبه الطوسى :

فتى كان عذب الروح لا عن غضاضة ولكن كبراً أن يقال به كبر

فالزهو والغرور وتوهم العظمة والمغالاة بقيمة الإنسان داء يغشى الناس جميعاً ويلفهم فى غياهبه ، ولا معدى لهم عنه ، ولا خلاص لهم منه . ورجال الفنون ، سواء المبرزون منهم وغير المبرزين أكثر استهدافاً لهذا الداء المتفشى وأشد قابلية لإيواء جراثيمه وإنمائها . وهم مطبوعون على الصراحة وحب الحرية والرغبة

فى التعبير عن النفس والتحدث عن ميولها واتجاهاتها فى غير مواربة ولا جمجمة ، ولا قدرة لهم على التحفظ والمداراة والنفاق الذى تألفه الناس ليستروا هواجسهم وهواتف نفوسهم . ولذا يبدو غرورهم واضحاً ، وتتجلى أنانيتهم سافرة . وهم يتجرعون من جراء ذلك الغصص ويلقون المقاومة والعداء . وفرط ثقة الفنان بنفسه وإسرافه فى حبها وكثرة تعلقه بأهدابها يقابلها من ناحية أخرى رغبة منافسيه وأنداده وحساده الجنونية الطاغية فى انتقاص قيمته ، وإنكار فضله ، وتشويه محاسنه ، وإذاعة مثالبه ، والحرص على النيل منه وهدم بنائه . ومن دأب الانسان أنه كلما غالى بعرفان نفسه ، وارتقى بها رفيع الذرى ، هانت عليه أقدار الناس وتضاءلوا فى عينه . والفنان الذى ينتشى من خمر حبه لنفسه وهوس إعجابه بفنه قد يصل إلى حالة كتلك الحالة التى وصفها دِعْبِل الخزاعى فى قوله :

إنى لأفتح عينى حين أفتحها　　على كثير ولكن لا أرى أحدا

فالناس حوله كثيرون ولكنه يشرف عليهم من أبراجه العالية فهو لا يكاد يراهم ، وإذا شغل نفسه بهم ودقق فى النظر إليهم رآهم كالحشرات التى تزحف على أديم الأرض !

وفى اعتقادى أن شاعرنا الخالد العظيم أبا الطيب المتنبى كان من أشد شعراء العالم غروراً بنفسه وثقة بها ، وأكثرهم إدلالا بقدرته . وقد ذهبت به الخيلاء أبعد المذاهب حتى أوفى على الغاية فى الكبرياء والتنفّج ، ولازمه ذلك فى شتى أدوار حياته من إبان نشأته وشبابه حتى قبيل مصرعه ومماته .

فهو فى صباه ومطالع شبابه يقول :

أى محل أرتقى　　أى عظيم أتقى
وكلُّ ما قد خلق اللـه　　وما لم يخلق
محتقر فى همتى　　كشعرة فى مَفْرِقِ

وفرط الغرور — مهما كانت مواهب الانسان — من الأشياء السمجة المكروهة وإن كانت لا تخلو فى بعض الأحيان من عنصر الفكاهة وإثارة الضحك . وقد يحتمل الناس غرور المغتر بنفسه لتوقد ذكائه وغزارة اطلاعه ولكنهم لا يستطيعون أن يحتملوه طويلا . ولذا قد يكون للمغرور أتباع

وأنصار يحملون عرشه ، ولكنه لا يكون له أصدقاء يبادلونه العطف . والظاهر أن بعض أصحاب المتنبي نعى عليه غروره وإمعانه في التيه فاعتذر عن ذلك بقوله يسوّغ غروره :

إن أكن معجباً فعجب عجيب   لم يجد فوق نفسه من مزيد

وأكاد ألمح أن أصحابه يئسوا بعد ذلك منه وتركوه يحتمل مغبة إسرافه في الغرور والتعالي . وقد أخذت أبا العلاء المعري نوبة من نوبات الادعاء العريض والغرور الثقيل ، فنظم تلك اللامية المعروفة التي يقول في مطلعها :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل   عفاف وإقدام وحزم ونائل

ولكن هذا النوع من الفخر الأجوف كان لا يلائم مزاج أبي العلاء ولا يتفق مع نظرته إلى الطبيعة الإنسانية وفلسفة حياته . ولذا سرعان ما انتقل إلى النقيض فكان يكثر من لوم نفسه وتعنيفها وانتقاص قدرها . ومن أمثال ذلك قوله :

دعيت أبا العلاء وذاك مين   ولكن الصحيح أبو النزول

وقوله — وهو غاية في التواضع — :

ولو كنت ملقى بظهر الطريق   لم يلتقط مثلى اللاقط

وقد كان أبو العلاء من كبار شعراء العالم الساخرين ، ولذا فطن لما في شعر الفخر والحماسة من ادعاء صارخ ، وعنترية مضحكة ، ونفخة كاذبة . وضعف ملكة الفكاهة في المتنبي هي التي أذهلته عن إدراك سخف كثرة امتداحه لنفسه ومغالاته بقدرته . والذي يقلب صفحات ديوان المتنبي يخيل إليه أن هذا الرجل الجاد الفاضل لم يضحك سوى مرة واحدة في حياته الطويلة أو المتوسطة ، وذلك حين مر في شبابه برجلين قد قتلا جرذاً وأبرزاه يعجبان الناس من كبره ، فأضحك هذا المنظر شاعرنا الكبير وأثار حاسة الفكاهة الراقدة في نفسه ، فنظم هذه الأبيات :

لقد أصبح الجرذ المستغير   أسير المنايا صريع العطب
رماه الكنانى والعامرى   وتلاّه للوجه فعل العرب

كلا الرجلين اتّلى قتله   فأيكما غلّ حر السلب ؟
وأيكما كان من خلفه ؟   فإن به عضة فى الذنب

وهجاؤه لكافور تندر فيه الفكاهة المستطرفة ، وأكثره إقذاع وسباب يدل على جفوة الطبع وشدة الحقد واتقاد الغضب والغيظ . ولقد قال فيه :

فإن كنت لا خيراً أفدت فإننى   أفدت بلحظى مشفريك الملاهيا

ولكن الحقيقة أنه بلحظه مشفرى كافور لم يفد الملاهى وإنما أضاف الكثير إلى أدب القذف والسباب والشتم والإسفاف . ومعروف أن كافوراً ملّ كبرياء المتنبى وتعاليه ، وضاق بغروره وإدلاله ، كما ضاق به قبله سيف الدولة على إعجابه بالمتنبى وعظيم تقديره لأدبه . والعجيب أن المتنبى كان فى بعض مدحه لكافور الذى ينطوى على شىء من السخرية الخفية ألطف روحاً وأخف ظلا . فمن منا لا يقف عند هذا البيت ويعجب وربما يرتسم على وجهه الابتسام :

تفضح الشمس كلما ذرّت الشمسُ بشمس منيرة سوداء

أليست هذه الشمس المنيرة برغم ما يعلوها من السواد — والتى هى كافور الإخشيدى — وهى مع ذلك تخجل الشمس وتفضحها وتزرى بها وتكسفها وتغمرها رغم سوادها الذى يشرق منه الضوء النافذ ، أليست هى من الأشياء العجيبة التى لم يكن لها نظير إلا فى مخيلة المتنبى ؟

والظاهر أن المتنبى بعد أن نظم هذا البيت ولحظ ما فيه من الإسراف فى المغالطة وطلب المحال وما يشى به من الملق والمداهنة ، أدركته كبرياؤه وعاوده غروره ، نختم القصيدة بقوله :

وفؤادى من « الملوك » وإن كا   ن لسانى يرى من الشعراء

فهو يعزّى نفسه بأن فؤاده من الملوك ولكن لسانه المسكين الولوع بالمبالغة والمغالطة والمداهنة من الشعراء !

ولعل مدحه لكافور المشوب بالسخرية الخفية كان أوضح فى القصيدة النونية التى يقول فيها مخاطباً كافوراً :

ومالك تعنى بالأسنة والقنا　　وجدّك طعّان بغير سنان
أرد لى جميلا جدت أو لم تجد به　　فإنك ما أحببت فىّ أتانى

والضربات الصادعة والألفاظ الجارحة التى كالها المتنبي لكافور لم تضحكنا منه ، وإنما جعلتنا نعتب على المتنبي لإشهاره هذا السلاح الرهيب سلاح الهجاء فى غير لباقة مستحبة ، ولا فكاهة مستعذبة ، وإنما فى شيء كثير من القحة والسماجة وثقل الدم وجفوة الروح . وأفظع من هجائه لكافور تلك القصيدة البائية التى مطلعها :

ما أنصف القوم ضبّه　　وأمه الطرطبه

فقد فاق فيها المتنبي نفسه سوء أدب وقلة حياء وانحدر فيها إلى الحضيض الأوهد . ومهما قرأ الانسان عن تناقض أخلاق العبقريين وتفاوت طباعهم وآثارهم فانه لا يسعه إلا التعجب من مصرع هذا العقل الجبار فى تلك القصيدة المشئومة ، وتهافت هذه العبقرية الراجحة ، وكيف أسفّ هذا النسر المحلق فى أعالى الفضاء على الجيف والأقذار ، وتورط فى الحزون والأوعار . وقد كانت هذه القصيدة على سخافتها وركاكتها سبب قتله وقتل ابنه وغلمانه وذهاب ماله ودمه هدراً .

وفى بعض الأحيان كان يتلاقى فى نفسه الغرور والطموح ، أو يستحيل الغرور طموحاً وينقلب طلباً لعظيمات الأمور وحلماً بالمجد ، كما فى قوله :

تحقّر عندى همتى كل مطلب　　وتقصر فى عينى المدى المتطاول
ومن يبغ ما أبغى من المجد والعلا　　تساوَ المحايا عنده والمقاتل

ويزين له هذا الغرور والولع بالمجد أنه سيصنع الصنائع ويفعل الأفاعيل ويقتل الناس والملوك ويثأر لنفسه ويسترد حقه المغصوب فيقول :

ميعاد كل رقيق الشفرتين غدا　　ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فإن أجابوا فما قصدى بها لهم　　وإن تولوا فما أرضى بها بهم

وقد يصل به التفاخر، والتمجد، والتظاهر بالقوة إلى حد السخف. تأمل قوله :

يحاذرني حتفي فإني حتفه وتنكزني الأفعى فيقتلها سمي
طوال الردينيات يقصفها دمي وبيض السريجيات يقطعها لحمي

وغريب أمر هذا الرجل الذي يكون حتفاً لحتفه، والذي تنكزه الحية فلا يؤثر فيه سمها وإنما يقتل سمه الحية! وولعه بالفخر هو الذي أغراه بادعاء هذه الحالة المضحكة. وقد يأخذ غروره وادعاؤه العظمة صورة التطلع إلى الإجرام وسفك الدماء، كما في قوله :

أفكر في معاقرة المنايا وقود الخيل مشرفة الهوادي
زعيم للقنا الخطي عزمي بسفك دم الحواضر والبوادي

وفي سبيل ماذا يسفك دم الحواضر والبوادي؟ في سبيل طلب المعالي! فصاحبنا إذن يريد أن يكون من طراز أتيلا وجنكيز خان وتيمور لنك. ونحمد الله لأن الأيام أخلفت ظنه ولم تحقق له أمنيته.

وباعد غروره ما بينه وبين الناس، وأفسد علاقته بهم، فصار يشعر بغربته وعزلته، ويعزّي نفسه بمثل قوله : «إن النفيس غريب حيثما كانا». والاحتفاظ بالغرور، والكلف الشديد بالنفس، والتفكير الدائم فيها يثير في النفس شعوراً آخر وهو الشعور بالاضطهاد والظلم والاعتقاد الراسخ بأن هناك من ليس لهم عمل في الحياة والدنيا سوى أن يكيدوا لنا، وينصبوا في طريقنا الأشراك والفخاخ، ويعملوا على هدم بنائنا والقضاء على حياتنا. ومن ثم هذه الشكوى الدائمة في شعر المتنبي من حسد الحاسدين وكيد الكائدين. ولذا أحب أن أعتذر لأبي الطيب عن شكي في قوله :

أنام ملء عيوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

فالرجل الذي يكثر من ذكر حساده ومنافسيه لا بد أنه كثير التفكير فيهم، حريصاً على إغاظتهم ورد كيدهم. وقد وصف لنا إحداق الأعداء به من كل

جانب حتى آثر مجاورة الوحوش الضارية والأسود العادية فى قوله لما مر بالفراديس من أرض قنّسرين وسمع زئير الأسد :

أجارك يا اسد الفراديس مُكْرَمُ	فتسكنَ نفسى أم مهان فمسلم
ورائى وقدامى عُداة كثيرة	أحاذر من لص ومنك ومنهم
فهل لك فى حلفى على ما أريده	فإنى بأسباب المعيشة أعلم
إذاً لأتاك الرزق من كل وجهة	وأثريت مما تغنمين وأغنم

ولم يستطع المتنبى أن يواجه هذه الحقيقة ، وهى أن معظم من يكرهونه إنما كانوا يضمرون له البغضاء لإمعانه فى الكبرياء . ففى « الصبح المنبى» أن الصاحب ابن عبّاد طمع فى زيارة المتنبى إياه بأصفهان وهو إذ ذاك شاب ولم يكن استوزر بعد ، فكتب يلاطفه فى استدعائه ويضمن له مشاطرته جميع ماله ، فلم يقم المتنبى له وزناً ولم يجبه عن كتابه ، ولم يكتف بذلك بل قال لأصحابه « إن غليماً معطاء بالرى يريد أن أزوره وأمدحه ولا سبيل إلى ذلك » . فصيّره الصاحب غرضاً يرشقه بسهامه ويتعقب سقطاته فى شعره وينعى عليه سيئاته . وكان المتنبى يستطيع أن يعتذر عن الذهاب إلى هذا الشاب الطموح فى شىء من الرفق واللين ، ولكن كبرياء المتنبى تنأى به عن اتباع هذه السياسة . وهو لا يلاين الناس ولا يحاسنهم إلا إذا كان مضطراً إلى ذلك ولم يجد عنه مندوحة ، فلما سجن لاتهامه بادعاء النبوة وإحداث الشغب لم يجد مانعاً من أن يكتب إلى والى حمص من قصيدة ينفى بها عن نفسه التهمة قائلا :

أمالك « رقى » ومن شأنه	هبات اللجين و « عتق العبيد »

وهذا هو حال أكثر التياهين المتكبرين ؛ فإنهم لا يثبتون طويلا لمنازلة النوائب ومقارعة الخطوب .

وقد كانت هذه العظمة المتوهمة التى نسجها المتنبى حول نفسه لوناً من ألوان العوض عما أصابه فى طفولته وابتداء نشأته من الإهانات وأنواع الإساءة والتحقير بسبب فقره ويتمه وضعة أصله . ومعظم الذين عرفوا بالكبرياء والزهو استهدفوا فى حياتهم لامتحانات قاسية ونقدات مهينة وامتهانات جارحة . وقد لوحظ أن شدة شعور الإنسان بناحية خاصة من نواحى النقص تحدوه على

ابتغاء المجد وطلب العظائم . و« أدلر » العالم النفسي المعروف يردّ كل موهبة إنسانية سامية إلى الرغبة فى التعويض عن لون أصيل من ألوان النقص والعيب . وقد لا يصدق رأيه فى كل موقف ، ولا يفسر كل حالة من الحالات النفسية ، ولكن لا نزاع فى أن الشعور بناحية من نواحى النقص يحفز النفس إلى استدراك هذا العيب واستكمال ذلك النقص . وتوهم العظمة عريق فى نفوسنا فالطفل يتلهف على أن يكون ضخما فارعاً ، ويود أن ينمو ويكبر فى مثل غمض العين ورجعة الطرف .

وطموح المتنبي المترامى القلاب ، وحلمه بالمجد المؤثل والملك الشاسع ، واعتقاده بأن له حقًّا سيطلبه بمشايخ « كأنهم من طول ماالتثموا مرد » من أقوى بواعث هذه الشكوى المرة التى تطالعنا فى شعره والحزن الولاج الذى تنضح به قصائده . ومَنْ أبعد الأمل وأسرف فى الطمع كان خليقاً أن يعود بالحرمان ، ويبوء بالخسران . ولا عجب أن يكون المتنبي وهو أعظم شعراء العربية طموحا ، وأضخمهم أملا هو نفسه الذى يقول :

أذاقنى زمنى بلوى شرقت بها لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا

ويتحدث عن الخطوب التى أنشبت فيه مخالبها فيقول :

أوحدننى ووجدن حزناً واحداً متناهياً فجعلنه لى صاحبا
ونصبننى غرض الرماة تصيبنى محن أحدُّ من السيوف مضاربا
أظمتنى الدنيا فلما جئتها مستسقياً مطرت علىَّ مصائبا

ولما نالته الحمى بمصر خاطبها بقوله :

أبنت الدهر عندى كل بنت فأين وصلت أنت من الزحام
جرحت مجرَّحاً لم يبق فيه مكان للسيوف ولا السهام

وفى رثائه المؤثر البديع لأم سيف الدولة يقول عن نفسه :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

فطموح المتنبي هو باعث حزنه، وكبرياؤه هي سبب كثرة خصومه وأعدائه، وإفراطه فى طلب الدنيا هو سبب ما يروى عنه من الشح والبخل. ولقد أبعد المتنبي الهدف، وغالى فى الطلب، فلم يلق سوى الحزن وخيبة الأمل. والدرس الذى نتعلمه من حياته هو أن نعتدل ونقتصد فى طلباتنا، نبغى الأهداف المعقولة. وقد كان المتنبي بعيداً عن الزهد والقناعة والترفع عن المطامع فظل فى حياته محزوناً شقيا. وكان كلما أخفق فى نيل بغيته، وأحس بعجزه، لاذ بكبريائه وتدرع بغروره، وملأ ما ضغيه بالافتخار المسرف مرة، وبالشكوى المرّة مرة أخرى. ولم يستطع طوال حياته أن يوازن بين أمله وقدرته، وظل طفلا يطمع فى الملك ويحلم بالنفوذ والسلطان وضرب أعناق الملوك قبل السوقة. وكان يسمع إطراء المعجبين بأدبه المأخوذين بشعره فيزداد ثقة بنفسه وإعجاباً بمواهبه إلى حد أن يرى نفسه «عجيباً فى عيون العجائب». ويمكن أن نعزو إلى تأثير أدب المتنبي الإكثار من شعر الفخر الأجوف الذى ملأ دواوين الشعراء بعد عهد المتنبي. ومن أمثال ذلك تلك القصيدة الخرافية التى نظمها ابن سناء الملك ومطلعها:

سواى يهاب الموت أو يرهب الردى   وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا

ولولا تأثير المتنبي السيء — فى هذه الناحية — لكان شاعر متزن مثل البارودى أوفر عقلا وأصح مزاجاً من أن يرسل مثل هذا البيت العنترى السخيف:

إذا استل منا سيد غرب سيفه   تفزّعت الأفلاك والتفت الدهر

على أدهم

التعقيد فى شعر المتنبى

قرأت فى مجلة « الكاتب المصرى » مقالا للأستاذ الدكتور محمد كامل حسين(١) ، ألم فيه بالتعقيد فى شعر المتنبى ، وحاول أن يرده إلى أسبابه الأصيلة فى نفس الشاعر ، ولكنه فيما يخيل إلى - لم يبلغ ما أراد ، بل لعله أن يكون قد مال عنه ؛ لأنه سعى إليه من غير وجهه .

فالتعقيد لم يكن عند المتنبى طبيعة راسخة ، ولا صفة ملازمة ؛ فتتصل بنفسه ، وتستمد منها الوجود والثبات ، ولكنه كان عرضاً طارئاً تقتضيه أسباب موقوتة ؛ فيبقى ما بقيت ، ويمضى على أثرها حين تزول . وليس المتنبى فى هذا بدعاً ولا وحيداً ؛ فما من شاعر ولا كاتب إلا له منه حظ قليل أو كثير . غير أن منهم من يحذر النقاد ، ويحفل بالرأى الأدبى العام ؛ فينحى على معقداته بالتهذيب أو الحذف ، فلا يصدر عنه إلا الواضح السمح ، أو الآخذ من الوضوح والسماحة بنصيب . ومنهم من لا يقيم وزناً للنقاد ولا للرأى الأدبى العام ؛ فيصدر عنه كل ما يقع له ، لا يبالى تعقيداً ولا سخفاً ولا إسفافاً . وإذا كان حظ الشاعر من التعقيد أكبر فلأنه يتقيد فى الشعر بكثير مما لا يتقيد به الكاتب فى النثر . وأسباب التعقيد كثيرة ، يرجع بعضها إلى الشاعر نفسه : كنضوب طبعه ، وفتور حسه ؛ لملل ، أو إعياء ، أو اختلال مزاج ، أو نحو ذلك. ويرجع بعضها الآخر إلى الموضوع الذى يعالجه : كجدته ، ودقة مسالكه ، وصعوبة تناوله ، واستبهام حقائقه ، وما يشبه ذلك . وليس يعنينا على كل حال أن نتتبع هنا أسباب التعقيد بالاحصاء والبيان ؛ فلسنا منها الآن بسبيل إلا على قدر ما يتطلب الموضوع ؛ فلنقتصر على هذا القدر : لا نتوسع ولا نزيد .

والأستاذ الدكتور يرى أن التعقيد فى شعر المتنبى يرجع بعضه إلى حرص كان عنده ، ويرجع بعضه الآخر إلى أمل كان يرجوه ، لكنه أخفق فيه .

فأما الحرص فلست أدرى على التحقيق ما مراده به ؟ أتراه يريد أن يقول مع القائلين : إن المتنبى كان بخيلا ، يحب المال ، ويحرص على جمعه وادخاره ، ثم يزيد حضرته أن هذا البخل كان متمكناً منه ، وشديد الالحاح عليه ، حتى لقد كان له عمل فى فنه ، وسلطان على مواهبه ؟ أم تراه يريد أن الشاعر كان لشعره محبا ، وبه مفتوناً ، وأن ذلك كان يغريه بالابقاء عليه ، والضن بكل ما ينتج منه ، دون تفريق بين المعقد وغير المعقد ؟ وأياما يكن المراد الذى يقصد إليه الأستاذ الدكتور ، فلا شك أن البخل بالمال أو الحرص على الشعر لا يعلل التعقيد نفسه ، ولا يكشف عن سر التورط فيه ، ولكنه يعلل الاعتزاز بالشعر المعقد ، ويكشف عن سر الابقاء عليه .

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٢ (نوفمبر ١٩٤٥) .

وشىء آخر : أن البخل بالمال ، أو الحرص على الشعر لا يستطيع وحده أن يهون التعقيد على الشاعر ، ويرخص له فى اصطناعه وإذاعته فى النــاس ؛ فقد يحب المرء آثاره الأدبية ، ويود جاهداً لو أتيح له الابقاء عليها كلها ، ولكن يمنعه من ذلك خوف النقاد ، أو الرغبة فى استرضاء القراء .

ولم يكن المتنبي بعد هذا كما يصوره بعض الرواة — شحيحاً ، جماعاً للمال ، يشتد فى جمعه والحرص عليه ، ولا يرى بأساً أن يفرط فى سبيله ببعض مالا يجمل بالرجل الأبى الكريم أن يفرط فيه ؛ فليس فى المعروف من سلوكه مايؤيد ذلك أو يشير إليه ، وإنما تلك فيما أعتقد فرية افتراها عليه بعض خصومه والمنافسين له ، كما افتروا عليه غيرها من العيوب . فالرجل الذى ينزع منازع العظمة ، ويتشبه فى خروجه بأصحاب السلطان ، فلا يركب إلا فى موكب من المماليك ، يحفون من حوله وهم مدججون بالسلاح (١) . والرجل الذى يفد على بغداد ، فيذهب بنفسه عن مدح الوزير المهلبي ؛ لاشتهاره بالسخف ، وتولعه بالمجانة والهزل (٢) ، ثم يتودد إليه سرى من تجارها الأدباء ؛ فيخدمه ، ويكرم مثواه عسى أن يمدحه ، فلا يفعل ، ويقول له فى الاعتذار من ذلك : لو كنت مادحاً تاجراً لمدحتك (٣) ، ثم يسأله أبو إسحق الصابى أن يمدحه بقصيدتين ، ويجعل له عليهما خمسة آلاف درهم ، ويوسط بينهما فى ذلك رجلا من وجوه التجار ؛ فيقول له : قل لأبى إسحق : ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولا أوجب على فى هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت ، وإن أنا مدحتك تنكر لك الوزير المهلبي ، وتغير عليك ؛ لأننى لم أمدحه . فان كنت لا تبالى هذه الحال فأنا أجيبك إلى ما التمست ، وما أريد منك منالا ، ولا عن شعرى عوضاً (٤). والرجل الذى يدعوه الصاحب ابن عباد إلى زيارته ، ويعده أن يشاطره جميع ماله ؛ فلا يستجيب له ، ولا يرد عليه كتابه(٥) ، والرجل الذى يستزيره عضد الدولة وهو عند ابن العميد ؛ فيأبى ، ويرغبه ابن العميد فى المسير إليه ، بما يصف له من سخاء الملك وجزالة عطاياه للكفاء وأصحاب المواهب ؛ فيقول له : إن الذى أجود به على الملوك من الشعر خير مما يجودون به على من المــال ؛ لأن شعرى خالد ، ومالهم زائل ، ثم يقول : إنى امرؤ ضجر ملول ، وأريد أن يكون إلى الأمر فى الاقامة والظعن ، لكن الملوك يستبدون بى ، ويأبون على الخروج حين أريد ؛ فأضطر إلى مغاضبتهم والرحيل عنهم على أقبح الوجوه ، ثم لا يزال مصراً متشبثاً ، حتى يكتب ابن العميد فى ذلك إلى الملك ، ويرد جواب الملك أن الشاعر حر : يقيم ما شاء ، ويرحل متى شاء(٦).

الرجل الذى يعمل بعض هذه الأعمال ، ويقول بعض هذه الأقوال — لا يمكن أن يكون بخيلا ، ولا يصح أن يوصم بالبخل وفى الدنيا إنصاف ، وللكلام معان يؤديها ويقصد به إليها .

والاخفاق فى الأمل لا أرى له كذلك أثراً فى التعقيد عند المتنبي ؛ فالمفهوم أن الأمل الذى هام به ، وشقى فى طلبه ، وأطال الحديث عنه منذ كان شاباً يافعاً ، إنما كان ولاية السلطان . والمعروف كذلك أنه لم يستيئس منه ، وينصرف عنه إلى غير رجعة إلا عند عضد الدولة بن بويه ؛ فقد أشار إليه فى مدح دلير وابن العميد إشارة مبهمة ، لكنها تدل على كل حال أنه حتى ذلك

---

(١) الصبح المنبى ١ : ١١٣ (٢) خزانة الأدب للبغدادى ٢ : ٣١٠ (٣) النجوم الزاهرة ٤ : ١٧٣
(٤) معجم الأدباء ١ : ٣٤٦ (٥) الصبح المنبى ١ : ١٨٠ (٦) خزانة الأدب ٢ : ٣١١

الوقت كان لا يزال يذكره ، ويفكر فيه ، ويتحدث عنه . قال من قصيدته فى مدح دلير :

ذرينى أنل ما لا ينال من العلا	فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل
تريدين لقيان المعالى رخيصة	ولا بد دون الشهد من إبر النحل
حذرت علينا الموت والخيل تلتقى	ولم تعلمى عن أى عاقبة تجلى

وقال من قصيدة فى مدح ابن العميد :

صغت السوار لأى كف بشرت	بابن العميد وأى عبد كبرا
إن لم تغثنى خيله وسلاحه	فتى أقود إلى الأعادى عسكرا ؟

فلو كان للاخفاق عمل فى تعقيد شعره كما يقول الأستاذ الدكتور لوجب أن يكون المعقد فى شعره عند عضد الدولة أكثر منه فى شعره قبل أن يرحل إليه ؛ فقد أصبح له منذ ذلك الحين عاملان اثنان بدل عامل واحد : أحدهما ثابت ملازم ، وهو الحرص أو البخل . والآخر طارئ جديد ، وهو الاخفاق فى ولاية السلطان . لكنا إذ نرجع إليه لا نرى فيه شيئا من التعقيد ، مع اختلاف نوعه ، وتعدد موضوعاته ، وكثرة مقداره بالاضافة إلى المدة القصيرة التى قيل فيها ؛ فقد نظم وهو عند عضد الدولة ست قصائد طوالا إحداها أرجوزة ، ونظم قصيدة سابعة فى سبعة أبيات ، وتناول فيها من الأغراض الغزل ، والمدح ، والتعزية ، والحكمة والوداع ، والوصف المنوع الموضوعات .

ماذا عسى إذاً أن يكون سبب التعقيد فى شعر المتنبى ؟ الذى يبدو لى أن سببه عنده هو سببه عند غيره : لا تمايز هناك ولا شذوذ . وإذا كان حظ شعر المتنبى منه كبيراً فلأنه كان يغالى بنفسه ، ويعتز بمواهبه ، حتى ما يكاد يفكر فى جمهوره ، أو يحفل بنقاده ، كما يتمثل فى المحاورات التى كانت تدور بينه وبينهم بعض الأحيان ، وكما يقول فى بيته المشهور :

أنام ملء جفونى عن شواردها	ويسهر الخلق جراها ويختصم

ثم إنه كغيره من شعراء العقل والحكمة كان يطلب المعانى العميقة ، التى لا تنال بغير المصابرة والكد ، ولا تستقيم إلا بعد المداورة وطول الاحتيال . وكان إلى جانب ذلك يحرص على أن تكون عبارته فخمة ، وألفاظه جزلة ، وموسيقاه مجلجلة ، فيها قوة ولها رنين .

ويرى الأستاذ الدكتور بعد ذلك أن المتنبى من أجدب الناس خيالا ، وأقلهم تصويراً . وهو رأى لا نوافق عليه ، ولا نرى فى شعر الشاعر ما يعززه . ولست أعنى هنا شعر الوصف وما يشبهه مما يكون للتخيل فيه مجال فسيح ، ولكننى أعنى مع ذلك شعر الحكمة أيضا ، حيث يغلب التفكير المجرد ، ويأخذ الغرض على نمط يقل فيه تصنيع الخيال . فهو فى هذا الغرض مثله فى بقية الأغراض ، مصور موهوب ، خصب الخيال ، ثاقب الذهن ، واسع الاحاطة ، بارع الملاحظة ، عميق الفكرة ، دأبه فى الابانة والتعبير أن يبث الحياة والحركة فى كل ما يتناول من معنى ، وكل ما يؤلف من مشهد ، حتى إذا انبعث مواته ، وجاش ساكنه ، وتحرك جامده ،

أدار وحداته على ما تقتضيه الصناعة ، ويوجبه النسق وحسن الافتنان ، فاذا الأشباه تتلاق والأضداد تتنافر ، والبعيد يدنو ، والغائب يتمثل ، والعواطف تتراءى ، والشائع يتميز ، عما يتوارد هناك من أمثال ، ويتلاحق من تشابيه ، ويفصل من حدود ، ويقوم من موازين ، وإذا نحن تجاه معرض يموج بمشاهد حية من الشعر المتفلسف أو الفلسفة الشاعرة ، تستأثر بالانتباه ، وتحرك المشاعر ، وتمتع العقل والوجدان معا . وهذا مثلا قوله من قصيدة تعزية لعضد الدولة :

لا بد للانسان من ضجعة   لا تقلب المضجع عن جنبه
ينسى بها ما كان من عجبه   وما أذاق الموت من كربه
نحن بنو الموتى فما بالنا   نعاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا   على زمان هى من كسبه
فهذه الأرواح من جوه   وهذه الأجسام من تربه
لو فكر العاشق فى منتهى   حسن الذى يسبيه لم يسبه
لم ير قرن الشمس فى شرقه   فشكت الأنفس فى غربه
يموت راعى الضأن فى جهله   موتة جالينوس فى طبه
وربما زاد على عمره   وزاد فى الأمن على سربه
وغاية المفرط فى سلمه   كغاية المفرط فى حربه
فلا قضى حاجته طالب   فؤاده يخفق من رعبه

ومثل آخر من قصيدة يعزى فيها سيف الدولة :

خطبة للحمام ليس لها رد   وإن كانت المسماة ثكلا
وإذا لم تجد من الناس كفوا   ذات خدر أرادت الموت بعلا
ولذيذ الحياة أنفس فى النفـــ   ـــس وأشهى من أن يمل وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فما مل   حياة وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب   فاذا وليا عن المرء ولى
أبداً تسترد ما تهب الدنـــ   ـــيا فياليت جودها كان بخلا
فكفت كون فرحة تورث الغم   وخل يغادر الوجد خلا
وهى معشوقة على الغدر لا تحـــ   ـــفظ عهداً ولا تتمم وصلا
كل دمع يسيل منها عليها   وبفك اليدين عنها تخلى
شيم الغانيات فيها فلا أد   رى لذا أنث اسمها الناس أم لا

فمع اتحاد القصيدتين فى الموضوع ، واتحاد المقطعتين فى الغرض — استطاع أبو الطيب أن يعرض علينا هنا وهناك طائفة منوعة من الصور الحية رأينا فيها الحياة فى صميمها ، والانسان فى تشبثه بها ، وغفلته عن أحداثها ، وعن المصير الذى لا بد أن ينتهى إليه فى يومه الموعود وعندى أن هذه الحياة التى ينفخها المتنبى فى شعره ، وتوشك أن تكون خصيصة من خصائص

منه الكبرى هى اهم أسرار خلوده وسيرورة شعره فى الناس . فكثيراً ما يتناول المعنى الشائع أو المعنى الذى سبق إليه ؛ فيصنعه على طريقته ، ويطبعه بطابعه ، ثم يرسله فيتردد على كل لسان ، ويدخل إلى كل مكان .

أما أن الأستاذ الدكتور يضيق بطول القراءة فى شعره ، ولا يأنس إلا بتفاريق منه ، فما أظن أن الناس ولا كثيراً منهم يشاطره هذا الشعور ؛ فالرأى فى شعر المتنبي متعالم مشهور ، والاعجاب به أو بجملته يوشك أن يكون مجمعا عليه . وما أعرف شاعراً من شعراء العربية القدماء والمحدثين نال من سعة الشهرة ، وحفاوة الدرس والنقد مثل ما نال المتنبي . لقد سيطر على الحياة الأدبية حياته ، وظل مسيطراً عليها بعد موته حتى خلفه أبو العلاء . وتوفر الأدباء والنقاد على درسه و نقده ؛ فأكثروا الدرس والنقد . وذهبوا فيه مذاهب شتى ، وكتبوا عنه من البحوث والمؤلفات ما لا يجتمع مثله لغير عظيم من عظماء التاريخ . ولا يزال البحث الأدبي إلى الآن حفيا به ، ماضيا فى استخراج ذخائره ، واكتناه مذاهبه ، وسيظل مذكوراً أبداً ما بقى للعربية وللثقافة والأدب وجود . على أن ضيق القارئ بشعر الشاعر ، أو انبساطه له — لا يعنى حتما أن الشعر معيب أو سليم من العيب ؛ فقد يعنى كذلك أن ثمة توافقاً أو تخالفا بين الشعر ومزاجه ، أو بينه وبين ثقافته ، وفهمه للشعر ، وتصوره له ، ومطالبه منه. فليس إذاً يصح أن يحمل الشعر وحده تبعة ضيق القارىء به ، ولا أن يستأثر وحده كذلك بفضل الانبساط له ، وطول الاقبال عليه . فكلا الاحساسين لا ينبعث من جانب واحد ، ولكنه نتاج المجاوبة أو التنافر بين الشعر وقارئه . وهذا الاحساس الفرد الخاص لا يصلح على كل حال أن يكون مقياساً عاما لتقدير الأشعار والمفاضلة بينها والحكم لها أو عليها مهما يكن له من القيمة والشأن .

ألا رحم الله أبا الطيب المتنبي كفاء ما أسدى إلى العربية والثقافة من صنيع . لقد انتفع الناس بشعره كله نفعا كبيراً ؛ فاتخذوا من جيده ذخيرة لغوية غالية نقية ، وغذاء قيما ممتعاً للعقل والوجدان ، ومادة صالحة للرواية والتمثل والاستشهاد ، واتخذ العلماء من رديئه أمثلة يعرضونها فى دراسة البلاغة ؛ لتأثيل القواعد ، وتوضيح الفوارق ، وإقامة الموازين .

على النجدى ناصف

السهولة فى شعر المتنبي

كان المتنبي يرى فى لحظ الغيب أن أبا العلاء المعرى سينظر إلى أدبه بعد مائة من السنين . ولعله كان يرى فى ذلك اللحظ أيضاً أن الطبيب محمد كامل حسين سوف ينظر إلى شعره بعد ألف من السنين . وكأن رسالات الغيب تداولها بريد الالهام ، فكان أن دافع المعرى عن المتنبي نقد الطبيب حين قال :

عجبي للطبيب يلحد الخا ... لق من بعد درسه التشريحا

ولم يكن طبيبا ملحداً فى الخالق من بعد درسه تشريح العظام ، وإنما كان ملحداً فى شعر المتنبي ، فتجهم له وتجنى عليه ، وساق الدليل من ذوقه الخاص على أن هذا الشعر عقلى محض خال من الخيال ، وليس فى صوره المنوعة ما يهز نفوسنا أو يرفع من إحساسنا شيئاً .

لقد أمعن الطبيب فى شعر أبى الطيب طعناً وتجريحاً ، لا تمحيصاً وتشريحاً ، فقال إنه معقد عقيم ، بين التعسف والتكلف ، فنقب فى أبياته وقصائده ولا تنقب علماء البلاغة الذين سكبوا كل مدادهم على الورق فى سبيل التنقير على التعقيد اللفظى والمعنوى فى شعر الشعراء ، وخاصة فى شعر المتنبي . وكان المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس حتى يومنا هذا ، فعن لطبيبنا الأديب محمد كامل حسين أن يعود إلى شعر أبى الطيب كاشفاً عن عيوبه التى رآها دليلا على صغار وشح فى نفس المتنبي وقصور فى همته وكفايته ، وقد عراه من كل خصلة فى رقة الشعور والسليقة وسمو الطبع والطموح ، وحذر المؤلفين من تقديم المتنبي للشباب على أنه مثل يحتذى ، ودعم رأيه بكلمة للشاعر الفرنسى بول فاليرى . وقد نسى حفظه الله أنه يستشهد على مقاله فى تعقيد أبى الطيب بامام المعقدين فى الشعر الغربى المعاصر .

وإنه ليطول بى العجب ، إذ أرى إلى حظ المتنبي ، فأجد فريقا من نقاده دأبهم الغض من شعره والكشف عن مساوئه ، دون ذكر محاسنه ، حتى ألف من شعر أبى الطيب وفى عصره أناس كتباً فى قدح هذا الشعر وتبيان معراته ومثالبه ، وكان الصاحب بن عباد زعيم تلك العصبة المعادية للفن الموهوب ، حتى قيض الله له أبا حيان فسلته انتقاماً على ما قدم من مساءة إلى شعر أبى الطيب . ولست بمعرض السلق والانتقام ، وإنما أود أن أنفح طبيبنا الناقد محمد كامل حسين برياحين الشاعر أحمد بن الحسين .

إن من شعر أبى الطيب ما يذوب سهولة ورقة ، ويفيض سلاسة ووضوحا مثل قوله :

إذا كان شم الروح أدنى لقربكم ... فلا برحتنى روضة وقبول
وما شرق بالماء إلا تذكراً ... لماء به أهل الحبيب نزول

أم ألوب على قصائده واحدة فواحدة ، فأطرح منها أبياتا فرادى قلائل ، زعم النقاد أنها معقدة متعبة ، حتى إذا خلا هذا الشعر منها بدأ سهلا جميلا .

أراد الطبيب الأديب أن يقذف ابا الطيب من حالق مجده ، فنزع عن شعره كل صورة تستهوى النفس بروعتها ورونقها . وأحسبه لو تبصر فى شعر المتنبي بعين الرضا لأحجم عن ازدرائه ، متهيباً من بيت فيه تهديد ووعيد كان أبو الطيب قاله كذلك فى لحظ الغيب إذ خطر له أن عهداً سيأتى عليه فينظر الناس فيه إلى شعره ، نقاداً ومعجبين ، فكان مما قال فى هذا البيت إن بعضه يفوق أبا الباحث عنه . . . وليقل ابو الطيب ما يشاء من تهديد ووعيد ، فان من هجم على شعره بعده كثير محصوه ، وبينوا غث قصائده من سمينها . ولو أنه كان يملك رجعة إلى حساب ناقديه لكان له شأن أى شأن فى قصائد يمدح بها الدكتور طه حسين لتأليفه كتابيه فيه « مع المتنبي » وقصائد ثانية يتوقاها أستاذنا الدكتور بعد أن نقد قصيدته السينية التى قالها المتنبي فى شبابه فكانت عنده محشراً لتكلف المعانى وسخف المبانى .

وارى ان من مجاملة هذا الشاعر — إن كان الفن يعرف مجاملة — أن يصفح المصريون عن أبى الطيب ، ويتجاوزوا عن هفواته ؛ إذ كان حل بين ظهرانيهم ضيفاً ، ثم ركب الليل جملا ، للخلاص من كافور بعد أن خابت زورته . وكان أبعد تكريماً للمتنبي لو أن طبيب العظام ود لو يأخذ الشاعر إلى كلية الطب فيداوى عظامه التى أحرقتها الحمى حين جاء بلده فراح يتوا عن حمى البرداء :

نزلت بأرض مصر فلا ورائى	تخب بى المطى ولا امامى
ضعيف الجسم ممتنع القيام	شديد السكر من غير المدام
وزائرتى كأن بها حياء	فليس تزور إلا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا	فعافتها وباتت فى عظامى

فاذا أنصف طبيب مصر الذى لم تحل مباضعه ومسابره دون تذوق الأدب والتمرس بنقده ، وجد أن فى شعر المتنبي تعقيداً قليلا وسهولة كثيرة يعيا الاستشهاد بها . وأى شاعر فى قديم الدهر وحديثه خلا شعره من مكامن الزلل ومواضع الضعف والاسفاف .

وداد سكاكينى

تاريخ

يا ضلالَ التاريخ ، إن كان هذا اللغوُ ، تاريخنا ، وهذى المساخرْ
تبَّتِ الكتْبُ ، يا حياة ، وويلٌ ، للسجلاّتِ ، من رُعافِ المحابرْ
ألقمِ النارَ ، هذه الكتْبَ ، وانفضْ ، عندنعليْكَ ، ثرثراتِ الدّفاتر
كلها بَهْرَجٌ ، وكلٌّ صدًى مَيْتٌ ، وكلٌّ زُورٌ ، وكلٌّ ماكر
موَّهَتْ واقعَ الحياةِ ، وشادَتْ ، بالحطامِ اللّماحِ ، عرشَ الظواهر
وأطلَّ البيانُ ، فاختلجَ الميْتُ ، وأسرى ، كالطيبِ ، نتْنُ المقابر

*

أنا يا كتبُ ، كافرٌ بكِ ، بالتاريخ طُرًّا ، وبالأسانيد ساخرْ
كلما أومأتْ سطورُكِ للصبْحِ ، تثاءبتُ للصباحِ الدّاجرِ
وتناولتُ حفنَةً من دُخان ، أصْبُغُ الريحِ ، أوأصُكُّ الحناجر
وترأى الدربُ الغريبُ ، خضيباً ، تائهاً ، فى مَسَاربِ الدهرِ ، حائرْ
بينَ عينيْهِ ، من جراح الليالى ، نافضاتٌ ، ومن غبار المقادر
قلتُ : ياصُبحُ... وانحنيْتُ احتراماً ، للضحايا ، وللجدودالعواثر!

*

تعبَ الدربُ ، يا جراحُ ، فنامى ، فى رفيفٍ من زخرفِ الحُلمِ ، ناضرْ
واغسلى بالسراب عينيْكِ ، يغْفين ، ويذهبن فى السرابِ الطائر

*

أيُّهذا الماضى ، يحشرجُ فى الكُتبِ ، ويفتنُّ بالظلالِ السواحر
حسبُ غشًّا ، إنى عرفتك يا ماضى . أَما أنتَ صورةٌ للحَاضر ؟

كلما تَرْجمَ الزمانُ (عظيماً) مثَّلَ الشَّبْهُ لى (عظيماً) مُعاصِرْ
فتضاغى، وبَرْعمَ الشكُّ، ثمَّ التفَّ، وانحلَّ، واضحَ الرَّيبِ، سافِرْ
وتضاحكتُ للمهازلِ، وانسابت ظلالٌ من الأسى، فى المحاجرْ

*

الكتابُ الحيُّ، الصحيحُ، وجوهُ الناسِ، فاقرأْ هذا الكتابَ الداهِرْ
واسألِ الحاضرَ الذى انتَ فيهِ، تبصرِ الأمس، وانزلقْ فى الضمائر
فالذى يقرأُ الوجوهَ، ولا يعملُ فكراً، فى ما تكنُّ السرائر
كالذى يقرأُ الكتابَ سطوراً، يتساوى أغرارُها، والعباقر

*

أبرَعُ الكتب، أيها النفسُ، ظلٌّ، ذاهلٌ ـ منك ـ حائلُ اللونِ، عابر
أنا، يانفسُ، مؤمنٌ بكِ، مفْتونٌ، فأنتِ الأُولى، وأنتِ الآخر

*

إيه، دنيا الكتاب، قُولِى لِغيرى، ما تشائين، إننى عنكِ سادِرْ
قد خبرْتُ الحياةَ، حتى كأنى، فى ضميرِ الحياةِ، والدَّهرِ، ناظر
(البطولاتُ) و(الوفاء) أساطيرِ عذابٌ، و(الحقُّ)، حلْمٌ شاعِرْ
و(المروءاتُ) و(العُلى) لمحٌ بلهٌ، وأمُّ (الأمجادِ)، يا مجدُ، عاقر
و(الزعاماتُ)؟ .. ـ دربطرفكَ، تبصر، خيرَ أُنموذجٍ، وأجلى (مساطر!)

*

إيه، يانفسُ كَفْكِفى، مَنْ يُراعى، عربدَ الشعرُ، واستهلَّ الثائر
أترى للقطيع، دنياه، ينعَمْ، مُطمئناً، بالعشب، والعشبُ ناضر
إنّ للسوْطِ فى دمِ العبدِ، جرْساً، ناغماً، كالصدَى، وراء المزاهر
كلما هزنى الحنينُ، فأشفقتُ، فأنذرْتُ، قيلَ: أنتَ الكافر!

[حمص، سوريه]

وصفى قرنفلى

مصر ومصير المستعمرات الايطالية

كانت مسألة المستعمرات الإيطالية فى مقدمة المسائل التى ثار بشأنها الجدل واضطرم حولها الخلاف ، فى مؤتمر وزراء خارجية الدول الكبرى ، الذى اجتمع فى شهر سبتمبر الماضى ليضع شروط الصلح مع إيطاليا وباقى الدول الصغرى التى كانت محالفة للمحور خلال الحرب . وكانت إيطاليا وما زالت ترقب مصير مستعمراتها فى لهفة وجزع ، وقد لمحت فيما يبدو بارقة أمل ، من جراء هـذا الخلاف الذى نشب بين الدول الكبرى ، فى استرداد مستعمراتها بصورة ما ، فهى تعمل اليوم بكل ما وسعت لتحقيق هـذه الغاية ، وهى تحاول أن تستغل مابدا من عطف الدول الكبرى عليها وسعيهم إلى التمهيد لقبولها عضواً فى هيئة الأمم المتحدة . وقد بذلت أخيراً فى هذا السبيل مجهوداً جديداً تحاول به أن تفتدى مستعمراتها السابقة ببعض العروض الإقليمية فى أوربا ، فقدمت إلى الحكومة الأمريكية مذكرة تعرض فيها استعدادها للتخلى عن جزر الدودكانيز إلى اليونان مع وضع جزيرة رودس تحت نظام خاص ، ومنح إقليم التيرول الجنوبى استقلالا ذاتيًا ، وجعل تريستا ميناء دوليًا مع بقائها تحت سيادة إيطاليا ، والتخلى ليوجوسلافيا عن ثغرى فيومى وزارا ، ومنح ألبانيا استقلالها التام ، كما عرضت إيطاليا استرضاء لفرنسا تعديل حدودها من ناحية الألب والنزول عن كل مطلب لها فى تونس ، وذلك كله على أن تسترد إيطاليا مستعمراتها السابقة ولا سيما طرابلس وأرتريا .

ونحن نذكر خلاصة الآراء والمطالب التى عرضت على مؤتمر وزراء الخارجية بشأن المستعمرات الإيطالية . فقد اقترح البعض أن تقوم بإدارتها هيئة مشتركة من الدول الكبرى تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة . واقترح البعض الآخر أن يعهد بهذه الإدارة إلى إيطاليا ذاتها على أن تكون أيضاً تحت إشراف الأمم المتحدة . وفاجأت روسيا المؤتمر بطلبها أن يكون لها هذا الإشراف على طرابلس

وأرتريا ، ورفضت بريطانيا العظمى بالطبع كل هذه الاقتراحات . وشعرت مصر بأن لها فى هذه المسألة مصلحة جوهرية فتقدمت إلى المؤتمر بمذكرة تبسط فيها رأيها فيما يتعلق بمسألة لوبية ، وهو أن يستفتى أهلها فى مصيرهم ، فإذا رأت الدول المتحدة أنه لا بد من وضعها تحت الوصاية فمصر أولى بهذه الوصاية نظراً لما يربطها بها من جوار مباشر وأواصر تاريخية وثيقة . وهكذا تضاربت الآراء وتشعبت ، وانفض المؤتمر دون أن يقضى بأمر فى مشروع الصلح مع إيطاليا أو مصير المستعمرات الإيطالية .

وقد أثار تدخل مصر فى مسألة المستعمرات الإيطالية على هذا النحو بعض تعليقات خارجية يمازجها الإنكار والدهشة ، وهى تعليقات تنم عن جهل بالحقائق التاريخية والسياسية والاعتبارات القومية الخطيرة التى أملت على مصر موقفها . والواقع أن مصر بوقوفها عند التدخل فى مسألة لوبية تقصر فى حق نفسها وتنسى الكثير من حقوقها التاريخية ، فى إمبراطورية إيطاليا الاستعمارية .

***

ذلك أن إمبراطورية إيطاليا الاستعمارية لم تقم فى شرقى إفريقية إلا بطريق الاعتداء على الأملاك المصرية. فقد كانت مصوّع التى كانت حجر الزاوية فى بناء هذه الإمبراطورية إلى جانب سواكن مقاطعة مصرية ضمن حدود السودان المصرى منذ عهد محمد على، حصل عليهما محمد على أولاً من السلطان بطريق الإيجار باعتبارهما المنفذ الطبيعى للسودان على البحر الأحمر . ثم رأى إسماعيل أن يعمل على ضمهما إلى أملاك مصر نهائيًّا فاستصدر بذلك فرماناً من السلطان سنة ١٨٦٦ وأصبحتا من ذلك التاريخ من أملاك مصر . وازدهرت مصوع فى ظل الحكم المصرى ، وأنفقت مصر أموالا عظيمة فى تعميرها وتجهيز ثغرها بالمنشآت البحرية العظيمة ، واستمرت تحت الحكم المصرى حتى قامت الثورة المهدية فى السودان ، وأرغمت مصر على إخلاء السودان وملحقاته فى سنة ١٨٨٤

وفى سنة ١٨٧٥ استطاع إسماعيل أن يستصدر فرماناً من السلطان بالنزول لمصر عن زيلع وبربرة ثغرى الصومال الواقعين على البحر الأحمر ، وذلك مقابل زيادة فى الجزية السنوية التى تؤديها مصر للدولة العثمانية مقدارها خمسة عشر ألف

جنيه عثمانى ، وجعل إسماعيل منهما محافظتين مصريتين بقيتا تحت حكم مصر حتى سنة ١٨٨٥ .

وفى تلك الآونة بالذات ، وهى الآونة التى حاقت فيها المحن بمصر ، وأخذت إمبراطوريتها الإفريقية تنهار تباعاً تحت ضغط السياسة الإنجليزية ومطامع الدول الأوربية ، رأت إيطاليا الفرصة سانحة للنزول إلى الميدان الاستعمارى . وكانت إيطاليا يومئذ حديثة عهد بالوحدة والحرية والاستقلال ، ومع ذلك فقد كانت تضطرم بنزعة استعمارية عنيفة . وكان وزيرها الشهير « كرسبى » يحلم بأن ينشئ لإيطاليا الفتاة إمبراطورية استعمارية عظيمة على غرار الدول الكبرى . وبدأت إيطاليا تنفيذ برنامجها الاستعمارى منذ سنة ١٨٨٠ إذ بدأت باحتلال الصومال واستمرت فى احتلاله تباعا . وفى سنة ١٨٨٢ احتلت بقعة فى أرتريا ما بين الحبشة ومصوع وأنشأت بها مستعمرة إيطالية صغيرة . ولما اضطرت مصر بضغط السياسة الإنجليزية عقب الثورة المهدية إلى إخلاء ثغر مصوع وملحقاته بادرت إيطاليا باحتلاله بموافقة انجلترا . وهكذا كان حلولها فى مصوع عمل اغتصاب غير مشروع لم تقره مصر قط . وانتهزت انجلترا نفس الفرصة السانحة فاحتلت من جانبها ثغرى زيلع وبربرة اللذين أرغمت مصر على إخلائهما فى نفس الوقت ، وأنشأت انجلترا منهما ومن الأراضى التابعة لهما مستعمرة الصومال البريطانى .

وأخذت إيطاليا من ذلك الحين تطمح إلى احتلال الحبشة وتجاهر بادعاء حق الحماية عليها . ولكن الحبشة استطاعت بقيادة عاهلها منليك الثانى أن تلقى عليها درسا مؤلما فى موقعة عدوة الشهيرة (سنة ١٨٩٥) التى أصيبت فيها القوات الايطالية بهزيمة ساحقة ، واضطرت إيطاليا أن تعترف بوحدة الحبشة واستقلالها وأن ترجىء مشاريعها الاستعمارية الغادرة إلى حين .

وفى سنة ١٩١١ أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا بحجة اعتدائها على حقوق الرعايا الايطاليين فى طرابلس ، وأعلنت ضم برقة وطرابلس إليها بعدحرب قصيرة الأمد ، واضطرت تركيا أن تصادق على هذا الضم بمقتضى معاهدة أوشى (١٩١٢) لأنها كانت تواجه فى ذلك الحين خطر اعتداء الدول البلقانية عليها . بيد أن إيطاليا لم تستطع أن توطد أقدامها فى برقة وطرابلس إلا بعد ذلك بنحو عشرين عاما ؛ إذ لبث الشعب الليبى يقاومها ببسالة وجلد ويحصر المستعمرين

المغيرين فى المنطقة الساحلية ، ولم يتح لها الاستقرار إلا حينما لجأت الحكومة الفاشستية إلى أساليبها الوحشية العنيفة فى سحق مقاومة العرب واغتصاب أراضيهم وأموالهم وأقواتهم .

وفى سنة ١٩٢٥ استطاعت إيطاليا بمؤازرة السياسة الإنجليزية أن تعدل حدودها فى برقة على حساب مصر وأن تستولى على واحة جغبوب التى لبثت عصوراً قطعة من الأراضى المصرية .

ثم كانت المرحلة الثانية فى توسيع إيطاليا الاستعمارى فى ظل السياسة الفاشستية العنيفة ، فكان اعتداء إيطاليا على الحبشة فى سنة ١٩٣٦ أفظع مثل لسياسة العدوان والغدر التى جرت عليها السياسة الإيطالية الاستعمارية فى جميع أدوارها . وعقب ذلك اعتداء إيطاليا على ألبانيا واحتلالها سنة ١٩٣٩ .

وقد شاء القدر أن تلقى إيطاليا جزاءها العادل فى الحرب العالمية الثانية ، حيث فقدت إمبراطوريتها الاستعمارية وحقت عليها الهزيمة الساحقة ، وأرغمت على أن تستسلم لأعدائها الظافرين دون قيد ولا شرط .

على أن إيطاليا تشعر اليوم أن أعداءها السابقين قد أخذوا يعاملونها بشىء من الرفق لقاء ما قدمته فى المرحلة الأخيرة من الحرب من معاونة للحلفاء ضد ألمانيا حليفتها السابقة ، وهى لذلك تؤمل أن تكون شروط الصلح التى ستفرض عليها مطبوعة بطابع الاعتدال ، وهى تتطلع فوق ذلك إلى استرداد مستعمراتها السابقة ، وتبذل فى هذا السبيل كل ما وسعت من جهود .

* * *

تلك هى المراحل والظروف التى أحاطت بقيام إمبراطورية إيطاليا الاستعمارية ثم انهيارها .

ومن الواضح أن لمصر وسودانها حقوقا تاريخية على القسم الشرقى من هذه الإمبراطورية التى بدأت باغتصاب الأملاك المصرية فى مصوع حسبما قدمنا .

وهناك غير الحقوق التاريخية اعتبارات قومية وسياسية وعسكرية لا يسع مصر أن تغضى عنها .

ذلك أن المستعمرات الإيطالية السابقة تجاور وادى النيل من الشرق ومن الغرب . وقد أثبتت تجارب الحرب العالمية الثانية أن وجود دولة معادية جشعة

مثل إيطاليا فى هذه المناطق خطر على مصر والسودان ، وأن الاستعمار الإيطالى يعتبر وجوده فيها قواعد للوثوب على ما يجاورها من البلاد . وهذا ما أيدته الحوادث حينما غزت إيطاليا الحبشة ، وحينما حاولت غزو السودان بعد ذلك فى الحرب المنقضية .

وأما عن لوبية (برقة وطرابلس) فقد ثبت أن وجود إيطاليا فيها أشد ما يهدد مصر فى استقلالها وكيانها . وفى لوبية لبثت إيطاليا الفاشستية أعواما تدبر خطط الاعتداء على مصر وتحشد القوى الجرارة لتنفيذ مشروعها الغادر . ومن برقة زحفت القوات الإيطالية لغزو مصر فى سبتمبر سنة ١٩٤٠ والقوات الألمانية والايطالية فى صيف سنة ١٩٤٢ ، وشهدت مصر يومئذ مصايرها تهتز فى يد القدر أمام هذا العدوان المدبر . وقد أثبتت تطورات الحرب الحديثة أن الصحراء لم تعد كما كانت فى العصور الغابرة درعا يقى مصر شر العدوان المفاجىء . وإذن فليس فى وسع مصر ، وقد ثبت جليا أن برقة هى خط الدفاع الأول عن سلامتها ، أن تطمئن إلى وجود أية دولة معادية فى تلك المنطقة وخصوصا إيطاليا التى قدمت غير دليل على تجنيها وغدرها المتكرر .

والخلاصة أنه يحق لمصر ، لاعتبارات سياسية وجغرافية وعسكرية واضحة ، أن تشعر بأن مستعمرات إيطاليا السابقة ولا سيما أرتريا ولوبية تقع فيما يمكن أن نسميه منطقة السلامة المصرية . ومن حقها بناء على ذلك أن تبدى اهتمامها بمصير المستعمرات الايطالية ، وألا تقف جامدة إزاء الجهود التى تبذل لتقرير مصيرها .

وقد أحسنت مصر إذ تقدمت بمذكرتها الخاصة بمستقبل لوبية إلى مؤتمر وزراء الخارجية . ونظرية مصر فى شأنها بسيطة واضحة ، فهى تطلب إما استفتاء أهل لوبية فى مصيرهم تطبيقاً لما نص عليه ميثاق الإطلنطى ودستور الأمم المتحدة ، وإما منح الوصاية عليها لمصر إذا رأت هيئة الأمم المتحدة ضرورة وضعها تحت الوصاية ، وذلك لما يربط بين الأمتين من روابط وثيقة فى الدين واللغة والجوار المباشر . ومصر لاتصدر فى ذلك عن أية نزعة أو غاية استعمارية ، وإنما ترمى إلى صون مصالح جيرانها من العرب وصون مصالحها هى أيضاً وتأمين سلامتها التى يهددها عود الاستعمار الايطالى إلى هذه المنطقة .

غير أن مصر يجب ألا تقف عند هذا الحد المتواضع من الاهتمام بمصير المستعمرات الإيطالية . فهناك مسألة أرتريا وثغر مصوع . وهى باعتبارها من

أملاك مصر السابقة ومن ملحقات السودان ، ولكونها تعتبر من الناحية الجغرافية منفذ السودان على البحر الأحمر، يجب أن يسمع فيها صوت مصر أيضاً . وإذا كانت مصر لا تفكر فى المطالبة بضم أراض جديدة إليها فان مقتضيات الإنصاف والعدالة تقضى بأن تعاد منطقة مصوع إلى السودان كما كانت أيام اسماعيل ، وسلامة السودان ووادى النيل تقضى بألا يعود الاستعمار الايطالى إلى تلك المنطقة حتى لا يهدد فيها الأمن والسلامة مرة أخرى .

* * *

وقد يكون من الغريب المدهش أن تطالب روسيا بالوصاية على لوبية وأرتريا وهى بعيدة كل البعد عن هذه المناطق وليست لها فيها أية مصلحة مباشرة ، ثم لا تجد مصر من يصغى إليها من الدول إذا هى تقدمت باقتراحاتها المعقولة فى شأن لوبية مع ما يربطها بها من أواصر الجيرة والمصلحة الوثيقة . والمفروض أن مصير المستعمرات الايطالية سوف ينظر فيه على ضوء النصوص الخاصة بالأقاليم التى توضع تحت الوصاية من دستور هيئة الأمم المتحدة ، وأن هذه المستعمرات تدخل فى حكم النوع الثانى من الأقاليم التى تخضع للوصاية ، وهى الأقاليم التى تقتطع من دول الأعداء نتيجة لهزيمتها . غير أنه يبدو من جهة أخرى أن مصير المستعمرات الايطالية سيكون موضع المساومة بين الدول الكبرى ، وإن كان من المتوقع أن بريطانيا العظمى لايمكن أن تسمح بأى حال أن تخرج الوصاية على لوبية من يدها . وأما أرتريا فان مصيرها يبدو أكثر غموضا . والمفهوم أن للولايات المتحدة اقتراحات خاصة بجعل ثغر مصوع منطقة دولية حرة ، وأنها تؤيد بريطانيا فى رفض كل مطلب روسى خاص بأرتريا .

إن البت فى مصير المستعمرات الايطالية سيكون تجربة عملية لتطبيق ناحية من نواحى ميثاق الأمم المتحدة . وسنرى أتُسْفِر هذه التجربة عن حلول جديدة تتفق مع ما سجلته المواثيق الدولية من مبادئ الانصاف والعدالة . على أن أكبر ما نخشاه هو أن نشهد مأساة الانتداب القديمة فى صورة جديدة ، وألا يعدو الأمر توزيع الغنائم والأسلاب بين الدول الاستعمارية .

محمد عبد الله عنان

تأملات فى مسرحية روسية

هل يشبع الشعب الروسى من التغنى بتلك الحرب التى شنها نابليون على روسيا حين اجتاح أرضها ودخل عاصمتها القديمة ثم ارتد مدحوراً ؟ لا أظن . إن انتصار الروس حتى فى هذه الحرب الأخيرة لن ينسيهم ذلك الانتصار الماضى . ووقائع تلك الحرب ، والدفاع أمام الإمبراطور الفرنسى هو الذى كان يبعث الآمال فى قلب الروس أمام طاغية الألمان حين لم يكد يبقى شىء من أمل . لذلك أخذ الكتاب والشعراء وواضعو المسرحيات والقصص فى بلاد السوفييت يعالجون وقائع تلك الحرب ويرسمون لأبطالها صوراً ، كى يقووا من عزيمة الشعب الروسى فى أيام المحنة ويعلموه معنى الشجاعة والتضحية حتى أمام الخطر الذى لايكاد يدفع .

هذا القسم من الأدب الروسى لم يعرف كثيراً حتى الآن ، ولم ينقل إلى اللغات الأجنبية . فليس من السهل على الأجنبى أن يوازن بين كاتب وكاتب ، وأن يدرس هذا الأدب دراسة فنية . على أنه صادف أن اطلعت أخيراً على قصة مسرحية للكاتب قسطنطين ترنيوف ، وقد توفى أخيراً عن ست وستين سنة . كان ناظر مدرسة ، نشر قصصاً ومقالات عدة قبل الحكم السوفييتى ، ولكنه لم يشتهر ولم يذع صيته فينقطع للتأليف إلا فى ظل نظام السوفييت ؛ إذ مثلت له مسرحية « ليوبوف ياروفايا » التى تجرى حوادثها فى الحرب الأهلية ، فأعجب بها الناس ومنح المؤلف جائزة ستالين ، ومثلت الرواية فى جميع المسارح فى أنحاء روسيا فى السنوات العشرين الأخيرة . وتابع هذا النجاح بعدة روايات وطدت من شهرته وجعلته من أوائل المؤلفين المسرحيين .

أما الرواية التى قرأتها فهى عن النضال بين نابليون وروسيا ، واسمها « قائد عظيم » . وليس القائد المشار إليه هو نابليون وانما هو غريمه « كوتوسوف » قائد الجيوش الروسية فى ذلك الوقت .

ما هى مزية كوتوسوف فى هذه القصة وفى عالم الحقيقة أيضاً ؟ إنه يقابل عدوه العظيم الذى حكم أوربا بأسرها ولم يبق أمامه إلا أن يخضع روسيا لإرادته ، يقابله ولدى أحدهما كل معدات النصر من آلات الهلاك المعروفة فى ذلك الوقت وهو مبتدع النظريات الجديدة فى فن الحرب والآخر أقل عدة واستعداداً . ويقوم هذا النضال العنيف يتقدم فيه الإمبراطور الفرنسى فى الأرض الروسية كعادته فى كل أرض غزاها ، والقائد الروسى ينثنى ويتقهقر دون أن يسلم ، وهو قوى الثقة فى أن الزمن سيساعده ، أو كما يقول فى هذه الرواية : « إن الزمن يعمل من أجلنا إذا عملنا من أجله ، والزمن أعقل من الجميع » .

تبدأ حوادث هذه الرواية فى ساحة بورودينو حيث جرت تلك الموقعة الدموية التى انتصر فيها نابليون واستطاع بعدها أن يتقدم إلى موسكو ، ولكنه انتصار كلفه كثيراً ؛ فقد وقف كوتوسوف فى طريق الفرنسيين وهو عالم أنه سيضطر إلى التقهقر ، ولكنه عزم أن يثبت بقدر ما يستطيع ، وأن ينزل بالعدو أكبر خسارة . فهو يقسم جنوده فى الموقعة بحيث يتحقق له هذا الغرض ، ويجادله قواده بأن هذا التقسيم لا يقوم على أساس من فن الحرب ، ولكنه لا يعبأ بأقوالهم ، ويشرح لبعض المقربين إليه منهم خطته فى إدارة الموقعة . وهكذا تجرى هذه الموقعة الدامية حسب خطة القائد الروسى وما رمى إليه من غرض ، ويتقهقر الجيش الروسى بعدها ، ويترك الميدان للإمبراطور الفرنسى ، ولكنه نصر ربحه الفرنسى بثمن غال ؛ إذ خسر عدداً هائلا من رجاله دون أن يستطيع سحق الجيش الروسى .

كان كوتوسوف بالرغم من نقد القواد المساعدين له ومنهم بعض الانجليز والألمان الذين عرفوا الفن الحربى فى غرب أوربا ، يفضل هذا التقهقر ويرحب به ، إذ أنه كان على علم بشعور الجنود الروس وشعور الشعب نحو الفرنسيين . وقد علق على هذا الشعور آمالا كبيرة ، وأرسل الرسل لتنظيم العصابات التى تعمل خلف الجيوش الفرنسية وأمامهم ، وتبث روح المقاومة فى قلوب الشعب ، وهى موجودة ولا ينقصها غير التنظيم .

لقد فتح الطريق إلى موسكو أمام نابليون بعد موقعة بورودينو ، فدخلها دخول الظافر ، وظن أنه بلغ نهاية متاعبه ، وخيل إليه أنه بالاستيلاء على تلك العاصمة القديمة سيضع حداً لهذا القتال ، فيسرع القائد أو يسرع القيصر

بطلب الصلح . وكيف لا يعتقد ذلك وهو يسكن الآن قصر الكرملين مقر القياصرة الروس وموئلهم ! على أن أحداً لم يتقدم إليه .

ظل نابليون فى موسكو خمسة أسابيع ، رابضاً كالحيوان الذى يلعق جراحه . وقد رأى إذ لم يجئه أحد أن يتقدم هو بعرض الصلح ، إذ أن ما ناله من نصر ظاهر بدخول موسكو يجعل طلبه للصلح مجرد رغبة فى إنهاء القتال لا دليلا على ضعفه ، على أنه لم يتلق جواباً لعرضه .

كان نابليون يظن أنه إذا ما وجد موئلا فى موسكو لجنوده سيدفع عن جيشه على الأقل غائلة الجوع ؛ إذ هو فى مدينة كبيرة تأتى إليها الأطعمة من كل جانب . ولكن عندما دخل تلك المدينة هرب أهلها ولم يبق منهم إلا عدد قليل ، وأقفلت المتاجر وعدل الفلاحون عن الذهاب للمدينة وبيع منتجاتهم فيها ، وحاول الفرنسيون عبثاً أن يجتذبوا هؤلاء الفلاحين ، ولكن الفلاحين يعدلون عن دخول المدينة ولا يجذبهم ميلهم الطبيعى للكسب وهم عالمون بحاجة الجيش المحتل إلى الطعام . ولم تلبث الحالة أن ازدادت سوءاً ، فالحرائق تشب فجأة هنا وهنالك تأتى على الدور وعلى القليل الباقى من أقوات ، وليست هنالك وسائل لإطفاء هذه الحرائق . ووجد نابليون أن مقامه أصبح مستحيلا ، فتقرر لديه أن لا بد من الرحيل .

أعلن نابليون أنه سيترك المدينة إذ هو مضطر للعودة بجيشه إلى سمولنسك حيث يجد مأوى أصلح لمقابلة شتاء روسيا وبرده . وبدأ الجيش فى التراجع . ولم يكن كوتوسوف ينتظر غير هذه الفرصة ، فجنوده تهاجم الجيوش الفرنسية المتراجعة ، وعصابات الأهالى تضايقهم بسائر الوسائل ، والقوزاق لا يذيقونهم الراحة ، فهم ينقضّون عليهم فجأة ، ثم يختفون فى الغابات ، والبرد والجوع يلاحقان هذا الجيش فيسقط الجنود الفرنسيون موتى منهما . وهكذا لم يرتد نابليون بجيشه إلى سمولنسك بل ظل يتقهقر إلى الحدود مدحوراً وذاب هذا الجيش العظيم ولم يعد إلا فلولا . وكانت تلك الحملة بالنسبة لنابليون بداءة النهاية .

لقد أتقن ترنيوف مؤلف هذه القصة المسرحية تصوير الأشخاص لا سيما بطله كوتوسوف ، ولكنه كان يرمى إلى غرض قريب هو الدعاية وإثارة الحماسة بين مواطنيه فى محنتهم الأخيرة . لذلك نراه قد رسم صورة كريهة لقائد

من الألمان مع أنه يحارب فى الجيش الروسى ، ورسم صورة محبوبة لقائد إنجليزى يحارب فى ذلك الجيش ، أما نابليون فصوره قزماً حقيراً إذ هو العدو الأكبر .

*

إن أردت أن تقرأ قصة هذا النضال المخيف ، وإن أردت أن ترى صورة متقنة لكوتوسوف ونابليون فلا تحاول ذلك عند هذا الكاتب ، ولا عند غيره من كتاب السوفييت الكثيرين الذين عالجوا هذا الموضوع ، بل اقصد كاتباً واحداً هو تلستوى . لا أعنى ألكسى تلستوى الكاتب السوفييتى الذى مات قريباً وهو من خيارهم ، وإنما أعنى قريبه الكونت ليو تلستوى الروائى والفيلسوف العبقرى الذى مات فى سنة ١٩١٠ وهو ذلك الكاتب العظيم الذى قال عنه « هاول » الناقد الأمريكى : « لقد صرت أنظر إلى الأشياء بعد معرفتى بتلستوى غير نظرتى إليها من قبل » . وليس هذا القول بعيداً عن الحقيقة ، فمنذا الذى لم يتأثر بكتاب من كتبه ! ومنذا الذى لم تترك فى نفسه أثراً تلك الملحمة النثرية ، التى تدور حوادثها حول نابليون وهى رواية الحرب والسلم ؟ فى تلك الرواية تجد دراسة عقل جبار لحرب قام بها جبابرة . فانظر مثلا إلى نبذ من قوله فى موقعة بورودينو :

« فى موقعة بورودينو لم يطلق نابليون الرصاص على أحد ولم يقتل أحداً ، كل هذا قام به الجنود ، فليس هو الذى قام بقتل الناس إذن . . .

فالجنود الفرنسيون ذهبوا ليقتلوا ويُقتلوا فى معركة بورودينو لا بسبب أوامر نابليون ، بل بمحض إرادتهم . وهذه الجيوش المؤلفة من فرنسيين وإيطاليين وألمان وبولنديين ، وهم جائعون ومهلهلو الثياب من تلك الحملة ، شعروا أمام جيش سد الطريق أمامهم إلى موسكو أن الخمر قد صبت ويجب أن تشرب الكأس ولو تحوّل نابليون من مقاتلة الروس لذهبوا إليه وقاتلوه ، فذلك أمر محتوم .

وليس نابليون هو الذى أدار دفة الموقعة إذ لم ينفذ أمر من أوامره ، وكان فى أثناء الموقعة لا يعرف ما يدور أمامه . . .

يؤكد بعض الكتاب أن برداً أصابه كان سبباً فى أنه لم يحسن رسم خطط

المعركة كما كان يفعل فى المعارك السابقة ، وأن أوامره أثناء الموقعة لم تكن موفقة كما كانت فى الظروف السابقة . وهذا القول لا يقوم على أساس .

فإن الخطط لم تكن أسوأ مما سبقها بل هى خير منها ولكن هذه الخطط والأوامر تبدو سيئة لأن معركة بورودينو هى أولى المعارك التى لم ينتصر نابليون فيها . . .

لقد قام نابليون بواجبه بوصفه ممثلا للسلطة كما كان يقوم به دائماً بل خيراً مما قام به فى معارك أخرى ، فلم يأت بما يضر بسير القتال وكان يميل لأصوب الآراء ، ولم يسبب اضطرابا ، ولم يناقض نفسه ، ولم يستول عليه الذعر ، ولم يفر من ميدان القتال ولكنه فى حكمة كبيرة وفى هدوء المجرب للحروب ، وفى وقار ، قام بدوره وهو مظهر الذى يقود » .

ومن الطبيعى أن يكون تلستوى فخوراً بهذه الموقعة التى رأى فيها الروس بداءة نصرهم على الإمبراطور الفرنسى . ومن الطبيعى أن تكون صورته لكوتوسوف من أحب الصور . ولكن اقرأ بحوثه وتعليلاته بين حوادث قصته تجد فيها تحليلا عميقاً ، جديراً بذهن عبقرى كبير ؛ فهو بعيد عن أن يصور الامبراطور الفرنسى قزماً حقيراً ، وهو يحاول أن يخترق حجب الحقيقة فى تعليل الأشياء : « يقول الكثير من المؤرخين إن الفرنسيين أخطأهم النصر فى معركة بوردوينو لأن نابليون أصابه برد ، ولو أنه لم يصب بهذا البرد ، لكانت أوامره قبل المعركة وأثناءها ، من أظهر جوانب عبقريته ، ولقضى على روسيا ، وتغير وجه الأرض . فالروس الذين يظنون أن روسيا تكونت بإرادة رجل هو بطرس الأكبر ، وأن فرنسا انتقلت من جمهورية إلى إمبراطورية بإرادة رجل واحد هو نابليون ، يرون مثل هذا الفرض القائل بأن روسيا ظلت قوية لأن نابليون أصابه برد شديد فى ٢٤ أغسطس ، هو فرض معقول ومحتوم .

لو أن خوض معركة بوردوينو أو الامتناع عنها كان متوقفا على إرادة نابليون ولو أن هذا الإجراء أو ذاك كان متوقفا على إرادته ، لكان من الواضح أن البرد الذى يؤثر فى مظهر إرادته قد ينقذ روسيا ، وأن الخادم الذى أهمل فى إحضار الحذاء الذى يحول دون تسرب الماء إلى قدميه فى ٢٤ أغسطس كان منقذ روسيا » .

*

تذكرنى هذه المسرحية ، وتذكرنى هذه القصة الخالدة ، بكتاب ثالث كتبه أديب عظيم وشاعر كبير فى بلد آخر كان أهم البلاد المناهضة لنابليون ، أعنى توماس هاردى الأديب الإنجليزى الذى نظم ملحمة فى قالب تمثيلى عن نابليون وحروبه سماها « الطامحين لإنشاء العروش » . وقد اتخذ هو أيضاً الفكرة القائلة إن نابليون كان لعبة للأقدار ، وأبرز هذه الفكرة جلياً فى ذلك الحوار الذى بدأ به منظومته بين القوى المسيطرة على أعمال البشر . وبعد هذه المقدمة المتشائمة الساخرة لا نستطيع أن ننظر إلى الإمبراطور الفرنسى إلا على أنه ألعوبة تتحرك ومصيرها التحطيم بيد طفل عابث .

لقد كانت نظرية القدر كما شرحها تلستوى فى تفاؤل بل فرح لأن الأقدار كانت فى صف بلاده ، ونظرية القدر كما أوضحها هاردى فى تشاؤمه الساخر ، مخرجاً أدبيًّا من خير ما لجأ إليه الأديبان . ولقد كانت فكرة القدر دائماًمن أخصب الآراء فى الأدب ، وفى الفن أيضاً . فالإنسانية الطموح التى لا تقف بنفسها عند حد ، تعرف أن لا حيلة لها أمام القدر ، وعندئذ ترى العطف والرثاء يملأ قلوبنا إذا ماتدخل القدر فى أمور أحد من بنى جنسنا ، ووقف حائلا فى طريقه أو فرض عليه مواقف مزرية . ولقد أخرجت فكرة تسلط القدر آثارا أدبية وفنية رائعة . ويتبادر لذهنى لأول وهلة « أوديب » فى مسرحية سفوكل ، و « لير » فى مسرحية شكسبير ؛ وفى عالم الفن تمثالا الأسير فى « اللوفر» والشفقه فى سان بيترو .

العنصر الأساسى فى كل هذه الآثار الأدبية والفنية واحد . لسنا نرتعد لأن أوديب فقأ عينيه ، ولا لأنه كشف عن هذا الأمر أو ذاك ، وإنما تهتز مشاعرنا إذ نرى أنه طريد قدرٍ عاتٍ مسيطر ، وأن قوته وسلطانه لايغنيان عنه شيئاً . وذلك هو السر فى العطف على لير الذى سقط فى يد الأقدار بعد أن عصفت به الشيخوخة . وهذا الشعور نفسه هو الذى يؤثر فى نفوسنا كلما رأينا أثراً فنيًّا معبراً عن قوة القدر . فهذان الأسيران اللذان أبدعهما ميكلانجلو ، هذان الشابان القويان الضخما الجثة ، ويدل كل عضو من أعضائهما العارية على جمال القوة ، ولكن مقبضى يديهما منثنيان إلى الخلف كأنهما مغلولان ، وتلك الأم

المنحنية على ولدها المسجى على ركبتيها ، أليس خضوع هؤلاء للأقدار هو الذى يؤثر فى نفوسنا !

وهذا الزعيم الفرنسى الذى صوره بعض الكتاب الروس قزماً ، لم يكن فى فترة من فترات حياته أكبر وقعاً فى النفوس وأشد تأثيراً منه وهو فى تلك الجزيرة النائية عاجزاً وبعيداً عن جيوشه ، وعن تلك الأرض التى انتقل بأبنائها من نصر إلى نصر فى ساحات مارنجو وڤجرام وأوسترلتز وفى مئات غيرها من مواقع ، ونشعر بعظمة الأسير فى تلك الجزيرة النائية حين تنقل إلى أرض ذلك الوطن تلك الجثة الضئيلة التى أفناها المرض ، وقد استطاعت هذه الجثة أن تأتى بما لم يستطعه نابليون نفسه فى آخر أيامه ، إذ قلبت من نظام فرنسا القائم عندئذ ، ومكنت لقزم حقيـقى فى آرائه من الجلوس على العرش لمجرد أنه يمتّ إلى صاحب الجثة الفانية بالاسم والقرابة .

على أنه ربما كانت للأقدار دخل غير ما قدره الكتّاب وغير ما قدره الرجل لنفسه : ماذا كان يريد نابليون بغزواته ؟ المجد لفرنسا ، أو بالأحرى المجـد لنفسه ، هكذا يقول بعض المؤرخين .

المجد ! ما هو المجد ؟ إنه كلمة غامضـة . ألم يكن أصلح أن نقول إنه آلة سخرت لنشر تلك الأفكار والآراء التى لا بد لها أن تنتشر ! ولـكن حروب فرنسا ، أو حروب نابليون إن شئت ، عجلت من نشر هذه المبادئ لا بتغيير نظم الحـكم سريعاً ، بل عجلت بنشرها بين الناس بحيث لم تعد هذه النظم صالحة وملائمة . وهـذا التأثير فى الناس كان له فى روسيا أثر آخر : لم يؤثر نابليون وجيوشه فى الشعب الروسى بهذا المعنى ؛ فالشعب الروسى لم ير منذ البداءة فى نابليون صديقاً بل عدواً غازياً وطىء الأرض المقدسة . ولـكن أرض من ؟ أرض الوطن ، لا أرض القيصر . هذا هو الشعور الذى استيقظ فى روسيا ، فهو شعور بالوطن لم يستيقظ بفعل السوط والقصر كما كان يفعل بطرس الأكبر فى إصلاحاته من قبل ، بل هو شعور استيقظ تحت وطأة أقدام الغازى ، وهو الذى أوجد تلك النهضة الـكبيرة فى القرن التاسع عشر ببلاد روسيا فى مختلف المناحى الفكرية من أدبية وفنية . وكان طبيعيًّا ومنطقيًّا أن تنتهى هـذه الحركة إلى النهاية المحتومة ، وهى تغيير نظام الحـكم القيصرى الذى لم يعد ملائماً لهذه اليقظة .

محسن محمود

الجامعة العربية ومقوماتها الجغرافية والتاريخية

أثار تكوين الجامعة العربية اهتماماً كبيراً فى العالم خلال هذا العام الأخير ، وإن اختلفت وجهات النظر وتباينت البواعث إلى هذا الاهتمام . فقد نظرت كثرة أهل المشرق العربى إلى تأليف الجامعة على أنه أمل تحقق ؛ وتطلع غير قليل ممن يتكلمون العربية من أهل المغرب الأفريقى وبعض جهات آسيا العربية ذاتها إلى الانضمام إليها على أنه أمل يرتجى ؛ ووقف العالم الخارجى بين مشجع لهذه الحركة الجديدة ومحبذ لها ، وبين مرتاب فى مراميها وأهدافها ، أو محايد يكاد لا يهتم لشأنها بأكثر من أن ينتظر ليرى ما يكون من أمرها فى المستقبل .

ولسنا نود هنا أن نعالج موضوع الجامعة من حيث إنها أمل تحقق أو رجاء يرتجى ، ولا من حيث إنها أمر يشجع أو حادث ترتقب نتائجه وتخشى مضاعفاته ؛ فذلك كله شأن أهل السياسة . وقد يكون من الخير أن ندع ذلك إلى معالجة الموضوع من ناحيته العلمية الخالصة ، التى ترتكن إلى الأسس والمقومات كما يراها طالب الجغرافيا أو دارس التاريخ . ولعل فى هذا النحو من الدراسة ما يلقى ضوءاً جديداً على هذه الجامعة الناشئة ، يبرزها فى وضعها الصحيح أو فيما يقرب منه ، ويكشف لنا بقدر المستطاع عن قيمتها ومغزى تكوينها بالنسبة لأهلها من جهة ، وبالنسبة للعالم الخارجى من جهة أخرى .

يحتل الشرق العربى موقعاً جغرافيًّا فذًّا فى قلب العالم القديم ، تلتقى عنده قارات ثلاث هى آسيا وأوربا وإفريقية ، التى كان لكل منها دورها الخاص فى تاريخ البشرية ؛ ويمتد من سواحله من الشمال بحر قديم كان مهداً لكثير من مظاهر المدنية القديمة والحديثة هو البحر الأبيض المتوسط ، الذى امتاز بهدوء مياهه وانتظام ريحه وانتشار جزره وكثرة تعاريج ساحله وخلجانه ، حيث قامت المرافئ والموانى منذ أقدم العصور . كذلك يتوغل فى هذا الشرق العربى من الجنوب ذراعان للمحيط الهندى والبحر العربى هما البحر الأحمر وخليج فارس ؛ وقد

ارتقت كلا منهما سفن الملاحة آتية من بحار الهند والشرق الآسيوى البعيد ، أو من شرق إفريقية . ولكن المهم أن الاتصال البحرى لم يكن تامًّا بين بحار الجنوب وبحار الشمال ؛ وإنما قطعت بين تلك البحار أرض الجزيرة العربية الشمالية ؛ فكان لزاماً أن تمر المتاجر بالبر فى تلك المرحلة ؛ ومن هنا أصبح لسكان تلك المنطقة التحكم فى المواصلات العالمية منذ القدم . ولو أن الجزيرة العربية كانت جزيرة بالمعنى الجغرافى المعروف ، فأحاطت بها المياه من كل جانب ، واتصل البحر المتوسط ببحار الجنوب لتغير وجه التاريخ تغيراً تامًّا ، ولما كانت لشبه جزيرة العرب وما يتصل بها من بلاد وأقطار تلك الأهمية الفريدة فى تاريخ المواصلات العالمية ، وفى علاقات الشرق بالغرب والشمال بالجنوب .

والحق أن هذا الشرق العربى فى جنوب غرب آسيا وشمال شرق إفريقية قد لعب بموقعه الجغرافى دوراً خطيراً فى تاريخ الاتصالات العالميـة وتاريخ البشر بوجه عام . وساعده على ذلك أنه كان مهداً لكثير من الحضارات القديمة فى مصر وبلاد الشام وسومر وبابل وآشور وعمان وبلاد اليمن ؛ كما نشأت فيـه عدة إمبراطوريات امتد نفوذها وسلطانها إلى الشرق أو الغرب ، أو إلى الإثنين معاً . وكان فوق ذلك مهبط الديانات السماوية الثلاث ، فيه نشأت ، ومنه انتشرت ؛ ومبعث كثير من ألوان الفكر والثقافة العالمية التى بقيت على الزمن . ولو أننا نظرنا إلى تاريخ الإنسانية المكتوب وحسبنا أنه يمتد خلال خمسة آلاف عام أو نحو ذلك ، لكان من الطريف أن نذكر أن هذا الإقليم الذى نحن بصدده — أو أن أجزاء منـه على أقل تقدير — كانت مركز القوة السياسية الأول ومبعث الثقافة والعلم والمعرفة الإنسانية خلال ما يقارب ثلاثة أرباع تلك الفترة . وإذا قيست أهمية أقاليم وجه الأرض فى تاريخ البشر بطول الحقبة التى كان فيها كل منها مركز السلطان ومبعث المعرفة ، لكانت لهذا الإقليم المكانة الأولى بين الأقاليم . . . ولعل من الخير والإنصاف أن نتمثل هذه الحقيقـة البسيطة أمام أعيننا ، حتى لا يضلنا تغير الظروف والأحوال فى الوقت الحاضر والزمن الذى نعيش فيه ، فلا ندرك أهمية إقليمنا ولا نقدر مكانته العالمية على وجهها التاريخى الصحيح .

ويتألف هذا الشرق العربى فى داخليته من نواة صحراوية أو شبه صحراوية ، تقل فيها الأمطار ولا ينتظم سقوطها ، وتتمثل فيها حياة البادية العربية المعروفة ؛

فلا يستقر بها السكان إلا فى عدد من الواحات أو حول الآبار . وقد اخترقت تلك النواة منذ فجر التاريخ طرق القوافل ، التى سار عليها حداة الإبل ووسطاء التجارة ، فنقلوا السلع والمتاجر ، وحملوا معهم أنواع الفكر والثقافة ؛ فكان ذلك الاحتكاك المثمر فى بعض الواحات ومراكز الاتصال ؛ ولقحت المدنية الخارجية حياة العرب وحضارتهم منذ البداءة . كما استطاع البدو وتجارهم أن ينشروا نتاج بيئتهم الفكرى إلى الخارج ؛ وكان هؤلاء التجار فوق ذلك وسطاء ثقافة ، حملوا رسالة الفكر والمدنية بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، وبين أهل البحار المعتدلة والباردة وأهل البحار الدفيئة والحارة . ولم يكن غريباً بعد كل هذا أن ترتبط التجارة والثقافة فى حياة العرب وسكان الجزيرة الداخلية ذلك الارتباط القوى الذى تمثل فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام .

وعلى جانبى تلك النواة الصحراوية الداخلية التى تمثل قلب الشرق العربى ، والتى لم تكن نواة صماء ، وإنما اخترقتها الطرق فى جميع الاتجاهات ، ونفذت إليها الحياة الخارجية من كل سبيل ، كان هناك نطاقان من الحياة المستقرة فى أراض يزيد فيها المطر زيادة نسبية ، أو يتوافر بها الماء من المجارى والأنهار . ويحف أحد النطاقين بالنواة من جهة الجنوب ، لاسيما الجنوب الغربى والجنوب الشرقى ؛ كما يحف بها النطاق الآخر من جهة الشمال ، ويمتد خارج الجزيرة إلى شمال شرق إفريقية . ففى جنوب صحارى بلاد العرب ونجادها الوسطى كانت هناك اليمن وحضرموت وعُمان ، وهى كلها مراكز لحضارات قديمة قبل الإسلام . فقد نشأت فى اليمن وأطراف حضرموت الحضارات المعينية والسَّبئية والحميرية فى ألف السنة السابقة لميلاد المسيح والخمسمائة السنة اللاحقة به . ونشأت فى عمان حضارة أخرى قديمة لا نعرف عنها الشىء الكثير ؛ ولكن بعض الباحثين يرى أنها ربما كانت أقدم من حضارة اليمن ، وأنها كانت على اتصال بأجزاء مختلفة من الجزيرة ، بل إن السومريين أنفسهم ربما جاءوا فى الأصل من تلك البلاد أو من جوارها قبل أن يستقروا فى جنوب العراق .... وسواء أصح هذا أم لم يصح ، فإن اتصال سكان الجزيرة الجنوبيين فى عُمان وحضرموت واليمن بسكانها الشماليين أمر تاريخى قديم لا جدال فيه ، وقد اشتد ذلك الاتصال بنوع خاص فى العصر الجاهلى وبعد ظهور الإسلام . وكان لهؤلاء الجنوبيين فضل كبير فى نشر الثقافة العربية والدين الإسلامى بالبحر إلى شرق إفريقية وجنوب آسيا وجزر الملايو

وأندونيزيا ؛ فكانوا بذلك رسل الثقافة العربية ودعاتها فيما وراء البحار ؛ وقد عرف الحضارمة منهم بنوع خاص بأنهم « فينيقيو البحار الجنوبية » .

ومع ذلك فإن الجامعة العربية بتكوينها السياسى الحالى لا تشمل من جنوب بلاد العرب غير اليمن ، فى حين أن الظروف الطبيعية والبشرية والتاريخية تقضى كلها باعتبار حضرموت وعُمان منطقتين متممتين لهذا الشرق العربى من ناحية الجنوب . ولابد أن ننتظر اليوم الذى تنضم فيه تلك البلاد إلى الجامعة ، إذا أرادت هذه الأخيرة أن يتسق تكوينها السياسى مع تكوينها الجغرافى ، وأن تستكمل مقوماتها الطبيعية والتاريخية جميعاً .

كل هذا عن النطاق الذى يحف النواة الصحراوية من ناحية الجنوب . فأما النطاق الشمالى ذو الحياة المستقرة والمدنيات الحضرية القديمة فيشمل ما يعرف باسم « الهلال الخصيب » ، كما يمتد إلى شمال شرق إفريقية لتدخل ضمنه مصر ووادى النيل الأوسط فى السودان . فأما الهلال الخصيب فيتألف من منطقة تمتد على شكل هلال مفتوح نحو الجنوب ، تتوغل فيه بادية الشام . ولهذا الهلال شقان هما العراق والشام بمعناها الأوسع . والعراق فى جملته سهل منبسط تحف به الجبال فى الشرق والشمال ، وتجرى فوقه أنهار دجلة والفرات وقارون وروافدها المنحدرة من الجبال . وقد نشأت بالعراق منذ القدم حضارات متتابعة ، كان بعضها فى أسفله مثل سومر ، وبعضها فى وسطه مثل بابل ، وبعضها فى أطرافه الشرقية مثل آشور . ولكن المهم أن العناصر السامية استطاعت فى النهاية أن تكتسح معظم أراضيه اكتساحاً ، وأن تصبغها بالصبغة السامية ؛ حتى إذا ما جاء العرب وتوسعوا من داخلية الجزيرة قبل الاسلام وبعده ، لم يلقوا عناء كبيراً فى أن ينشروا فيه لغتهم ودينهم وثقافتهم ؛ وفى أن يتخذوا منه قاعدة ينشرون منها معالم تلك الثقافة نحو الشرق إلى إيران وتركستان . واستطاع العراق فى العهد العربى بمختلف أدواره أن يكوّن وحدة ثقافية ؛ حتى إذا ماجاء العهد الحديث كانت هذه الوحدة الثقافية عاملا هامًّا فى وحدته السياسية رغم وجود بعض العناصر الكردية وغير العربية فى أقصى الشمال .

أما الشق الشامى من الهلال الخصيب فأكثر تعقيداً من الشق العراقى ؛ لأن الطبيعة لم تجعل معه سهلا مستوياً تجرى فوقه الأنهار تربط بين مختلف أجزائه ، وإنما جعلت منه إقليما معقد السطح والتضاريس . ففى شماله توجد سلاسل لبنان

الشرقية والغربية ، التى تفصل بين سوريا وسواحل لبنان . والأولى ذات حيضان وسهول داخلية ، تتجه نحو البادية ، وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً . أما لبنان فإن سفوح جباله الغربية وسهله الساحلى الضيق تتجه نحو البحر المتوسط ، وترتبط حياتها به ارتباطاً يرجع إلى أيام الفينيقيين . وقد تأثر ساحل لبنان أكثر مما تأثر غيره من أقاليم الشرق العربى بحياة الملاحين فى شرق البحر المتوسط ، وبثقافة الإغريق والروم الشرقيين ؛ وظهرت آثار ذلك فى العهد المسيحى ، وفى الكنائس الطائفية التى لاتزال قائمة حتى الآن .

وإلى الجنوب من سوريا ولبنان هناك شرق الأردن وفلسطين ؛ وهما فى الحقيقة يمثلان منطقة واحدة ، وإن كان يقسمهما منخفض الأردن والبحر الميت إلى شطرين ، داخلى هو شرق الأردن ، وساحلى هو فلسطين . وقد يكون من المهم هنا أن نلحظ الفرق الكبير فى التكوين الطبيعى بين ساحل فلسطين من جهة وساحل لبنان شمال حيفا من جهة ثانية ؛ فالأول رملى منخفض تكثر به الرواسب ، ويكاد يخلو من المرافئ الطبيعية الصالحة ، وإنما ترجع أهميته إلى الطرق البرية التى كانت تخترقه أو تسير على طوله وتربط ما بين مصر وشبه جزيرة سينا من ناحية ، وداخلية الجزيرة العربية الشمالية وبقية أرض الهلال الخصيب من ناحية أخرى . أما ساحل لبنان من حيفا شمالا فصخرى فى أكثر أجزائه ، ويوجد به عدد من المرافىء الطبيعية التى استخدمت فى العصور القديمة مثل صور وصيدا ، والتى لاتزال تستعمل فى الوقت الحاضر مثل بيروت . وقدمثل هذا الساحل على الدوام المدخل البحرى الأساسى لتجارة الشق الشامى من الهلال الخصيب ؛ واستطاع أن يحتفظ بمكانته هذه على مر العصور . فكما تحكم الفينيقيون فى تجارة مملكة سليمان البرية التى كانت تشمل أراضى فلسطين والشام الداخلية ، كذلك استمرت موانى لبنان ومرافئه الساحلية متحكمة فى تجارة الشرق الأدنى فى العصور الوسيطة ، ولا تزال فى الوقت الحاضر تلمس اعتماد سوريا الداخلية على بيروت (والاسكندرونة قبل أن تضم إلى تركيا) فى تجارتها البحرية . ولذلك كله فقد يكون من الخير فى معرض الحديث عن التكوين السياسى والقومى لكل من سوريا ولبنان أن نجمع بين حقيقتين لاسبيل إلى الأخذ بإحداهما دون الأخرى : فأما الحقيقة الأولى فإن مقتضيات البيئة الطبيعية والتوجيه الإقليمى والتاريخ الثقافى تقضى بأن يكون لكل منهما كيانها القومى والسياسى المستقل .

وأما الحقيقة الثانية فإن مقومات الحيـاة الاقتصادية السليمة والمصالح المادية المشتركة تقضى بأن يكون بينهما أوثق الاتصال ، وبأن يكونا بمثابة الشقيقين التوأمين فى أسرة الأمم العربية .

فإذا ما نحن خرجنا من الجزيرة العربية بمعناها الجغرافى الضيق ، وانتقلنا إلى شمال شرق إفريقية وجدنا أرض وادى النيل ، التى ارتبطت فى تاريخها الطويل بالشرق الآسيوى المجاور ، وكانت فوق ذلك واسطة الاتصال بينه وبين الخارج فى بعض أدوار ذلك التاريخ . والحق أن الجغرافيين المحدثين لا يفرقون الآن بين شمال شرق إفريقية وجنوب غرب آسيا ؛ فهى كلها تؤلف إقليما جغرافيًّا واحداً ، رغم وجود البحر الأحمر بينها . وقد وثّقت الطبيعة الصلة بين مصر وغرب آسيا ؛ فأعدت طريقاً طبيعيًّا سهلاً يصل بينهما ، ويسير على طول الساحل الشمالى لشبه جزيرة سينا ، حيث تسقط الأمطار فى فصل الشتاء فتتشربها كثبان الرمال المنتشرة على الساحل ، وتختزنها لتغذى بها الميـاه الجوفية طوال العام ؛ وبذلك كثرت الآبار وتوافرت المياه على طول الطريق . وقد كان طريق سينا الشمالى هذا هو طريق الغزوات السامية العديدة التى جاءت من الشرق إلى مصر فى أيام قدماء المصريين ، كالهكسوس وغيرهم ؛ ثم جاءت عنه غزوة العرب وهجرات قبائلهم خلال العهد الإسلامى ؛ وكذلك خرجت على طول هذا الطريق غزوات المصريين وحملاتهم إلى الشرق القريب فى أعصر التاريخ المختلفة . ولا تزال لهذا الطريق أهميته العسكرية الـكبرى ؛ فهو مفتاح مصر من ناحيـة الشرق ، وفيه تسير الآن سكة حديد فلسطين ، وجانب من طريق السيارات البرى الجديد . وكلما سهل الاتصال وتيسر من هذا الطريق استوثقت العلاقة بين مصر وجاراتها العربية ، وبرزت قيمة اهتمام مصر بشؤون تلك الجارات . ولا بد هنا من ان نشير بصفة خاصة إلى موقع فلسطين عنـد طرف مدخل مصر الشرقى . ذلك أن فلسطين بوصفها الحالى هى الجارة الوحيدة المباشرة لمصر من بلدان الشرق العربى . فحدودنا البرية من الشرق لا تلاصق بلداً غيرها ، ولا يمكن أن يتم الاتصال البرى بيننا وبين بقية بلدان هذا الشرق إلا عن طريق أرض فلسـطين . وإذن فإن فلسطين إن هى بقيت خارج نطاق الجامعة العربية الجديدة تسـتطيع أن تكون حاجزاً حقيقيا بين مصر وبقية بلدان الجامعة ؛ فيعوق مثـلا تنفيذ أية اتفاقية جمركية لتيسـير تبادل المنتجات والمتاجر ونقلها بين أقطار الجامعة ، أو تعوق

مرور أنابيب البترول الحجازية إلى إحدى موانى سواحل مصر للتكرير والتصدير ، أو تعرقل أية اتفاقية لتيسير مرور المسافرين بالبر بين مصر والشرق ، أوغير ذلك من الحالات التى قد تبدو افتراضية محضة فى الوقت الحاضر ، ولكنها قد تصبح واقعية ومؤلمة إذا لم تنل فلسطين ما يريده لها العرب من كيان سياسى عربى مستقل .

وفوق ذلك فإن لفلسطين قيمة أخرى بالنسبة للعلاقات بين مصر وجاراتها العربية ؛ فهى تعتبر قاعدة عسكرية من الدرجة الأولى ؛ وتستطيع أية سلطة تسيطر عليها أن تهدد كيان الشرق العربى كله . وإذا لم يضمن العرب أعضاء الجامعة الجديدة أن تبقى فلسطين للعرب ، وإذا لم يضمنوا فوق ذلك أن تبقى أرضها فى أيد صديقة حتى يتم إنشاء الدولة الفلسطينية العربية ، فإنهم لا يضمنون شيئاً بالنسبة لكيان الجامعة كلها من الناحية العسكرية . ولعل مصر تتأثر من هذه الناحية أكثر من غيرها ؛ فهى كما ذكرنا تقع وحدها فى جانب من فلسطين ، ويقع باقى أعضاء الجامعة فى الجانب الآخر ؛ كما أن فلسطين وشبه جزيرة سينا كانا على الدوام مصدر خطر بالنسبة لمصر ، وطريق غزوات تاريخية كثيرة أتتنا من الشرق أيام قدماء المصريين والفرس والإغريق والعرب والأتراك ؛ وحتى الإسكندر الأكبر نفسه الذى بدأ حملاته من بلاد مقدونية واليونان ، أتى مصر عن طريق فلسطين ؛ فقد كان غزو مصر من هذه الجهة سهلاً ميسوراً ، بل كان فيما يبدو أسهل من غزوها بطريق البحر .

ومع ذلك فقد يفيد أن نضيف هنا أن مصدر الخطر بالنسبة لمصر يتعدى فلسطين إلى ما وراءها من جهة الشمال . ومن الحقائق العسكرية القديمة أن من يريد أن يدافع عن مصر إنما يجب أن يقف فوق تلال سوريا وجبال لبنان . وقد كان «تحتمس» الثالث أول من أدرك هذه الحقيقة من العسكريين القدماء ؛ فرأيناه فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد يقوم بحملاته السبع عشرة المشهورة إلى فلسطين أولا ، ثم إلى لبنان وسوريا ثانياً ، ليؤمن حدود مصر من هذه الناحية . ولعل هذه الحقيقة التى أدركها تحتمس منذ خمسة وثلاثين قرناً قد عادت فبرزت فى أيام المماليك عندما دافع سلاطين مصر عنها فى عين جالوت ، ثم فى حمص وغيرها وردّوا عنها خطر الغزو المغولى ؛ ثم برزت مرة أخرى فى ثوب جديد فى أيامنا نحن عندما وجد الحلفاء أنفسهم مضطرين إلى مهاجمة سوريا ولبنان

خشية أن يوطد المحور أقدامه فيها فيكون مصدر خطر حقيقى بالنسبة لمصر والشرق العربى جميعاً .

على أن الأمر فيما يتصل بمصر لا يقف عند أنها كانت وثيقة الصلة ببقية الشرق العربى ؛ ولا عند أنها تكون جزءاً أساسيًا من هذا الإقليم الذى تشغله بلدان الجامعة ؛ وإنما يجب فى الوقت نفسه أن نلحظ أن مقومات الحياة فى مصر ذاتها ترتبط بناحية ثانية غير الشرق الآسيوى ، هى وادى النيل من ناحية الجنوب . فقد قضت الطبيعة أن تمتد حدود مصر « الحيوية » فى هذه الجهة الأخيرة إلى أبعد كثيراً من حدودها « السياسية » . ولذلك كان على مصر أن تستمسك بصلاتها ومصالحها فى الجنوب استمساكها بصلاتها ومصالحها فى الشرق . بل لذلك كان اتصال مصر بالجنوب قديماً قدم اتصالها بالشرق ؛ ولما كان ذلك الاتصال بالشرق قائماً على تبادل المنفعة والتجارة واحتكاك الفكر وانتشار الثقافة ، كان الاتصال بين مصر والجنوب قائماً كذلك على هذه الأشياء جميعاً وعلى شىء آخر فرضته الطبيعة فرضاً ، فأحسه المصريون إحساساً واستجابوا له بفطرتهم ، فاتجهوا نحو الجنوب لأنه مصدر الحياة ، ونشروا حضارتهم فرعونية ومسيحية وإسلامية فى ربوع السودان ، بل تخطوه إلى بلاد أخرى فى شرق إفريقية ؛ وترتب على ذلك كله أن توطدت الصلات البشرية وتمكنت الروابط التاريخية ، فأضفت على الوحدة الجغرافية قوة جديدة ، لا بد أن تنتهى مهما طال الزمن ، ومهما كثرت العراقيل المصطنعة ، إلى أن يتصل ما قضت الطبيعة — وما أمر الله — به أن يوصل بين مصر والسودان . . . وإلى أن يتم ذلك ينبغى أن نواجه الحقيقة المزدوجة ، والتى لا يمكن تجاهلها ، وهى أن مصر لن تجد أمنها كاملا إن هى اكتفت بتحقيق صلاتها المكينة مع الشرق العربى الآسيوى دون أن تستكمل وحدتها فى الجنوب ؛ وأن هذا الشرق العربى ذاته لن يجد قوته كاملة ما لم تكن مصر والسودان معاً عضواً أساسيًا عاملا فى جامعة أممه الجديدة .

والآن وقد فرغنا من استعراض الروابط الجغرافية والتاريخية بين مختلف أقطار الجامعة ، نستطيع أن نعرض فى إيجاز لتاريخ الحركة التى انتهت بتأليف الجامعة ؛ فقد ينير ذلك التاريخ سبيلنا فى تحقيق مغزى هذه الحركة وتحديد أهدافها ومراميها ، واستشفاف بعض ما قد ينتهى إليه أمرها فى المستقبل . وهذه

الحركة كغيرها إنما جاءت وليدة تطور بطىء فى الفكر والتنظيم داخل نطاق العالم العربى فى الشرق القريب ، وتطور بطىء أيضاً (وإن لم يخل من مفاجآت وتحولات سريعة أحياناً) فى علاقة سكان ذلك الشرق والعالم الإسلامى عامة بالعالم الخارجى . وقد نذكر أن انتشار الإسلام اقترن منذ البداءة بحركات سياسية كبرى صحبت إنشاء الإمبراطوريات والممالك العربية المتتابعة ؛ ورغم تقلب السيادة وانتقالها فى النهاية من أيدى العرب إلى أيدى الأتراك ، ودخول الشرق أثر ذلك فى عش مظلم ساده الانحلال والركود ، فقد احتفظ العالم الاسلامى فى جملته باستقلاله السياسى خلال قرون ثلاثة أو تزيد ؛ حتى إذا ما انتهى القرن الثامن عشر وطلع القرن التاسع عشر ، وجاء نابليون بحملته المشهورة على مصر والشرق العربى كان ذلك فاتحة عهد جديد ؛ إذ كانت هذه أول ضربة موجهة إلى قلب العالم الاسلامى ، لفتت النظر إلى أهميته الكامنة ، وقيمته بالنسبة للتسابق الأوربى نحو السيطرة العالمية . ومع أن حملة نابليون هذه أخفقت فى غرضها المباشر من احتلال مصر وقطع الطريق على الإنجليز إلى إمبراطوريتهم فى الهند ، فإنها كانت نقطة تحول فى التاريخ عامة ، وفى تاريخ اتصال الشرق بالغرب والعالم الإسلامى بأوربا بصفة خاصة . وربما كانت الحملة الفرنسية من هذه الناحية من أبعد حروب نابليون أثراً وأبقاها ذكراً على الزمن .

وقد تتابع الضغط الأوربى والتوسع السياسى على حساب العالم الإسلامى خلال القرن التاسع عشر . ولم يكن غريباً أن يؤدى اطّراد الضغط والتوغل فى بلاد المسلمين وممتلكاتهم إلى رد فعل سياسى ، فنشأت فى الربع الأخير من القرن الماضى حركة خطيرة كان على رأسها جمال الدين الأفغانى ، وهى حركة « الوحدة الإسلامية » ، التى رمت إلى تحرير البلاد الإسلامية وإعزاز جانبها دفعاً للخطر الأجنبى . وقد فسرت هذه الحركة إذا ذاك تفسيرات مختلفة ؛ فقال بعضهم إنها إحياء لحركة التوسع الإسلامى القديمة ، وإنها تنطوى على خطر كبير وشر مستطير بالنسبة لأوربا والمسيحية عامة . وقال بعضهم إنها وإن لم تستطع أن تعيد عهد السيف وأن تعلن الجهاد المسلح فإنها ستبعث روح التعصب وتغذى عناصر الحقد والكراهية التى لابدّ أن تجر الشرق والغرب فى النهاية إلى التطاحن والخراب . وقالت فئة قليلة إن هذه الحركة لا تعدو أن تكون نفخاً فى الهواء يثير الزوابع المحلية ولكنه لن يستطيع أن يبعث فى الشرق روح الجهاد كما بعثها

ظهور الإسلام لأول مرة . والحقيقة أنها كانت حركة طبيعية ، ونتيجة لأزمة لما سبق به الغرب من توغل واستفزاز ؛ ولم يكن الشرق ولا الدين مسئولين عنها بأكثر من الغرب ومن السياسة . وليس أدل على أن الدافع السياسى الكامن فى هذه الحركة كان أقوى من الدافع الدينى الظاهر ، من أنها ما لبثت — رغم تسميتها « بالوحدة الإسلامية » — أن تحورت وانقلبت بالتدريج فى أوائل القرن الحالى إلى حركتين عنصريتين فى داخل العالم الإسلامى ، وهما حركة الوحدة الطورانية أو التركية ، وحركة الوحدة العربية . وكانت هذه الأخيرة موجهة ضد العثمانيين المسلمين بقدر ما هى موجهة ضد الغرب المسيحى .

والذى يعنينا فى شأن حركة الوحدة العربية أنها كانت تمثل المرحلة الثانية فى الوعى السياسى الحديث للشرق العربى . ولم يكن هذا الشرق فى أوائل القرن الحالى قد أصابه كثير من ضغط أوربا المسيحية ، فيما عدا مصر التى استولى عليها الإنجليز ، بل كان ذلك الشرق فى جملته لا يزال تحت حكم العثمانيين بالفعل أو بالاسم . لذلك لم يكن هناك سبيل إلى أن تتخذ الحركة العربية مظهراً دينيًّا ؛ وإنما هى قد ظهرت على حقيقتها منذ البداءة . ولكنها كانت بذلك أدعى إلى القوة ، وأدنى إلى الحقائق العملية من الحركة الإسلامية الأولى ؛ فضلاً عن أن العالم العربى كان أصغر كثيراً من العالم الإسلامى ؛ وكانت أجزاؤه أكثر تقارباً وتماسكاً ، وشؤونه الاقتصادية أكثر تداخلاً وتشابكاً ، وثقافته أكثر وحدة واتساقاً من العالم الإسلامى الكبير الذى يشمل الهندى والفارسى والتركى والعربى وغيرهم من ذوى الأقطار المتباعدة ، والمصالح المتفرقة ، والثقافات المختلفة ، والاتجاهات المتباينة التى يصعب الجمع بينها فى كيان سياسى واحد .

لذلك كله نشأت حركة الوحدة العربية وهى أصلح للبقاء والنمو من الحركة الإسلامية . وقد أفادت الحركة الجديدة من الحرب العالمية الأولى عندما انحاز العرب إلى جانب الحلفاء ضد تركيا التى انضمت إلى المعسكر الألمانى النمسوى . ومع ذلك فإن آمال العرب الواسعة وما حصلوا عليه من وعود وعهود كثيرة لم يتحقق منها غير جانب ضئيل محدود . ذلك أن الحرب التى أبرزت قيمة الموقع الجغرافى والعسكرى للشرق الآسيوى القريب أطمعت فيه الدول المستعمرة وذات المصالح فى الشرق عامة . وقد جاهد العرب وناضلوا فى إزاحة سلطان الأتراك ، ولكنهم لم يرقوا إلى مكان السيادة إلا رقيًّا جزئيًّا محدوداً ، وفى

المناطق الداخلية البعيدة من الجزيرة كنجد أو المنزوية وغير المعروفة كاليمن الأعلى . أما السواحل العربية والمناطق الهامة فى المرور والمواصلات أو الغنية بموارد الزيت وغيرها فقد امتدت إليها الأيدى عارية سافرة أو مُقفّزة مستورة ؛ فكان فتح واحتلال ، وكان نفوذ وانتداب ؛ وخرجت بريطانيا وفرنسا بنصيب الأسد ونصيب النمر ؛ بعد أن حاولت أمريكا أن تكون لها يد ، ثم كفّت عن ذلك وتقاعدت بعيدة عن الشرق ومشكلات الشرق .

وفى هذه الأثناء كان الوعى السياسى فى الشرق العربى قد دخل فى المرحلة الثالثة من مراحل تطوره الحديث ؛ إذ أخذ الشعور القومى المحلى يتسرب إلى هذا الشرق بمختلف أصقاعه وبيئاته خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ؛ وأخذت فكرة « الأمة » تتبلور فى أوطان صغيرة وأقاليم محدودة . ولم يعد أساس فكرة « القومية » و « الأمة » الاشتراك فى الدين ، كما كانت الحال فى المرحلة الأولى أيام حركة الوحدة الإسلامية ، ولا الاشتراك فى اللغة والثقافة ، كما كانت الحال فى المرحلة الثانية إبان الأيام الأولى لحركة الوحدة العربية ؛ وإنما أصبح ذلك الأساس هو « الوطن » و « القومية الوطنية » التى تتصل ببيئة معينة وإقليم معين ، تعيش داخل حدوده جماعة بشرية تتشابك بين أفرادها المصالح ومقومات الحياة مادية ومعنوية ، ويكون من الميسور توجيه جهودهم والإعراب عن آرائهم بتلك الوسائل التى اصطنعتها وأخذت بها الأمم والقوميات الحديثة فى أوربا خلال الجيلين السابقين . وكانت شعوب الشرق العربى قد أخذت تدرك أن الظروف والأوضاع السياسية قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه من قبل . فمشروع الوحدة العربية لا يسهل تنفيذه فى صورته النظرية ؛ كما أن الوحدة الثقافية العامة لا تكفى أساساً لقيام الوحدة السياسية والقومية ؛ خصوصاً إذا تشعبت المصالح المادية والنزعات القومية ، وإذا اختلفت مراحل النضج السياسى وتباينت نظم الحكم فى مختلف الأقطار .

ولكن الحرب المنتهية مالبثت أن جاءت بعنصر جديد ؛ أو هى بعبارة أدق قد عجلت ظهور هذا العنصر الجديد . فبعد أن كان الشرق الأدنى فى الحرب العالمية الأولى ميداناً ثانويًّا ، إذ به يصبح فى الحرب الثانية ميداناً أساسيًّا من ميادين القتال ، تجمعت فيه القوات المحاربة بأعدادها الضخمة من أغلب أقطار العالم ، ودارت فيه ملاحم كبرى كان بعضها فاصلا وحاسماً فى تقرير مصير الحرب

كلها . فبرزت قيمة هذا الإقليم الحيوية ، وزاد اهتمام الدول الكبرى بشؤونه العامة ، بكثير جداً من شؤونه التفصيلية الخاصة ؛ ونبه ذلك أهل الإقليم إلى أن بلدانهم وأقطارهم تحتل موقعاً جغرافيًّا بالغ الخطورة من ناحية المواصلات العالمية ؛ وما تسابقت الأمم المتحاربة الكبرى فى زحفها نحو هذا الموقع إلا لقيمته الفاصلة فى كل مايتصل بالسيطرة العالمية فى الحرب والسلم على السواء . وما دام الأمر كذلك فإن مصاير الشرق الأدنى وتاريخه القابل ستبقى مرتبطة أشد الارتباط وأوثقه بالشؤون العالمية والمصالح الدولية . ولن يفيد فى مثل هذا الموقف الدولى أن يكون لكل وطن صغير فى الشرق العربى استقلاله القومى ؛ فقد لايلبث مثل ذلك الاستقلال أن يذهب مع الريح ، التى قد تهب من الغرب أو من الشمال ، أو هى قد تعصف عاتية كالإعصار من جميع الجهات ، فتكون الطامة الكبرى ، وتأتى الريح الصرصر على كل شىء ، وتطوح بأهل المشرق إلى أسفل الدرج من جديد

فى هذه الظروف بدأ القائمون على شؤون أمم الشرق العربى يدركون ضرورة إيجاد نوع من التعاون بينها جميعاً ؛ لعل ذلك يشد من أزرها ، ويقطع الطريق على بعض ذلك التنافس والتسابق بين الدول الكبرى على استغلال تفرق الكلمة بين أمم الشرق . وقد ساعد على هذا الاتجاه الجديد نحو التعاون ، أن بريطانيا التى تجمع لها من الخبرة والتجربة فى شؤون هذا الشرق ومن المصالح الحيوية فيه أكثر مما تجمع لغيرها من الأمم القوية ، قد أحست حاجتها إلى أن تعدل سياستها التقليدية ، وإلى أن تساير الاتجاهات الجديدة قبل أن يسبقها الزمن ، فأعربت عن عطفها غير المباشر على ما قد يبذله قادة الشرق العربى أنفسهم من مسعى فى سبيل التعاون المنشود . . . وهكذا تهيأت الظروف وتسابقت الحوادث حتى تم تأليف جامعة الأمم العربية التى نحن بصددها الآن .

على أن من المهم أن نلحظ أن هذه « الجامعة » العربية بتشكيلها الحالى تعتبر خروجاً واضحاً على مبدأ « الوحدة » العربية كما كان مفهوماً من قبل . وقد تقدمت شعوب الشرق العربى حثيثاً نحو الاستقلال القومى ؛ فنظرت — أو نظر فريق منها على الأقل — إلى « الوحدة » السياسية على أنها رجوع إلى وراء ، وعلى أنها أمر لا سبيل إلى تحقيقه بالمعنى الضيق للوحدة ، بعد أن اتخذت هذه الدول الناشئة سبيلها إلى تحقيق الاستقلال القومى فى كثير من

الأشياء ، بل بعد أن أخذ كل منها بنظامه الخاص فى الحكم والإدارة إلى حد لم يستطع معه قادة الشرق أن يفكروا حتى فى إقامة « اتحاد » من الأمم أو القوميات العربية على نحو ما نجد فى الولايات المتحدة الأمريكية ، أو اتحاد الجمهوريات السوفيتية . وعلى ذلك لم يكن بد من الاكتفاء « بجامعة » تحتفظ فيها كل دولة بكيانها المستقل ، ولا ترتبط ببقية الأعضاء إلا بالمشاورة الحرة وفى حدود ما اتفق عليه الأعضاء مختارين ، تحقيقاً للمصالح المشتركة ، وضماناً لما عسى أن يصيب الأعضاء منفردين أو مجتمعين من خير لابد أن يترتب على اجتماع كلمتهم فى عالم لا تكاد الصيحات الفردية الضعيفة تجد فيه صدى ولا ترديداً .

ومع ذلك فقد لا نبعد كثيراً عن الحق إذا نحن قررنا أن مشروع الجامعة كما أخذ به كان خير ما يمكن التوفيق به بين فكرة الوحدة من جهة ، وبين ما استجد على الشرق العربى وأقاليمه من وعى سياسى قومى وما اقتضته الظروف الدولية ونظام العالم الجديد من جهة أخرى . وقد لا يبعد أن تثبت الأيام أن هذه الخطوة التى خطاها الشرق العربى كانت خطوة سديدة خطتها شعوبه فى الاتجاه الصحيح ، وأن السياسة التى أملتها لم تكن سياسة عاطفية متطرفة بقدر ما كانت سياسة عملية تقوم على الاعتدال وإدراك الحقائق . بل قد لا يبعد أن تكون الجامعة فى قابل الأيام أداة صالحة لتحقيق التعاون الدولى فى هذا الإقليم الذى يعتبر محكا خطراً للعلاقات الدولية والعالمية ، وأن تكون فوق ذلك وسيلة صالحة لتوحيد الجهود واستكمال ما نقص من استقلال كثرة أعضائها الحاليين ، وتمهيد السبيل لاستقلال بقية الشعوب العربية التى لا تزال خارج الجامعة ، ولكنها تتوق إلى الانضمام إليها فى يوم من الأيام .

***

وبعد فإن الشرق العربى كان منذ أقدم العصور مدرسة للإنسانية فى كثير من الأشياء . ففيه نشأت غير واحدة من المدنيات القديمة ؛ وفيه ظهرت الأديان السماوية ، ومنه انتشرت ذات اليمين وذات الشمال ؛ وفيه احتك الشرق بالغرب ، فتعارف الاثنان ، وتعلم كل منهما من الآخر بعض ما لم يكن يعلم . وقد مر الشرق العربى فى تاريخه الطويل بكثير من التجاريب والأحداث ؛ ولا

شك أن تاريخه القابل سيحفل بمثل ماحفل به ماضيه . وربما كان مرجع الاضطراب السياسى وعدم الاستقرار فى هذا الإقليم إلى أن بلدانه ذات تقاليد قديمة راسخة فى الحياة والحكم والثقافة ؛ وكل جديد فيها لابد أن يتسق مع القديم الذى لم يستطع الزمن أن ينسخه . ولذلك كان طبيعيًا ألا تستقر النظم الجديدة فى سهولة ويسر . ومع ذلك فإن الشرق العربى يمر الآن بتجربة يكاد يسبق بها الزمن ؛ فهو يحاول أن يوفق فى نظامه السياسى بين القومية الضيقة التى ترتبط بوطن معين ، وأمانى قومية لا تخلو من أنانية ، وبين التعاون الدولى فى جماعة من الأمم المتقاربة وذات المصالح المشتركة . ولا بد أن يؤدى هذا التوفيق إن نجح إلى تهذيب الشعور القومى ، وتلطيف روح العصبية الإقليمية ، على نحو يعلّم الأمم الصغيرة كيف تعمل وتضحى من أجل جاراتها وزميلاتها فيما تنتسب إليه من جامعة أو جامعات ، هى مثال مصغر لما تسعى إليه الإنسانية من هيئات عالمية شاملة . بل لعل تجربة الجامعة العربية إن هى نجحت — ونجاحها متوقف على معاونة العالم الخارجى بقدر ما هو متوقف على إخلاص أعضاء الجامعة وقبولهم التضحية — لعلها أن تكون مثالا يحتذى فى مناطق مشابهة من العالم ، كأمريكا اللاتينية ، التى تشترك أممها ، أو تكاد تشترك ، فى اللغة والثقافة والمصالح العسكرية ؛ أو كأمم جنوب شرق أوربا ، التى تشترك فى الموقع الجغرافى والمصالح الاقتصادية ، وإن تباينت فى الجنس والثقافة . . . ومن يدرى ! لعل نجاح الجامعة العربية يكون درساً جديداً فى التنظيم والعلاقات الدولية يضيفه الشرق إلى ما قدم للإنسانية والعالم فى تاريخه الطويل من دروس ! .

سليمان حزين

بين المثالية والطباع البشرية

أأبقى الأسى منى عقيدَ همومِ ... سلام على الماضى سلام مَضيمِ
رَعى اللهُ من نفسى براءةَ شاعرٍ ... وحاطَ سجايا لم تُتَح لِلَئيم
طَوَيْتُ الحسانَ الغُرَّ منها وربما ... بدا عالِمٌ للناس غيرَ عليم
وما خير وجدانٍ رفيع ببيئةٍ ... ترى الخيرَ أن تُزْرِى بغير ظَلوم
تذلّ لمن أثرَى وتَعْنُو لمن طغى ... وتلفحُ مَنْ ناواها بسَمُوم
عفا الله عنى كيف أحيا مضيَّعاً ... بقوم همو دونىْ ضَياعَ يتيم
ولو شئت نازعت الزعامة شيخهمْ ... ولكننى آبَى سبيلَ أثيم
جنونٌ لعمرى أخذُكَ الشىء بالحِجى ... إذا ناله بالطيش غيرُ حكيم
ومن ذا الذى لم يجعل الإفكَ سُلّما ... إلى مأربٍ نائى المنالِ مرُوم
ترى لهمو مثلَ الذئاب ضراوةً ... فمن لى بناب كالهِزَبْرِ حطوم
رويدَكِ إنسانيتى لستُ عائداً ... إلى خِيم ثاوٍ فى الكهوف قديم
فلستُ وإن أمسيتُ فيهم مسوَّداً ... بآثرَ عندى من سلامة خِيمى
ولكننى أشدو بما لا أحبه ... ألا ربما نادمتُ غيرَ نديم

***

برا الله نفسى من معانٍ رفيعةٍ ... وسوَّى سواها من ترابٍ أديم
فليس بها كالناس فى الأرض حاجةٌ ... — على رغمها — إلا رضاع فطيم
ضرورةُ حىٍّ والحياةُ مغارمٌ ... وإمساكُ جسم كالهباء هديم
فيالك نفساً مَوْسَقَ اللهُ ذوْبَها ... قصيدةَ شعرٍ فى السماء نظيم

بضوع كضوع الطيب لا تستبينه عيون ولكن ملء كل شميم
متى ما تتح للفكر يوماً يظنها طروق خيال فى خلال غيوم
نسيم الصبا إما يهب جناحها فبالنسيم سائر بنسيم
سمت فوق آفاق السماء ورفرفت على أنهر من أنجم وسديم
تشع كإشعاع النجوم على الدجى وتأفل فى جسمى أفول نجوم
فلولا لصوق الجسم بالأرض لم تجد سوى طيف روح فى السماء مقيم
ألا فالتمسنى حين يعييك ما أنا لدى عالم ضاحى الجمال بسيم
ففى مثل (أفلاطون) مهوى منازعى ومثوى لداتى من أخ وحميم
ذوات ولكن من رؤى لا تذلها ضرورة عيش أو رغاب جسوم
تقلص ظل الشر عنها فما ترى بها غير خير لا يغب عميم
هنالك حيث الحق فيهن مطلق كشمس الضحى لما تحط بتخوم
وحيث الجمال العبقرى مخلد يمد الورى من فيضه برسوم (1)
حقائق لا يقتاس هذا الورى بها ومن ذا يسوى منجباً بعقيم
كأنى بهذى المثل دوحاً مخلداً يعد الردى بعد الجنى بهشيم (2)
فيطلع عاماً بعد عام قطوفه لدى الموت أشهى من قطوف كروم (3)
عفاء على الدنيا على كل ناجم على كل مفض فوقها لنجوم
طيوف يغاديها الفناء فتمحى ويخلفها منها رفات رميم
أسيت لهم قد ظاهروا كل باطل سفاهاً وأولوه ولاء رءوم
قضى الله لى حقاً فلما التمسته تناءى به عنى مطال غريم
وإنى ليفضى بى إلى الخزى والأسى تذكر أمر فى الأمور هضيم
أرى الناس أعدائى فمن لى بصارم وقلب على العلات غير رحيم
فلا شىء عندى يفثأ الغلى فى دمى سوى فتكة تجرى دماء خصيمى

(1، 2، 3) من نظرية المثل لأفلاطون أن كل ضروب الجمال ظل لمثال الجمال فى عالم المثل ، وأن كل ضروب الجمال تفنى وتبيد ، وهذا المثال باق خالد تصدر عنه ضروب من الجمال أخرى ، وما يقال فى مثال الجمال ، يقال فى مثال الانسان . وهنا يرى الشاعر أن هذه المثل شبيهة بالشجر الذى يؤتى ثمره فى كل عام . والانسان بالقياس إلى مثاله كالثمرة من الشجرة ، ومادامت الشجرة تجدد ثمرها فى كل عام شهياً لذيذاً للآكلين ، فكذلك مثال الانسان يجدد ثمره وهو الناس فى كل حين لفم الموت أشهى وألذ من ثمار الأشجار .

ولو أن ذا عُدْمٍ لوانى نظارته وجاء يسارٍ فى غدٍ لعديم
فكيف رجائى فى غدٍ يسرَ واجدٍ كفيلٌ بما قد يزينه زعيم

***

إلامَ اداري الوجدَ وهْوَ مُبرِّح وأكظِمُ همى وهوَ غيرُ كظيم
وحتّامَ أستعدى على همىَ الأسى وأدفع فى صدر الأسى بهمومى
كما لم تجدْ للداءِ قد عزَّ برؤه سوى مبضع ماضى الشباة هذوم
يلُفُّ الدجى منى مراحَ بلابلٍ ومثوى شجونٍ لا تريم جثوم
لها صخبٌ خلفَ الضلوع مبعثرٌ فمنْ ناعبٍ يُذكى الأسى وبغوم
كأنىَ نايٌ فى يدِ الليلِ جائشٌ بما فى الورى من فاتن ودميم
إذا أذهبَ الليلُ الحياةَ أعادَها قيامى على أعبائها ولزومى
ألا شدَّ ما أوقرْتُ نفسى بفادحٍ أنوء به تحتَ الظلامِ جسيم
وأشباح ليلٍ ما تنى فى هتافها أذنتُ إليها بعد طولِ وجوم
ففى الشرق منها هاتف بزمازم وفى الغرب منها هاتف بهزيم
وطوراً يشقُّ الليل داعٍ مرزَّأ بصوتٍ من البعدِ السحيق سقيم
له أنةٌ حرَّى على ضعفِ جرْسِها كأنةِ مصروعِ الفؤاد كليم
وتصخبُ طوراً ـ حينَ أصغى لها ـ معاً فأمسى كأنى فى مناحةِ بوم
وما راع نفسى وهى شتَّى طليحةٌ سوى طارقٍ جمِّ الرءوس شتيم
ومن خلفه الأشباحُ تبدو ظلالُها كبعض الدياجى لم تبنْ بوسوم
مَن الطارقُ الملحاحُ بابى بلا ونى بليلٍ كوادى الهامدين بهيم
وقمتُ إلى مهوى الرتاج أفضُّهُ وأذنى إلى مستوفزٍ لقدومى
فألفيت أشباحاً تنزَّى عرامةً فمِنْ ثائرٍ بادى الأذى وكتوم
وقالت: فنون العيش لم تألُها رُقى بشعر كريحان الرياض نموم
أيا ساحراً كيف استبحتَ خدورَنا وأخرجتنا منها برجْع رنيمِ
تنكَّرتَ للأوضاعِ من إرثِ آدمٍ فبتَّ بها تهذى مبيتَ صريم
فها نحن ذى جئنا فما أنتَ صانعٌ بأشباح أوضاعٍ أتتْ وزعوم
تماما الطغاةُ الظالمون حبائلا لأهوائهم لم يحفلوا بعليم

أأنتَ تريد الخيرَ فى الناس سائداً وَمَنْ لك بالإنصاف عند غَشيم
ألستَ ترى أن الورى فى حياتهم عبيد طباعٍ لا عبيد حُلوم
فإن يصدروا يوماً عن الحلم والحجى فخوف شقاء أو رجاء نعيم
فقلتُ : رويداً لستُ عن ذاك سائلاً أسا اليأسُ منهُ عِلّتى وكُلُومى
ذرينى لدنيا غير هذِى من الرُّؤَى وفكرٍ كثجّاج السحاب سَجوم

محمد عثمان الصمدى

رأى فى تدبير التربية فى لبنان[1]

مرفوع إلى فخامة الشيخ بشارة الخورى
رئيس الجمهورية اللبنانية

لا يخفى علىّ أن أمر التربية وما يدخل تحته من تنشئة وتثقيف شغلٌ شاغل للبنان فى هذا الوقت . وقد وقع إلىّ كما إليكم وقع بعض ما جرى فى هذا الشأن من اقتراحات وتصويبات وما نشأ من وراء ذلك من مضاربات فى الوجهات ومفارقات فى الغايات . والتحقيق أن ليس هذا كله إلا تطوافاً حول صميم التربية . وذلك أن إيثار سياسة تجرى إلى إصلاح الموجود وتداركه ، تارة بالحذف وأخرى بالزيادة وثالثة بالاستبدال ، إنما هى حال تصلح للأمر الذى استقرت فواتحه واستبانت خواتمه ودرج الذى بينهما إلى غاية معلومة ممحَّصة . وعلى هذه الصفة لا يكون أمر من الأمور القومية إلا إذا استتبت همة الأمة وثبتت خطاها وطال مسيرها فساقها ماضيها يرافقها زاد من التجارب والتقاليد .

وليست هذه حالَ الأمة اللبنانية . فهى اليومَ خارجة ، بل طافرة ، من عهد إلى عهد : من عناء وضنك ، إلى انفكاك وفسحة ، من خضوع ورضا إلى إباء وغضب ، من استسلام واتكال إلى كدّ وتصرف ، من فرح باليسير إلى وثب على الصعب ، وبالجملة من التأمل لما كان إلى التبصر فى ما يكون . فليس فى الأمة اللبنانية اليومَ استتبابُ همة ولا ثبات خطا ولا طول مسير ، فماضيها القريب عاجز عن أن يدفعها إلى حُرّ السبيل . وليس من الحكمة أن يُنظر فى الماضى فتفحص أدواؤه ، إذ لا رجاء فى قطعها قطعاً ، إنها والله لممزوجة

(١) مذاكرة ألقيت فى « المدرسة الأهلية » ببيروت فى الواحد والعشرين من نوفبر سنة ١٩٤٥ بدعوة من « جامعة نساء لبنان » .

بالدم ، مصبوبة فى العصب . فى مثل هذه الحال تُنشأ الأمة إنشاء كأنها تستأنف ولادتها ، وقد استردّت خصائصها إلى جنب الفضائل التى تحلت بها قبل أن يهجم عليها عهد العناء والضنك والخضوع والرضا والاستسلام والاتكال والفرح باليسير . وقد وصفتُ هذا العهد بالقرب ، وليس القرب فى تاريخ الأمم بمنحصر فى خمس وعشرين سنة .

على هذه الأمة الكريمة إذن أن تتبصر فى مايكون . فكأنى بكم تترقبون منى حديثاً هو ملهج الأندية على اختلافها ، ومثار جانب من الاقتراحات والتصويبات التى أشرت إليها . كأنى بكم تروننى أخوض فى قصة الثقافات الإفرنجية وأقلب فصولها ، وأدل من هنا ومن هنا أفنّد ، لعلى أحملكم على أن تنزلوا الثقافة اللاتينية المنزلة العليا فتعدّوها الصحيحة الصالحة ، أو على أن تروا الخيرَ فى أن تختاروا الثقافة الأنجلوسكسونية وأنكم إن لم تفعلوا خفّت عقولكم . ألا إنى أربأ بنفسى وبأنفسكم أن تزلق فى نقاشٍ يهزأ هو نفسه بنا . نحن صرنا إلى عهد الانفكاك والفسحة ، فهل نزاوج فى رقابنا الأغلال ونضاعف تجاه أبصارنا الأستار ؟ بنا حاجة ونحن فى مطلع الطريق — وهو عسير — أن نفسح الرئات لكل هواء نقى ملائم نافع مستطاب أينما كان المهبّ . وعلى أية حالٍ كلنا يدرى أن النفس منجذبة إلى ما ألفت ، والذهن منساق إلى ما تخرج فيه . لذلك نرى العربىّ المتطرف لا يؤمن إلا بثقافة آبائه ، وكذلك نرى الناشئ الناميَ فى أحضان الأنجلوسكسونية أو اللاتينية أو الجرمانية لا يرضى إلا بإحدى هذه المرضعات الثلاث . ولكن مثل هذا الموقف الجامد لا سلامة فيه ولا رجاحة ، بل فيه مرض وفيه ارتجال ، لأنه يميل مع الهوى وينقاد للشعور من جهة ، ومن جهة أخرى يُغضى عن الواقع ويهمل ما يقتضيه . وكل تفكير تحركه الشهوة صائر إلى فساد ، وكل تدبير تسوسه الغفلة واقع فى العسف .

أن نحذر الهوى فنطرحه ، ثم نفحص الواقع فننزل عند أحكامه ، هذان هما الرائدان السليمان الراجحان . وإذا كان طرح الهوى يسيراً ، أو كاليسير متى ووعت النفس فدرت ثم زكت فسعت وغايتها القومية الخالصة والوطنية العاقلة ، فإنما فحص الواقع يجرّ إلى الاستطلاع . وإنى محاول له ، وقد أخطىء وقد أقصّر ، غير أن وراء المحاولة نيّة بيضاء ، وودّاً مقيما ، وشُغلاً ببلوغ الملائم

الحسن . ثم إن الواقع يضم الحسنات بجنب السيئات ، ولابد من تناول الطرفين على السواء ، وفى الطرف الثانى ما لا يبسط النفس ولا يلذ السمع . ويا ليت الأمم جمعاء لا تشوب حسناتها سيئات .

من المتفق عليه من عهد الفيلسوف الانجليزى Herbert Spencer أن التربية على ثلاثة : تثقيف الذهن ، وتهذيب الخلق ، وترويض الجسم . وتحت كل منها فروع ومذاهب . ولست أعرض فى حديثى لترويض الجسم ، فله أصول لا تختلف باختلاف البلدان إلا بعض شىء . والكلمة الفاصلة هنا لغيرى ممن يتقن ذلك الفن نظراً وعملا . فهمُّنا إذن منصرف إلى تثقيف الذهن وتهذيب الخلق . فكيف لهذا التهذيب ولذاك التثقيف أن يجريا فى لبنان ؟ هذا باب الاستطلاع ينفتح لنا :

لست بمقبل على إحصاء المدارس من ابتدائية وثانوية وعالية ، ولست بناظر فى النظم والنهج والكتب ، ولست بمقسم للطرائق وموزع للمنازع . كان يحق هذا لو كنت ممن يميل ميلان الذى يريد إصلاح الموجود . وقد صارحتكم أول هذا الحديث بأنى أرى غير هذا ، أرى الإنشاء دفعة . فليبقَ الموجود على حاله حتى ينقرض بطبيعته ، فيَخلف أهله جيل محدَث نكون قد جبلناه فصغناه صوغاً هو أليق بهذا العهد . وإن ظن أحد أن إصلاح الموجود قائم قيام سياسة بصيرة ومجدية فهذا مثل مصر العزيزة ، أراها تدأب فى تقويم التعليم منذ عشرين سنة أو تزيد ، بصدق واطراد ، ولا تكاد تصنع شيئاً لأنها تجعل الإصلاح يجول فى الجهاز المنقبض الذى كان المستشار الإنجليزى Dunlop فرضه عليها أيام الاحتلال ، وهى أيام سود . فمهما يتألق الفكر النيِّر تحصره زاوية مظلمة ، ومهما تتحرك النية الصادقة يصرعْها حائط ثابت . وخير لنا جميعاً أن ننتقل إلى أرض رحبة نبنى فيها ما نشاء ، فننور الزوايا ونفرِّج الحيطان على حسب رغباتنا وحاجاتنا ، بدلا من أن نُهلك فطنتنا فى نقاش عقيم ، وننفد سعينا فى الترفق للزاوية المظلمة كيف نُدخل عليها شعاعاً خاطفاً أو فى تحسس الحائط أين نحسن ثقبه .

لتبقَ المدارس الموجودة بنظمها ونهجها وكتبها . غير أن الذى مرض قلبه وأزمن إذا يئس الطبيب من شفائه جدَّ فى مراقبته . ومعنى هذا اننا إذا نفضنا بالعجز عن تدارك المدارس لرسوخ أصولها فى صعيد طرنا عنه اليوم ، فقبيح

بنا أن ندعها تنمو على هواها فتخرج جيلا أو جيلين يشاركان فى نهضة الأمة بقدر يسير، أو لايشاركانها لبتة، أو ينصبان لها الحرب.

لذلك لا بد من مراقبة تلك المدارس مراقبة فعالة فى ناحية القومية المحضة وفى ناحية برنامج وزارة المعارف. والناحية الثانية مدارها التزام المدارس المختلفة — رسمية كانت أو أهلية — لمنهاج تضعه الوزارة للتعليم. وأما الناحية الأولى فقوامها عفّ بعض هذه المدارس أو كفها عن استباحة كل ما يورث ضرراً بوطنية التلميذ أو يُعقب خطراً على كيان الأمة. ولهذه المراقبة على شقيها فطن المسئولون عن التربية فى لبنان. وقد ترامى إلىّ أنهم اختطوا خطةً لذلك تترجح بين الشدة واللين. غير أنهم لايزالون عند الفطنة للأمر، أعنى أنهم لم يخرجوا من الجانب السلبى إلى الجانب الإيجابى. وحسبى هذه الإشارة بسبيل المراقبة، فلست أُعنى هنا بالذى هو موجود، بل أُعنى بالذى يحسن أن يوجد، أعنى بالإنشاء.

وإنى مقترح عليكم رأياً فى ذلك أسوقه سياقة الإجمال معرضاً عن التفاصيل:

الذى عندى أن لبنان لاسبيل له — أول الأمر — عن معلمين تنشّئهم الدولة من طفولتهم الناعمة حتى فتوتهم البالغة، إذ تهيئ لهم مدرسة فريدة جديدة تكون روحها ونحوها وغايتها من طراز مستحدث:

يُقبل الطفل المعَدّ للتعليم، وهو فى الخامسة من عمره، على روضة للاطفال، أغنيًا كان أم فقيراً، ابن وضيع كان أو ابن رفيع، ابن درزى أو ابن مارونى. فينمَّى هنالك ذهناً وخُلقاً وجسماً تنميةً أسُسها الوداعة والبساطة والسماحة، فلا تكليف ولا تخويف ولا تعنيف. ولا حاجة إلى تبيين الطريقة التى تخلق بروضة الأطفال، فقد ألّف المحدثون من علماء التربية عند الإفرنج فصولا مسهبة فى ذلك.

وإذا خرج الطفل من روضته تلقّته مرحلة الدراسة الابتدائية، وهى على قسمين: أحدهما للبنين والآخر للبنات. وعند تمام هذه الدراسة يُنقل من الأطفال إلى مرحلة الدراسة الثانوية من كان نجيباً، وذلك بوساطة الاختبارات والأقيسة المعروفة فى أساليب التربية. والنجيب من حسن نظره وقوله وفعله، فدلّ على استعداد فى الفهم وقبولٍ للتحصيل ومقدرةٍ على السعى الطيب. ثم

تنتهى الدراسة الثانوية ، فيقبل التلاميذ الفتيان والتلميذات الفتيات على دراسة عالية تجمع بين العلوم والآداب والفنون . ومتى نهلوا ذلك النهل الصافى دخلوا فى أبواب التخصص ، فمضى هذا إلى اللغة وهذا إلى الأدب وانصرف ثالث إلى الرياضيات ورابع إلى الكيمياء ، إلى آخر ماهنالك من أنواع التحصيل وألوانه . وعند الخروج من هذه المرحلة الخاتمة يُفرَز الفتيان والفتيات ، ويُنتقى منهم ومنهن نخبة تكون زبدة الصفوة ، فترسل إلى أوربة وأميركة ليسترسل كل واحد من رجالها ونسائها فى الاجتهاد ، ويتوسع فى التلقى على غير تقيّد بلغة واحدة أو بثقافة واحدة ، لأن المعرفة العليا عدوّةٌ للضيق .

ذلك مختصر القول فى سير التعليم فى تلك المدرسة الفريدة الجديدة سواء فى مراحلها أو مايلى مراحلها . ومقصد تلك المدرسة إنما هو إخراج فوج حديث من المعلمين وسرب من المعلمات . أما الذين لم يذهبوا إلى أوربة للاسترسال والتوسع فينتشرون على الفور فى المدارس السائرة ويحلون محال المعلمين العاملين فيها ، وذلك شيئاً فشيئاً وخطوة خطوة ، مبتدئين من الصف الأدنى حتى يبلغوا الصف الأعلى . وأما الذين ذهبوا إلى أوربة فمتى يرجعوا يُقبل فريق منهم على تخريج دفعات أخر من المعلمين فى تلك المدرسة الفريدة الجديدة وعلى تأديبهم وتجهيزهم فى المرحلتين الأخيرتين ، ويقبل الفريق الآخر على شؤون العلم من تنقيب وتأليف وتوجيه .

ومتى توافر من الفريقين عدد ذو شأن ، ومتى دلّت مباحثهم ورسائلهم ونصائحهم على طرافة وبراعة وأمانة ، حق للبنان أن يطرق باب العلم الصرف ، فيتوج تلك المدرسة الجديدة بمعهد عالٍ مقصور على البحث المجرَّد والمتجرِّد ، يتلقى فيه المشتاق إلى أنوار العرفانً نهايات التجارب الإنسانية فى عالم الفكر ، ولا مطمع له فى شهادة أو إجازة ، وإنما غرضه الاغتراف الدائب من نبع علوى فكأنه يرى مع فيلسوفنا الغزالى « أن تحصيل العلم عبادة بل هو أفضل العبادات » . وبهذا المعهد الذى يذكرنى الحلقات التى كان يعقدها علماء العرب فى المساجد وفى الزوايا وفى المجالس (ومن قبل عقدها اليونان) ، والذى يقارب فى تصورى معهداً فى باريس هو Collège de France ، بهذا المعهد يتفرد لبنان فى الشرق العربى ـ بعد أن نزع «الأزهر» الشريف جلبابه ـ فيصير منارةً ويبرهن أن المادّة غير غالبةٍ على جانب منه .

هذا ويحسن إنشاء قسم فى هذا المعهد يوقف لأبناء المغتربين المتطوحين فى أنحاء العالم ، فتُقرَّب فيه إليهم — فى فصل الصيف وأيضاً فى فصل الشتاء إذا شاءوا - لغة وطنهم الأول وتاريخه وآثاره ، فينبعث فى أنفسهم الحنين ويتوثق الانعطاف .

وبعد ، فإن مدرسة كتلك يتوجها معهد كهذا خير للبنان وأجدى عليه وأليق به من جامعة يزمع بعضهم على إنشائها ، ومقصده منافسة جامعة كذا أو جامعة كذا ، أو رغبته مزاحمة ثقافة كيت أو ثقافة كيت . نحن فى هذا الشرق مصابون بداء النفْج - والنفج كلمة أحبَّ إمامنا الجاحظ استعمالها ، وهى تفيد التبجُّح والتزعُّم . يقول بعضنا : هيا ننشىء معهداً للموسيقى ، فينشئون نادياً . ويقول آخر : عندنا كلية للآداب ، والحق أن عند أصحابه مدرسة تتطلع إلى كلية وتتسلق أولى درجاتها بعناء . ألا كيف تُنشأ جامعة بلا عدد كاف من الأساتذة ذوى الكفايات ! ثم ماذا نجنى فى العهد الجديد من جامعة تستقبل طلاباً تخرجوا فى مدارس أكثرها مجبول من طين العهد العتيق . أوَيظن أحد أن النشء يُنشَّأ بعد سن العشرين ؟ وإذا أذنتم لى أن أستشهد بما لاقيت وعانيت فالله أعلم كم جاهدت نفسى وأنا أتلقى العلم فى عواصم أوربة ، فى سبيل الإفلات من أوهام تكتنفنا والخلاص من نقائص التربية . وما أظننى أفلحت الفلاح كله .

وعلى هذا لا يحسن الإزماع بإنشاء جامعة لبنانية إلا بعد إعداد جيل جديد .

والآن ما يكون منهج تلك المدرسة التى تخرج المعلمين باطراد ؟ ثم ما يكون منهج المدارس السائرة بعد خروج الدفعة الأولى من المعلمين تليها الدفعات ؟ هنا يُنظر فى حال الأمة وحاجاتها ، وتُستبان صفاتها إن حسنةً وإن سيئة ، فيرسم المنهجان على حسب كل ذلك . تلك هى الطريقة العلمية الموضوعية الآخذة باستخراج المواد من الملموسات ، ثم معالجة تلك المواد . فمن الخطأ أن يظن ظانٌ أن حَسْبَه اختيار منهج من المناهج الأوربية ، فينقله نقلا إلى بلد عربى . وأما قول القائل بأن لبنان داخل فيما يسمونه ثقافة البحر المتوسط ، وعليه إذن أن يتأثر خطا البلاد الواقعة فى منطقتها ، فذلك قول مرتجل ، لأنه لا يستند إلى الواقع . فالواقع المحسوس أن لبنان بأرومته وتاريخه وتقاليده وآثاره ولغته

وعادات أهله ، له ميزات تفرده فتقصيه قليلا أو كثيراً عن تلك المنطقة . وإن حلا لفئة من المتخرجين فى معاهد إفرنجية أن ينجذبوا انجذاباً إلى بلادٍ تلى ذلك البحر الفاصل لا الواصل ، فذلك شأنهم وحدهم . إذ أن التربية تشمل الأمة بجملتها ، فهي غير مقصورة على فئة . والأمة حقيقة من الحقائق ، وليس من المعقول أن تُساق الحقيقة الراهنـة بالخيال المرتجل .

ومن الخطأ كذلك أن يُتخذ فى لبنان منهج يكون هو إياه ، بالجملة وبالتفاصيل ، فى جميع البلدان الناطقات باللغة العربية . هذا أيضاً عبث بخصائص كل أمة ، وغفوة عن هيئاتها الفطرية . ومثل الذى يرى هذا كمثل طبيب فى يده وصفة للممعود يوزعها يميناً وشمالاً دون أن يتفحص المرضى مريضاً مريضاً ويتعرف خفايا المعد ، حتى يعدّل الوصفة بحسب ما بان له فى جسم كل مريض .

وليست حال البلاد العربية من الناحية الاجتماعية متماثلة كل التماثل ، وليست حاجاتها بمتوافقة كل التوافق . ثم ليست حسنات أبنائها وسيئاتهم واحدة . كما أن بين هذه البلاد وبلاد الإفرنج أبعاداً يعجز البصر أحياناً عن بلوغ مراميها .

إذن يُرسم منهج خاص بالأمة يكون مسايراً لحالها ، كافياً لحاجاتها ، زائداً فى حسنات أفرادها ، متداركاً لسيئاتهم . وهنا باب الاستطلاع ينفتح من جديد . فلنمض فى رفق وعلى عجلة :

الأمة اللبنانية موزعة فى جانب الدين ، مرتبكة فى جانب السياسة ، متضاربة فى باب التمثل الشعبى : الأرض بقع بقع والمدينـة حى حى ، متباعدة فى مجرى الدم : لا مصاهرة فلا التحام ، متفرقة اللحاظ وهى تنظر إلى ماضيهـا ، حائرة وهى تتأمل كيف يكون استمرارها فى الزمن الآتى . كل ذلك عرضتُ له بالتفصيل والتمثيل السنة الماضية فى مذاكرة أجريتها فى « كلية المقاصد الاسلامية » ببيروت وأنا أتكلم فى مقومات القومية وعلى رأسها اللغة ، فلا حاجة إلى العودة[1] .

وأما صفات أبناء الأمة ، فبعض الذى يبدو لى بعد الجس والتأمل والتعرف أن فيهم فطنة وخيالا وميلا إلى الاطـلاع ، ولـكن فيهم أيضاً أو فى أكثرهم غرورا يبعثهم على النفج الذى تحدثت عنه فى ما سلف من القول . هذا من جهة

---

(١) نشرت هذه المذاكرة فى باب « التعريف والتنقيب » من مجلة « المقتطف » ديسمبر ١٩٤٤

الذهن . وأما من جهة الخُلق ففيهم نشاط وثبات وتعويل على النفس ، مع إباء فيه خشونة أحياناً ، ولكنْ فيهم أيضاً تعصباً لأهوائهم ونفوراً من النظام ، ثم فى طائفة منهم غفلة قومية أو شبه غفلة . وفيهم بعد هذا تغليب للمادة على الروح فى المدن خاصةً .

فنظراً إلى كل ما تقدم من وصف حال الأمة وحاجاتها وحسنات أبنائها وسيئاتهم يُسَنُّ السَّنَن فى تخريج المعلمين من طفولتهم الناعمة حتى فتوتهم البالغة ، فيخرِّجون بدَورهم الجيل الآتى على حسب ماتخرجوا هم . ويجرى ذلك السنن المستبصر بالواقع إلى ركز القومية فى النفوس بمراجعة مقوماتها ومعالجتها بفضل وسيلة قائمة ثابتة جامعة هى اللغة المنطوق بها فى أنحاء لبنان ، فتتآلف القلوب وتتواطأ الأذهان وتتساير الإرادات ، بعد أن تُصرع أوهام الطائفية ومجاذبات السياسة ومنازعات التمثل الشعبى ومدافعات الدم وقلقلة النظر إلى الماضى وذبذبة التأمل فى طريق الاستمرار — هذا من جانب . ومن جانب ثان يجرى ذلك السنن المستبصر بالواقع إلى إرهاف الفطنة وتسديد الخيال وتغذية الميل إلى الاطلاع ، مع استئصال الغرور وبتر النفج ، ويجرى كذلك إلى استثمار النشاط والثبات والتعويل على النفس وإلى ترويض الإباء ، مع تطهير القلوب من سواد التعصب كائناً ما كان ، وإدراج إرادة الفرد فى إرادة الجماعة برهن ثقته عند ثقتها ، ومع توليد الوعى القومى أو تنميته ، وإعلاء قدر الروح فوق شأن المادة فى المدن .

مَن يسن هذا السنن الذى ما تعديت الإلماع إليه والتمثيل له ؟ من يسلط على حال الأمة وحاجاتها ثم حسنات أبنائها وسيئاتهم نظراً ثاقباً ، فيتفحص ويتعرف ثم يقرر ويدبر ، فيعين فلسفة فى التربية مستخرجة أصولها وطرائقها من أسرار الأمة ثم يمضى إلى مقاصدها العليا ؟ كلا لن يكون رجل سياسة ، بها شغلة ، ولن يكون عابر سبيل . ذلك أن الإنشاء يستلزم رجل عمل مسئولاً دؤوباً ، بل خوّاضاً لا يعوقه سد ولا تقلبه ريح ولا يجرفه تيار ولا غمامة تغشى لحظه . وزيادة على ذلك إن إنشاء تدبير يفترض الدراية بفن من الفنون ، وهو التربية ، مع مايندرج فى هذه الدراية من بصر عال بعلوم شتى مثل علم الاجتماع وعلم نفس الطفل وعلم الأمراض العقلية ، ومن اطلاع وافر على أطراف المعارف التى يتلقاها

الفتى والفتاة — إن إنشاء تدبير هذه صفته لا يحسن به إلا أن يُجعل فى أيدى نخبة قليلة من البصراء المتخصصين والعلماء الراسخين ، فيكونون جميعاً من أهل الكفايات وأصحاب التجارب لا من أهل الشفاعات وأرباب «العنعنات» كما يقال فى لبنان (وهى الحزبية فى مصر) . ثم يكونون جميعاً على تجرد واقتناع وإخلاص مع إقدام وثبات . ولوزير المعارف أن يرأس تلك الحلقة ويتبين مقاصدها ويمتحن أساليبها ثم يمضى اقتراحاتها ويفرضها فرضاً دون أن يستثنى أحدا .

بقى هذا السؤال : من أين يجلب الأساتذة الصالحون لتخريج الدفعة الأولى من المعلمين ؟ ثم من أين للبنان تلك الحلقة المباركة ؟ فكأن قائلا منكم يقول : ألسنا كلنا غارقين فى لجة العهد الماضى ، عهد العناء والضنك والخضوع والرضا وغير هذه ؟ والجواب عن هذا السؤال يسير : إن أحداً لا يستطيع أن يزعم أن المثقفين اللبنانيين بأجمعهم لذهم أن يزحفوا وأن يرسفوا . ألا أقبلوا على الجد وأبصروا الحق تستبق إليكم من جبلكم ومن ساحلكم همم عالية وعزائم صادقة .

وستكون تلك الحلقة مبتدأ لمجلس علمى يُعنى بعد توجيه التربية بالإشراف على تأليف الكتب المدرسية ، وبإنعاش اللغة العربية الشريفة وإنمائها ، وبتوليد المصطلحات العلمية نشرها . ثم يعنى فوق ذلك بتوحيد أصناف الجهد فى ميادين العلم ، فيشارك رجاله — ونساؤه إن هو ضم نساء — فى تأديب المعلمين فى تلك المدرسة الفريدة الجديدة ، وفى تلقين طلبة المعهد الذى يتوجها دقائقَ الآداب ورقائق الفنون مع كفالة المعوزين من أولئك الطلبة المشتاقين إلى أنوار العرفان ، وفى إحياء نفائس الأدب العربى وذخائره ، وفى نقل لطائف الأدب الغربى ولوامعه ، وفى إخراج مجلة مرصودة للبحث البحت والأدب الرائق ، لخلاصة التنقيب وعصارة التفكير ، فلا ترديد ولا ترخيص ولا بذل بتيسير ، تلك مجلة بالشرق العربى كله حاجة إليها . ويعنى ذلك المجلس أيضاً بالآثار والفنون ، فيتعقب التراث الغالى ويستخرجه فيحفظه ، ثم ينظم المعارض والمتاحف ودور الكتب ، ويتلفت إلى المسرح والموسيقى والنحت والرسم .

وإن نشأ هذا المجلس أول نشأته صغيراً فلن يبطئ أن يمتلئ ويحفل . سوف يمده اللامعون من المتخرجين فى ذلك المعهد والبارعون من المتفقهين فى معاهد أوربة وأميركة . ثم للمجلس ، بل يجمل به ، أن يستعين فى التخطيط والتنظيم ،

والتدريس والتلقين ، بصفوة من العلماء الأجانب سواء كانوا من الشرق أو من الغرب . على أنه من المستحسن أن يُجلب العالم الغربى من بلده توًّا ، لأن الأجنبى المقيم قد يكون العهد الماضى غره بزخرفه . ومن المرغوب فيه بعد ذلك أن يُنتقى العالم البرىء من إضمار الاستعمار .

ذلك هو التدبير الذى أراه ، رسمته وقد أخففت رأس القلم فلم أشبع ألوان الخطوط ، ولم أسطر تفاريعها وتعاريجها إلا بمقدار . فلست فى هذه المذاكرة إلا رجلا يقترح . وفى اعتقادى أنه إذا سار صاحب أمر على هذا الرسم ، يوم تستوفى خطوطه ، صارت الأمة فى طريق التجدد القومى ذهناً وخلقاً بفضل العلم المستبصر ، فيستأنس الطفل بمنبعه ويعبّ الفتى من عيونه ثم يهنؤ الرجل عند مصبه ، فيدخل فى رحاب إنسانية نقية راقية بقلبه وعقله وإرادته ، مستمسكا بخصائص أرضه ، مستنشقاً أنساماً طيبات مقبلات من أرض غيره .

تلك هى غاية الثقافة الحق : تفتّح الروح وتصعّد الفكر . ولى فى عناصرها حديث آخر يطول ، سأفرد له كتاباً برأسه إن شاء الله .

بشر فارس

ت . س . إليوت

١

ولد توماس ستيرنز إليوت ، شاعر الإنجليزية الأول فى فترة ما بين الحربين ، عام ١٨٨٨ لأسرة أمريكية تسكن سان لويس من أعمال الولايات المتحدة . وليس فى حياته ما يستحق الذكر إلا أنه تلقى علومه بجامعة هارڤارد ثم بالسوربون ثم بأكسفورد ، وأنه اشتغل بالتدريس فى جامعة كامبريدج ، ثم عيّن أستاذاً للشعر بجامعة هارڤارد . وقد أمطرت عليه الجامعات البريطانية عدداً كبيراً من إجازات الدكتوراه الفخرية تكريماً له واعترافاً بفضله على الأدب الإنجليزى .

جمع إليوت قصائده المتفرقة الأولى عام ١٩١٧ ، وكان أهم ما فى هذه المجموعة « أغنية العاشق ج . ألفريد پروفروك » ، وهى القصيدة التى لفتت إليه الأنظار . وهذه القصيدة تصوير للمفكر فى القرن العشرين كيف يذبل الربيع فى قلبه قبل الأوان . فمستر پروفروك ، وهو لا يختلف فى شىء عن مستر إليوت ، كهل يتقدم لخطبة فتاة عصرية تغشى الصالونات وتجيد الحديث السطحى . ولكنه يتردد فى ذلك كثيراً ، فهو يعلم أن الصلة بينهما غير واضحة ، وهو يعلم أن ينابيع الحياة قد جفّت فيه وأن رياشه الزاهية قد سقطت عنه ، وهو شديد الخجل من قصوره فى ميدان الغرام .

« والنسوة فى الغرفة ذاهبات جائيات يتحدثن عن ميكلانجلو » .

« ولسوف أجد فى وقتى متسعاً لأن أتساءل : كيف تجرؤ أيها الرجل ! بل كيف تجرؤ أيها الرجل ! أجل ، سأجد فى وقتى متسعاً لأن أهرب من الموقف وأن أهبط السلم ، وفى وسط رأسى بقعة صلعاء . [وحين يرين البقعة الصلعاء سوف يقلن : يا لشعره ، كيف يتساقط !] وأنا فى حُلّةِ الصباح ، بنيقتى عالية مستقرة ترتفع إلى ذقنى ، وربطة رقبتى من النوع الممتاز ، ولكنها مثبّتة بدبوس

بسيط [السوف يقلن : نعم ، ولكن ذراعيه عجفاوان وساقيه ضامرتان] فكيف أجرؤ إذاً على إزعاج الكون ؟ فلأدخل لنفسى دقيقة لأتدبر ، فى الدقيقة متسع للعزم وللعدول ، وللعدول عن العدول » .

وهو فى كل ذلك يخشى أن يرد خائباً . ويروعه فى نفسه هذا الإسراف فى التردد ، فيذكر الأمير هاملت سيد المترددين ويستدرك قائلا :

« ما أنا بالأمير هاملت وما أرادتنى المقادير أن أكون . إنما أنا نبيل فى ركاب الأمير . وأنا نكرة كل نفعى أن ينتفخ بى جمع على مسرح أو أن أمهد لفصل من فصول الرواية أو أن أنصح الأمير ، فأنا أداة لا ريب طيّعة . وأنا جم الاحتشاد يسعدنى أن أخدم مولاى ، لبق حريص مسرف فى الدقة أكثر من الكلام الطنان ، ولكن بعض كلامى يملّ السامعين وبعضه لا يخلو حقًّا من الحماقة .

« لقد أدركتنى الشيخوخة ، لقد أدركتنى الشيخوخة . ولسوف يضمر فخذاى حتى تكثر الأطواء فى حجر سروالى » .

ولقد تروعك فى هذا الشعر غرابته ؛ فهو لا يتفق مع النسق المألوف فى القريض التقليدى الذى نعرفه . ولكن هذه الطريقة الجديدة فى الأداء هى الخاصة التى تميز الشعر الإنجليزى فى فترة ما بين الحربين . فاليوم كل شىء يدخل فى تجربة ، ولا يشذ عن ذلك أساليب التعبير الفنى . والشعر الإنجليزى فى فترة ما بين الحربين شعر غامض ، ما فى ذلك شك ، ولقد يصل به الغموض إلى درجة الامتناع الكامل على الفهم ، وذلك راجع إلى جملة أسباب :

فالشعر التقليدى المعروف حتى ظهور إليوت يقوم على التتابع المنطقى فى أى جزء من أجزاء السياق وفى السياق كله ، وما خرج على ذلك يعدّ هذيان محموم أو ترّهات مجنون . أما الشعر الإنجليزى المعاصر فيقوم على التتابع العاطفى وتتابع الذكريات قبل كل شىء . فاليوت يقول فى « الأرض الخراب » :

« أبريل أقسى الشهور ، ففيه يزهر الليلج فى الأرض القواء ، وتمتزج فينا الشهوة بالذكرى وتنتعش الجذور اليابسة بأمطار الربيع . أما الشتاء فقد أدفأنا حين كسا الأرض بثلوج النسيان وأطعم الحشرات بالجذور اليابسة . والصيف أثار فينا العجب عند ما عبرنا بحيرة شتارنبرج وانهالت علينا شآبيب الغيث . وقفنا بين الأعمدة وخرجنا إلى الهوفجارتن ، وفى هذه الحديقة شربنا أقداح

القهوة وتجاذبنا أطراف الحديث ساعة أو بعض ساعة تحت ضوء الشمس . كلا ! لست بروسية ، وإنما أنا ألمانية أصيلة ، ألمانية من لتوانيا . وحين كنا أطفالا نقيم فى قصر ابن عمى الأرشيدوق خرج بى الأرشيدوق ليتزلق على الجليد فاضطربت نفسى . قال : يا مارى ! أمسكينى بقوة يا مارى ! ثم بدأنا نتزلق . إنما نحسن بالحرية بين الجبال . وأنا أقرأ عامة الليل وفى الشتاء أنتقل إلى الجنوب ... الخ »

وهذه الطريقة فى الإنشاء لا تختلف فى شىء عما يسمونه فى التحليل النفسى تداعى المعانى اللامترابط . فالمريض يسترسل فى سرد أفكاره أمام الطبيب المحلل بلا قيد ولا نظام ، وكلما ألقى إليه الطبيب المحلل بكلمة ذكر أول فكرة تجول بباله . ومن هذه الذكريات المفككة يفتضح عقله الباطن وتخرج إلى النور مكنوناته ومكبوتاته . وظهور الأساليب القائمة على التتابع العاطفى وعلى التداعى اللامترابط نتيجة من نتائج الثورة على العقل التى عمت أوربا فى القرن العشرين بعد أن ثبت للأوربيين إفلاس العلم وعجزه عن تحقيق التقدم المنشود للإنسانية فى القرن التاسع عشر تحت حكم الرأسمالية التى وجهت العلم لخدمة أغراضها المادية لا لتنظيم المجتمع .

ولعل فن السينما قد ترك فى الشعر الإنجليزى المعاصر بعد الأثر كما يقول الناقد الشاعر سسيل داى لويس . فالطريقة المرعية فى الإخراج السينمائى هى الانتقال المفاجىء السريع من منظر إلى آخر دون اعتبار لصلات الزمان أو المكان أو التسلسل المنطقى فى عملية الانتقال هذه ، والاعتماد التام على وحدة الفلم فى مجموعه وعلى التتابع العاطفى وحده فى أجزاء الفلم المختلفة كل على انفراد .

ومما زاد فى غموض الشعر الانجليزى المعاصر خضوع أصحابه للمدرسة الرمزية فى فرنسا وخاصة للافورج ورمبو وڤاليرى . وشعر إليوت بالذات أوضح ثمرة لتفاعل هذه التأثيرات الواردة من القارة الأوربية فى عقلية الشاعر ، ونتيجة ذلك كله أدب لا سبيل إلى فهمه الكامل أو تذوقه الكامل إلا إذا كان القارىء ملماً بجميع اللغات الرئيسية وآدابها إلماما كافياً .

وفى عمود الشعر الانجليزى خاصة ظلت ثابتة فيه حتى ظهور إليوت ، وتلك الخاصة هى استيحاء الميثولوجيا اليونانية والرومانية وتأثر خطى القدماء فى فنون الإنشاء . فالشعراء الإنجليز من ويات فى أوائل القرن السادس عشر إلى تنيسون فى أواخر القرن التاسع عشر قد استمدوا مادة أدبهم من أساطير

اليونان والرومان وفنهم وتاريخهم ، واستخدموا آلهتهم وأبطالهم فى التعبير الرمزى وفى المحسنات البديعية وفى الأخيلة بوجه عام . وقد كان تذوق الشعر الإنجليزى فى القرون الأربعة الماضية متوقفاً على إلمام القارئ بالتراثين اليونانى والرومانى . ولكن هذا الإلمام لم يعد كافياً لتذوق الشعر الإنجليزى المعاصر ؛ لأن جذور هذا الشعر لا تمتد إلى حضارة اليونان والرومان فحسب بل تمتد إلى أصول الحضارة الإنسانية بوجه عام . وإليوت مؤسس هذه المدرسة الجديدة يكثر من الاستعانة بالتراث المسيحى خاصة وأثر شاعر المسيحية الأول دانتى فيه صريح لا يقبل الجدال ، بل إنه لا سبيل إلى فهم إليوت أصلا إلا بدراسة ملحمة دانتى المشهورة « الكوميديا الإلهية » . كذلك يستخدم إليوت ما تعلّمه عند السير چيمس فريزر صاحب « الغصن الذهبى » من ميثولوچيا مقارنة بمهارة فائقة . ولقد تجد فى قصيدة واحدة من « الأرض الخراب » إشارات وتضمينات من سپنسر وشكسپير وداى وجولد سميث وڤرلين ودانتى وأوڤيد وبوذا وسافو ، فهى ملتقى ثقافات شرقية وغربية قديمة وحديثة وثنية ومسيحية . وهكذا الحال فى بقية أعماله . وما هذه الظاهرة الجديدة فى الشعر الاوربى إلا نتيجة النشاط العظيم فى تجارة الفكر بين الشعوب المختلفة واصطباغ الثقافة بالصبغة العالمية فى جيلنا هذا . فالتشابك المطرد فى اقتصاديات العالم الذى نجم عن الانقلاب الصناعى لم يعقّد الحياة الإنسانية فحسب بل استوجب ظهور الحروب العالمية والمذاهب العالمية والنظم العالمية والثقافة العالمية ، و على الجملة أرغم شعوب الأرض على الخروج من حالتها الإقليمية والاتجاه نحو الوحدة والتفاهم فى كل باب من أبواب النشاط المادى والفكرى .

وإليوت إلى كل ذلك يحشو شعره باختبارات شخصية لا يشاركه فيها إنسان ، فمن حوار عارض سمعه فى مقهى « لست بروسية ، وإنما أنا ألمانية أصيلة ، ألمانية من لتوانيا » إلى حادث جرى له « وخرج بى الأرشيدوق ليتزلق على الجليد فاضطربت نفسى » . وهو لا يمهّد لهذه الاختبارات الشخصية بل يدمجها فى السياق إدماجا دون رابط على طريقة التداعى اللامترابط . وهذه الخاصة فى الشعر الحديث نتيجة انسحاب الفنان الفردى المشفق على فرديته منهزما أمام القوى الحضارية الجديدة التى تسحق الفردية سحقاً ، وإصراره على إعلان اختباره

الشخصى الذى يعتز به كلما وجد إلى ذلك سبيلا ؛ فهى بمثابة احتجاج على روح المجموع التى انتشرت بمجىء الانقلاب الصناعى .

والحضارة الآلية التى تحيط بنا قد لوّنت خيال إليوت ونفذت إلى وجدانه . لذلك نراه يكثر من استخدام التشبيهات الآلية ويحدث ثورة فى لغة الشعر لعزوفه عن التشبيهات المستمدة من الطبيعة . فهو يقول فى « پروفروك » : « هيا بنا إذاً نخرج معاً حين يستلقى المساء على السماء استلقاء المريض المخدّر على المائدة » . وهو يقول فى « موعظة النار » : « حين تخفق الآلة البشرية كأنها سيارة مأجورة تخفق فى انتظار راكبها » وهكذا دواليك .

فلا غرو إذاً أن كان شعر إليوت مثالا للجدّة والغموض فى وقت واحد . وقد جذبت طريقته هذه شعراء الشباب فى انجلترا ، أودن وسپندر وماكنيس وسسيل داى لويس وغيرهم وغيرهم ، فإذا نحن أمام مدرسة عظيمة لكل من أبنائها طابعه الخاص ، ولكنهم جميعاً يبنون على أساس إليوت كثيراً أو قليلا . فاليوت بهذا المعنى نقطة تحوّل فى تاريخ الشعر الإنجليزى ، وهو فى هذا لا يقل شأنا عن أصحاب التجارب المعروفة مارلو وملتون ودرايدن وشلى وهويتمان وبقية الخالدين .

٢

وإليوت صاحب « أغنية بروفوك » ليس تماما الشاعر الفلسفى الذى نعرفه اليوم . فقد تطور فنه تطوراً محسوساً مع الأيام ، وهو يتقدم باستمرار من الخاص إلى العام ، ومن الاختبار المادى إلى الاختبار المجرد ، ومن العاطفة إلى الفكر . ولكنه رغم هذا التطور قد احتفظ ببعض الأفكار الجوهرية الثابتة فى جميع مراحل عمره . فاليوت القائل سنة ١٩١٤ : « لقد غرفت معين حياتى بملاعق القهوة » ، هو القائل سنة ١٩٢٥ : « بين التصور والخلق يسقط الظل . بين القلب والقلب يسقط الظل . ما أطول الحياة » ، وهو القائل سنة ١٩٤٠ : « قلت لروحى اهدئى ياروح ، فالأمل الذى تأملين أمل فى الباطل . قلت لروحى : اهدئى ياروح ، فالحب الذى تحملين حب للباطل . لم يبق لك إلا الإيمان ياروحى ، ولكن الأمل والحب والإيمان كلها فى الانتظار » .

فهو شاعر متشائم حزين ، يضيق بالحياة ويجد أنها عبء يبهظ روح الإنسان وهو يحن صابراً إلى يوم خلاصه ، يوم يتحرر سره من بيت الصلصال . غيرَ أن تشاؤمه الأول كان يمتزج بشيء من الميل إلى الدعابة والسخرية ، وحزنه فى صدر حياته كان خالياً من المرارة ، ولقد كان يسخر من نفسه قبل أن يسخر من الحياة .

فلما نشبت الحرب العالمية الأولى مر إليوت فى أزمة روحية كبيرة وخرج منها شاعراً دينيًّا كامل الإعداد . وزال مرحه القليل وفقد الثقة بالحياة والأحياء وحل به يأس مميت . وفى عام ١٩٢٢ نشر « الأرض الخراب » وهى مجموعة من القصائد صوّر فيها ضعف الحياة الإنسانية وعقم الحضارة . ولعلها أهم ما أنتج إليوت فى الفترة الواقعة بين الحربين . وفى عام ١٩٢٥ نشر « الرجال الجوف » ، وهى أبلغ رثاء للعالم نعرفه حتى الآن . وفيها وصف إليوت القحل والمحل وجلس ينعق على أطلال الدنيا ، وهى أشبه بقداس كئيب فى كاتدرائية نخمة مخرّبة .

« نحن الرجال الجوف بالقش حُشينا ، وبالقش حشيت رؤوسنا ، يتوكأ بعضنا على البعض الآخر . فوا أسفاه كلما همسنا خرجت أصواتنا الجافة هادئة خالية من كل معنى كأنها صوت الريح على الحشائش اليابسة أو دبيب أقدام الجرذان وهى تمشى على الزجاج المكسور فى مخابىء الخمر ببيوتنا .

« أما أولئك الذين انتقلوا إلى مملكة الموت الأخرى بلا تردد فلا يذكروننا . فإن ذكرونا لم يذكروا أننا أرواح هائجة ضائعة بل ذكروا أننا الرجال الجوف .

« نحن أشكال بلا قوالب . نحن ظلال بلا ألوان . نحن قوى مشلولة . نحن إشارات بلا حركة .

« تلك العيون التى لا أجسر على مواجهتها فى أحلامى لا تظهر فى مملكة الموت ، مملكة الأحلام . فالعيون هنالك شعاع من الشمس يشرق على عمود محطم ، وهنالك شجرة تترجح وأصوات تسمع فى غناء الريح بعيدة رهيبة ، أشد بعداً ورهبة من نجم يخبو .

« لست أريد أن أقترب من ذلك الشعاع ولا من تلك الأصوات فى مملكة الموت ، مملكة الأحلام . دعنى لذلك أستخفى منها فى جلد فأر أو فى رياش غراب حقيقى أو فى زى غراب المقات بين الحقول أتمايل مع الريح ، فلست أريد أن أقترب .

. . .

« كلا ! لست أريد أن أقترب من ذلك الملتقى الأخير فى مملكة الشفق .

« هذه هى الأرض الموات ، هذه أرض الصبّار . هنا أقمنا الأصنام ، وهنا يرفع الموتى أكفهم ضارعين إلى الأصنام على مشهد من نجم خابٍ يتلألأ قبل أن يتوارى .

« أهكذا الحال فى مملكة الموت الأخرى ؟ أنستيقظ هكذا وحدنا ونحن ننتفض بالأشواق، فإذا شفاهنا التى خلقت للقبلات تتمتم بالصلوات للحجر المحطم .

« العيون ليست هنا . فما هنا عيون فى هذا الوادى الأجوف وادى النجوم الخابية ، ما هنا عيون فى هذه المملكة الضائعة ذات الفك المكسور .

« هذا مكان اللقاء الأخير ، وفيه نجتمع ونتحسس طريقنا معاً عند شط النهر العارم ونتجنب الكلام وقد عميت أبصارنا فلا نجد ما نهتدى به إلا أن تظهر العيون من جديد وتثبت أمامنا كالنجم الخالد ، كالوردة كثيرة الأوراق فى مملكة الشفق ، مملكة الموت ، وهى أمل الرجال الجوف دون سواهم .

« ها نحن نرقص حول شجرة الصبّار ، شجرة الصبار ، شجرة الصبار . ها نحن أولاء نرقص حول شجرة الصبار فى الساعة الخامسة صباحا .

« بين الفكرة والحقيقة يسقط الظل . بين الحركة والفعل يسقط الظل . لك الملك يا رب .

« بين التصور والخلق يسقط الظل . بين القلب والقلب يسقط الظل . ما أطول الحياة .

« بين الاشتهاء ولحظة التحقق يسقط الظل . بين القدرة والوجود يسقط الظل ، بين الأصل والفرع يسقط الظل . لك الملك يا رب .

« لك الملك . . . ما أطول . . . لك الملك يا . . .

« هكذا تنتهى الحياة . هكذا تنتهى الحياة . هكذا تنتهى الحياة . تنتهى بزمجرة مكتومة لا بقرع الطبول » .

ولقد لوحظ أن الحروب الكبرى تنتهى عادة بطائفة من الظواهر بعضها طبيعى وبعضها اجتماعى وبعضها نفسى ، فتكثر الأوبئة ويزداد عدد المواليد من الذكور وتنتشر المذاهب الجديدة والأزياء الفاضحة والاستهتار الجنسى ونزعات التصوف والجمعيات الدينية ومخاطبة الأرواح . ولا غرابة فى ذلك فالمحن تكسر روح الانسان ، وإليوت شاعر عامر بإنسانيته .

وقصائد « الأرض الخراب » و « الرجال الجوف » نماذج جيدة لهذا الحزن العميم . وشعر إليوت فى فترة ما بين الحربين شعر الكارثة ، وفنه منصرف إلى استنباط الرموز الصالحة للتعبير عن جدب الحياة الإنسانية . وهذا الرمز فى « الرجال الجوف » لون من التصوف المسيحى لأن فيها تصويراً لرؤى تجلت أمام الشاعر فى عالم المجهول . ولكنه تصوف محدود لأن الرؤيا غير واضحة ، وهو تصوف مستعار من تأولات الغير وليس تصوفاً صادقاً مبنيًّا على الاختبار المباشر . وهو ثمرة اجتهاد المفكر فى اختراق حجب الغيب أكثر منه إشراق الصوفى فى ساعة الوجد . بل لولا تلك العيون التى يراها الشاعر فى مملكة الموت تشرق كشعاع الشمس على العمود المحطم لما كان هناك تصوف ولا رؤيا . ونحن نحار فى تفسير هذه العيون ولا ندرى أهى عيون الحكمة الإلهية أو عيون الضمير الإنسانى أو عيون أخرى يراها إليوت وحده من دون خلق الله . ولكنها على كل حال تذكرنا بعينى بياتريس محبوبة دانتى اللتين جاء فى « الكوميديا الإلهية » أن لهما ضياء يغشى الأبصار ويؤذى الناظرين . ولا حرج من هذا الفهم لأن إليوت لا يريد أن يقترب من الضياء لئلا يتلفه الضياء ، بل يريد أن يستخفى منه فى جلود الفيران وفى رياش الطيور . كذلك تذكرنا الوردة كثيرة الأوراق بما جاء فى « الكوميديا الإلهية » من أن الملائكة تجتمع فى صورة وردة حول الله فى أعلى طبقة من طبقات الفردوس . ولكن الخطر كل الخطر أن نجزم بشىء نهائى فى هذا السبيل .

ويغض من صوفية إليوت أنه غاضب ويائس وحزين . والصوفية الحقة تتنافى مع كل هذه العواطف الكدرة ؛ لأن الصوفية تقوم على الاندماج فى الكل والاتحاد مع سر الكون وسقوط الغشاء الذى يعوق الحواس من التغلغل فيما وراء الظواهر . وحالة الاشراق هذه تبعث فى النفس الرضا المطلق كما فعلت مع وردزورث وجيتى . وكيف يغضب أو ييأس أو يحزن من يرى وجه الله ؟ و « الأرض الخراب » و « الرجال الجوف » تعبران عن إرادة الموت الكامنة فى المجتمع الأوربى ، تلك الإرادة التى نجدها واضحة قوية فى كتاب شپنجلر « انهيار الغرب » . وإليوت لم يصل قط إلى الصفاء الأبدى ، أو النرفانا بلغة الهنود ، فهو إذاً ليس شاعراً صوفيًّا بل شاعر دينى على طريقة خاصة ، أو شاعر مسيحى كنسى .

وقد انتقل فعلا من المرحلة الأولى من حياته الفنية ، مرحلة الغضب واليأس والحزن ، إلى المرحلة الثانية مرحلة الدعوة لعقيدة إيجابية ، فاعتنق الكاثوليكية على طريقة الإنجليز لا على طريقة روما ، وتزل عن جنسيته الأمريكية وتجنس بالجنسية الإنجليزية ، وأعلن فى الناس أنه ملكى لا يقر المبادئ الجمهورية التى تسير عليها الولايات المتحدة ، وجهر بأنه محافظ يحافظ على التراث الإنسانى من التجارب الخطيرة الجديدة . وفى عام ١٩٣٠ طلع على الناس بمجموعة جديدة من القصائد هى « أربعاء أيوب » وحيها مستمد من الروح الكاثوليكية ، ومن بعدها مسرحية منظومة هى « جريمة فى الكاتدرائية » تصور مقتل القديس الإنجليزى توماس بيكيت فى العصور الوسطى .

ثم دخل فى المرحلة الثالثة من حياته الفنية عام ١٩٣٦ ولم يخرج منها إلى اليوم . وتتميز هذه المرحلة بانصراف إليوت عن الشعر الدينى واشتغاله بالشعر الفلسفى كما نعرف من ديوانه الأخير « أربع رباعيات » ، وهو محصول كهولته الأخيرة أو شيخوخته الأولى . وكأنما يئس إليوت من إذاعة جوهر الكاثوليكية فى الناس فاكتفى بمخاطبة جمهور محدود من الأصفياء والمتأملين . وهو الآن شاعر ميتافيزيقى ، شاعر متأمل فيما وراء الطبيعة على نهج فكرى ، يعرف وظيفته ويرضى فيما يلوح بها ؛ لأن مرارته الأولى قد غادرته وإن بقى له حزنه الأول ويأسه الأول . وهو فى الرباعيات الأربع ، يحاول كما يقول الناقد ، هاردنج أن يخلق فكرتنا عن الأبدية خلقاً جديداً . يقول إليوت فى الرباعية الأولى واسمها « بيرنت نورتون » :

« لعل الزمن الحاضر والزمن الماضى كلاهما مشتمل فى الزمن المستقبل ، ولعل الزمن المستقبل مشتمل فى الزمن الماضى . وإذا كان الزمن بكليته حاضراً حضوراً أبديًّا فالزمن بكليته ضائع بغير رجعة . وما كان يمكن أن يكون تجريداً له إمكانية دائمة فى عالم الافتراض وحده . وما كان يمكن أن يكون وما كان فعلاً يهدفان إلى نهاية واحدة حاضرة على الدوام . وفى الذاكرة يتجاوب وقع خطانا فى الدهليز الذى لم نطرقه ، الدهليز المفضى إلى الباب الذى لم نفتحه قط ، الباب المفضى إلى حديقة الورد . وهكذا تتجاوب فى ذهنك كلماتى . »

ثم يقول :

« والزمن الماضى والزمن المستقبل لا يتركان للوعى مجالا كبيراً . والوعى لا يكون بالوجود فى الزمن ولكن بالزمن وحده نذكر لحظة الوجد فى حديقة

الورد ، ولحظة الوجد فى الشجرة التى لطمتها الأمطار ، ولحظة الوجد فى الكنيسة التى تخترقها تيارات الهواء حين يتكاثف الدخان . أجل نذكرها مشتبكة بالماضى وبالمستقبل . وبالزمن وحده نقهر الزمن . »

ثم يرشدك إلى طريق الخلاص فيأمرك أن

« إهبط إلى العالم السفلى ، إهبط إلى عالم العزلة الدائمة ، العالم الذى ليس عالماً ولكنه ما ليس بعالم ، حيث الظلام داخلى ، حيث الفقر كامل وكل ملكية قد نزعت ، حيث عالم الحس قد يبست أليافه وعالم الخيال قد خوى من أحلامه وعالم الروح قد بطلت وظيفته . فهذا العالم ليس بعالم هو الطريق الأوحد . »

وهو فى الرباعية الثالثة واسمها «الصخور الثلاث» يتحدث عن السعادة فيقول :

« ولحظات السعادة ـ لست أقصد الإحساس بالانتعاش أو بلوغ الوطر أو تحقق الهوى أو الطمأنينة أو العطف ، بل لا أقصد شعور الرضا الذى يأتينا من أكلة فاخرة ، وإنما أقصد الإشراق المفاجىء ـ لحظات السعادة هذه عرفناها ولكن فاتنا مغزاها . وأردنا أن نختبر المغزى فاختبرنا لحظات السعادة من جديد ، ولكنها عادت إلينا فى قالب آخر ليس فيه مغزى يدخل تحت مدلول السعادة . »

فاليوت كما ترى يتقدم فى شعره من الدين إلى الميتافيزيقا ، وهو يحدثنا عن لحظة الوجد فى حديقة الورد وفى الشجرة المبتلة وفى الكنيسة التى تتناوح فيها الرياح ، وهو يحدثنا عن لحظة الإشراق وما يجلبه له من سعادة ، ولكنه يعترف دون وعى منه بأن الصوفى فيه قد أفلس أمام المفكر ؛ لأن لحظات الوجد عنده لا تطول من ناحية ويستعصى مغزاها على فهمه من ناحية أخرى . فهى كالرؤى التى كان يراها فى مرحلة تديّنه قصيرة وباهتة . ولست أزعم أن الصوفى يفهم ما يملأ نفسه من إشراق ساعة الاتصال بالمجهول ، ولكن إليوت يريد أن « يفهم » مغزى الإشراق ولا يكتفى باستيعابه والتعبير الخام عنه كما يجب أن يفعل الصوفى الأصيل . وهو فى لحظة انبلاج النور هذه لا يزال واعياً يتذكر مدلول السعادة الأرضية كما نعرفها نحن الفانون ويضاهيها بالسعادة الإلهيـة التى تغمره فيدرك أن بينهما اختلافا . وهذه عملية عقلية تثبت أنه صوفى مزيَّف ، أو على الأقل أنه يجتهد التصوف اجتهاداً ولا يكتفى فى تأملاته الميتافيزيقية بنزهة عقله وراء تخوم الأبد . ولعل إعداده الدينى المسيحى الكاثوليكى الأول هو سر إصراره على استخدام حواسه فى عملية الاتصال بالمجهول على طريقة المتصوفة .

٣

مهما يكن من شىء فإن إليوت يمثل اتجاها عظيم الشأن فى القرن العشرين . وأصدق وصف له ولأمثاله من أدباء الكارثة قول الشاعر العظيم سپندر فيهم إنهم عوامل هدم فى المجتمع الراهن ، وإليوت بينهم سيد الهادمين . فهو روح قديم هائم عابر القرون ، وهو عبقرى ولد بعد جيله بأجيال ، فزمانه الطبيعى هو العصور الوسطى وبيئته الطبيعية هى حضارة الإقطاع ، وهو نهاية مدنية بائدة أو نرجو أن تبيد .

عجز إليوت عن فهم الضرورات المادية والروحية فى التطور التاريخى المشهود الذى أصاب المجتمع منذ الانقلاب الصناعى ، لأنه من فلول الأرستقراطية اللاصقة بالأرض ، فنقم على الآلة وعلى أصحاب الآلة وعلى حضارة الآلة ، وخيّل إليه كما خيل إلى صاحبيه عزرا پاوند ، وت . إ . هيوم أن الإنسانية قد انتحرت عام ١٧٨٩ ، عام الثورة الفرنسية البورچوازية التى وضعت حدّا لنظام الأشراف ومهّدت للنظام الرأسمالى . ولعل نشأته الأمريكية قد ضاعفت مقته للبورچوازية ففى أمريكا تطوّرت الحياة الآلية تطوراً سريعاً خاطفاً مزعجاً عصف بأكثر القيم الإنسانية الموروثة . وفى أمريكا شاهد إليوت البلوتوقراطية فى أشنع صورها ، أى حكم كبار المموّلين ، تلقب نفسها زوراً بالديمقراطية ، وتموّه على الشعب باسم الحرية وتكافؤ الفرص ، فكان طبيعيًّا أن يغضب ويحزن وييأس .

ولقد وجد فريق من الغربيين فى الثورة الروسية العمالية ، ثورة ١٩١٧ مخرجا من المحنة التى أنزلتها الرأسمالية ببنى الإنسان . ولكن إليوت لم يجد فى الحضارة العمالية شفاء للبشرية من أوجاعها الروحية ، بل وجد أن إحلال الشيوعية محل الفردية كالاستجارة من الرمضاء بالنار . ففلسفة إليوت إذاً ثورة على ثورتين لا على ثورة واحدة ، ومن هنا كانت رجعيته الأكيدة . ولو أنـّه كان من أهل هذا الجيل لتفاءل رغم ما يراه من صور الدمار بدل أن يحزن ، ويظنّ بالإنسانية خيرا رغم وحشيتها وأنانيتها وغفلتها بدل أن يضمر لها سوء الظن ويعلن على الناس عقمها الأبدى ولآمن بأن اليوم أجمل من الأمس وأن الغد أجمل من اليوم . ولكنه لم يفعل من ذلك شيئاً لأنه مفكر طبقى يندب طبقته التى اختفت وتختفى مع زبد القرون . قال فى ص ٣٦٣ من كتابه « مقالات مختارة » :

« إن العالم يقوم الآن بتجربة ألا وهى تكوين عقلية متمدنة لا تقوم على الثقافة المسيحية ، ولسوف تخفق هذه التجربة . ولكننا لن نرى إخفاقها إلا بعد أجيال وأجيال . فلنصبر طويلا ولنحتفظ بالإيمان طوال هذه العصور المظلمة التى تنتظرنا لنبنى الحضارة ونجددها وننقذ العالم من الانتحار . »

فهو ينظر إلى الكنيسة نظر الماركسى إلى الدولة الشيوعية أى يعدّها غاية الحضارة ودعامتها الأولى . وهو يخلط بين قيم الدين وقيم الدنيا ، حتى ليقحم بالكنيسة فى أخص شؤون الحياة الشخصية والاجتماعية كضبط النسل مثلا ، فيقول فى ص ٣٥١ من « مقالات مختارة » إن « فى هذه المسألة قبل سواها لا مفر للإنسان من أن يستهدى المشتغلين بالشؤون الروحية ، فنداء الضمير والحكم الشخصى لا يعول عليهما . كذلك ينبغى أن تقدم مشورة القساوسة على مشورة الأطباء بصفة قاطعة لأن مشورة الأطباء مضطربة . » وهو يحض على اتباع تعاليم الكنيسة فى تربية النشء فيقول فى ص ٣٤٩ إن « التأمل والدراسة وتعذيب النفس والتضحية هى المبادئ التى ينبغى أن يراض عليها الشباب » . ولقد يبدو هذا الرأى فكرة تربوية مألوفة ولكنه عند إليوت مرادف لفكرة الرهبانية . حتى السياسة لم تسلم من لفتاته ، ولقد تقرأ بعض نظرياته الاجتماعية فى ص ٢٠ من كتابه « البحث عن الآلهة الغريبة » فتخال أنك تقرأ صفحات من كتاب هتلر « كفاحى » :

« ينبغى أن يكون الشعب ذا صبغة واحدة ، فحيثما التقت ثقافتان فى صعيد واحد فالمنتظر أن تتناصرا أو تفسد إحداهما الأخرى . وأهم مافى الموضوع أن يكون التراث الدينى فى الشعب متحدا . والدواعى العنصرية والدينية تجعل كثرة المفكرين الأحرار من اليهود أمراً غير مرغوب فيه . كذلك لابد أن يكون هناك توازن واضح بين نمو المدينة ونمو الريف ، بين التطور الصناعى والتطور الزراعى ، ثم إن الإسراف فى التسامح أمر معيب » .

وهذا الاتجاه الفاشى فى إليوت منطق مع أركان فلسفته الأخرى ومع رسالته الفنية . وإذا لم نجد بأسا من أن نقول إن الفاشية إجمالا هى الإقطاعية الصناعية اتّضحت أصول هذا الاتجاه وأمثاله فى الشاعر الرجعى الناقد الرجعى توماس ستيرنز إليوت .

لويس عوض

الخط الكوفي

[ينسب المؤرخون إلى الكوفة طرازا من الخط العربى تناوله الخطاطون فيها بالتجميل والتنقيح ، منذ منتصف القرن الأول الهجرى ، وكان له فى البلاد الاسلامية حظ واسع ، حتى شمل تاريخ هذا الخط تاريخ الاسلام بأسره]

كانت الحروف العربية منبعجة ، مفرطحة ، متباينة الأشكال ، وكانت أبعد حروف الكتابة فى جميع اللغات عن المظهر الزخرفى . ولعل ما وصلت إليه هذه الحروف من المكانة الفنية يعد من أكثر التطورات التاريخية غرابة . فقد أصبحت الكتابة الكوفية أولى الكتابات كلها تناسقاً ، وأبدعها زخرفاً ، واستطاع رجال الفن ، منذ ذلك العصر أن يضعوا لها قواعد وأصولا ، بنى الخط العربى عليها ، واستخرجت منه صور متناسبة وأشكال بديعة ، بعد ما كان اعوج من حروفه ، مفرداً ومركباً ، فانتصب منها ما كان مائلا ، وانسطح ما كان منكبا ، وروعى أن تؤدى صور الحروف حسناً فى العين شبيها « بحسن مخارج اللفظ العذب فى السمع » .

وما زال رجال الفن الإسلامى يُخضعون هذه الحروف لغريزتهم الزخرفية ، بالتطويل تارة ، وبالحشو تارة أخرى ، وبالتبسيط والانتقاء والتسلسل ، حتى اكتسبت رؤوسها وأطرافها وضوحاً فى المعنى وفى التسطير .

بدأ الخط الكوفى مرحلته الفنية مرتبطاً بالبناء ، متمما له مندمجاً فيه ، فأفاض على بساطة جدرانه روحا من السلاسة والاطمئنان ، وتجمعت فى هذا الخط كل معانى الزخرف والجمال ، فما كان البناء جميلا إلا به . وسرعان ما استقرت فكرة الجمال هذه فى النفوس ، وتمكنت حتى تخطت الكتابة الكوفية المبانى ، وانتشرت

على كل ماكان ينتجه رجال الفن الإسلامى من الأثاث والأقمشة والأوانى .
واتخذت الكتابة الكوفية ، فى أول الأمر ، زخرفها من حليتها ، فلما تكونت أسسها وأصولها ، واستخرجت منها صور قائمة بذاتها ، أصبحت عنصراً منفرداً من أهم عناصر الزخارف الإسلامية . وما لبثت أن تطورت هذه الصور وتنوعت ، واكتست بحلى وزخارف مشتقة من الأزهار والنباتات ، وتفرعت منها عروق وسيقان ، وتشعبت وتعقدت ، وتعانقت ، وطغت عليها الزخارف حتى أصبح النظر يضطرب حائراً ، لايدرى أين تبدأ الكلمات فيها ، وإلى أين تنتهى .
وليس لهذا فحسب احتل الخط الكوفى مكاناً ممتازاً بين عناصر الزخارف الإسلامية ، فإلى مظهره الزخرفى البديع وجماله الفنى ، كان هذا الخط يحمل فى حروفه تعبيراً دفيناً ؛ كان ينشر أمام المؤمنين آيات القرآن ، فكان يبهر أنظارهم ويحرك مشاعرهم ، ويثير إيمانهم . إذ أراد رجال الفن الإسلامى أن يكون للكتابة الكوفية معنى أسمى من الزخرف العادى ، فأودعوها سراً يحمل الناظر إلى أفاريز المساجد وإطارات المحاريب على الخشوع والإعجاب .
كان المسلم وحده كفيلا بإدراك هذا السر ، ولكنه لم يكن له دون غيره حظ الانفراد بتذوق الروح الزخرفية التى تشع من ثنايا حروف هذه الكتابة . فقد شاركه الأوربى فى هذا الحظ ، مشاركة لا تقتصر على إمتاع النظر ، بل فى متابعة تطورها واقتباس ما توحيه من روح فنية ، ترتكز على التناسق فى التكرار وعلى الاتزان فى التماثل .

للعلاقات الفنية بين الإسلام وبلاد الغرب تاريخ حافل . نشأت هذه العلاقات مما كانت تتبادله أمم العالم حينئذ فى تجارتها من المنتجات الفنية ، من أقمشة وسجاد وصور وخزف وصناديق من العاج وتحف من المعدن . وازدادت رابطة العلاقات توثقاً مما كان يشاهده من آثار الإسلام أفواج الحجاج فى طريقهم إلى « كومبستلو » فى شمال أسبانيا ، ومما كان يلمسه الصليبيون فى حروبهم وإقامتهم ومرورهم بالشام ومصر . ونشأت علاقات أخرى أساسها الرحلة وتبادل السفارات والرسائل بين الأمم الإسلامية والمسيحية ، ودور العلم والعلماء . وتسربت هذه الصلات من جهة أخرى فى إيطاليا من اتصال أهلها بالمسلمين فى صقلية ، ومن انتقال المسلمين ، علماء وعمال ، إلى أنحاء مختلفة فيها .

وكان لهذه العلاقات آثار كبيرة فى تطور العلوم والفنون والآداب، وفى تطور الحياة الاجتماعية والسياسية. وسنقتصر اليوم على التحدث عن أثر من هذه الآثار العديدة، هو الخط الكوفى وما لقيه من الإنتشار الواسع فى الفن الأوربى.

ظلت حقيقة هذا الانتشار سرًّا مجهولا حتى منتصف القرن التاسع عشر إذ فطن أحد العلماء إلى طبيعة هذا العنصر الزخرفى وإلى اشتقاق أساليبه فى الفن الأوربى من الخط العربى. وتعددت البحوث فى هذا الموضوع منذ ذلك التاريخ، ولكنها لم تنته بعد لوفرة محصولها؛ إذ أن هذا الخط الكوفى اتخذ حلية فى تحف وآثار لا حصر لعددها فى جميع بلاد أوربا، وهو لهذا يعد من أكثر العناصر الزخرفية انتشارا فى العالم وفى التاريخ.

كانت الفكرة الزخرفية هى وحدها التى أوحت إلى الفنان الأوربى، منذ القرن العاشر، فكرة الاقتباس من الحروف العربية وكتابتها، بالحفر على تيجان الأعمدة فى الكنائس، وعلى أقواس بواباتها، أو بالتصوير على صفحات الإنجيل أو لوحات القديسين.

والأمثلة على ذلك عديدة، نجدها فى اليونان على لوحة رخامية من إحدى الآثار البيزنطية فى أثينا، تمثل فهدين متقابلين يحيط بهما إطار من كتابة كوفية، ونجد هذا العنصر الزخرفى منتشراً فى التحف والآثار البيزنطية التى تنتمى إلى منتصف القرن الحادى عشر والتى صنعت أو أقيمت فى منطقة «طيبة» و «أثينا» و «كالماتا» — وفى هذه البلدة الأخيرة كنيسة وهبت للقديس خرالمبوس، وبها زخارف كوفية تنم عن صورة من أبدع الابتكارات المسيحية لهذه الزخارف؛ فإن سيقان الحروف القائمة لاسم الله تمتد فى ناحية بتناسق وثبات، وتجتمع فى ناحية أخرى، بحيث يتكون منها شكل الصليب الإغريقى، وهو الصليب المتساوى الأضلاع. ولعل هذا مثل فريد لارتباط المسيحية والاسلام؛ فقد تجمع رمزا المسيحية والإسلام فى لوحة واحدة وكتبا عليهما بأسلوب واحد، وبنفس الخط العربى.

ولكل فنان هواه وخياله، واقتباس هذا الخط فى إيطاليا فى العصور الوسطى يلبس حلية جديدة، وينتشر فى أطرافها وبلادها. ومن التحف الإيطالية فى هذا النوع مالا يشك الناظر إليها فى أنها مكتوبة بيد من تلك الأيدى التى

سطرت آيات القرآن ، على جدران مساجد الشرق والأندلس . وترى أكثر هذه التحف جمالا وإتقاناً فى «كانوسا» تلك البلدة التى ذهب إليها الإمبراطور هنرى الرابع خاضعا ذليـلا يلتمس العفو والرضاء من البابا « جريجوار السابع » . على باب مقبرة فى تلك البـلدة دائرة زخرفية مقتبسة من الخط الـكوفى المزهر ، أساسها حرفان : أحـدهما قائم والآخر مقور ، وينتهى هذا الحرف الأخير ، بوريقة زهراء تنحنى فى رشاقة وإبداع .

أما فى أسبانيا وفرنسا فقد تعددت الأشـكال وتنوعت . وأكثرها جرأة ما يشاهد فى إفريز منحوت فى مذبح من كنيسة « أوفيدوا » ، وقد حاول ناحته أن ينقل كلمات « بسم الله الرحمن الرحيم » كاملة ، ولـكنه خلط بين حروفها ، وألصقها بعضها ببعض ، وحذف البعض الآخر ، حتى لم يبق منها كلمة واحدة سليمة . ومع ذلك فقد وفق ، ونجحت محاولته نجاحا يجعل الناظر إلى هذا المذبح يشغل بالإفريز الـكوفى ، عما يجرى حوله وتحته من صور دينية بديعة .

ولم يقتصر التعلق بالزخرفة الـكوفية على رجال النحت والعمارة ، بل تعداهم إلى غيرهم من رجال الفن ، فاتخذها المصورون فى إيطاليا عنصراً مكملا لزخارفهم . وانتشار النقوش الـكوفية فى فن التصوير هذا له دلالة خاصة . فهى متخذة فيه حلية مطرزة على أقمشة ثمينة ألبسها المصورون الإيطاليون كبار الشخصيات التى رسموها . فإنا نرى العذراء والمسيح والقديسين والرسل والشهداء يلبسون هذه الملابس الشرقية الفاخرة التى تجرى الحروف العربية عليها بألوان مذهبة أوزاهية . ولم يجد أحد المصورين ستارا يسدله خلف سرير للإمبراطور « قسطنطين » ، ويكون جديرا بعظمته وسمو مركزه ، إلا أن يطرزه فى لوحته بكتابة عربية .

كل هذا يدلنا من ناحية على أنه فى هذا العصر الذى يمتد من منتصف القرن الثالث عشر إلى أواخر القرن الرابع عشر ، كانت الأقمشة الإسـلامية المطرزة بالـكتابة الـكوفية ، تغمر أسواق إيطاليا ، وكانت هذه الأقمشة ، صوفية وكتانية وحريرية ، أبدع ما يعرضه التجار ، وأثمن ما يلبسه العظماء والأثرياء . وهل كان هنالك أجل مما يلبسه المصور للعذراء والمسيح والإمبراطور قسطنطين !

هذه ناحية من نواحى الحضارة الإسلامية ، لعل لنا إليها عودة إن شاء الله .

أما المصورون الذين خلدوا الخط الـكوفى فى لوحاتهم فهم طائفة عدة ، أقدمهم بنا عهدا « دوتشيو » و « جيوتو » ، وأقربهم « غرلندايو » و « رفائيللو » .

وأما أعمالهم فتحتفظ بها كنائس « بيزا » و « الفاتيكان » و « أسيز» و « بادوا » و « سيينا » وتزدان بها متاحف فلورنس وبرلين واللوفر ولندره وبوسطن .

ولعل هؤلاء المصورين وغيرهم قد فطنوا إلى مصدر الزخرفة التى أحاطوا بها هالة العذراء ، وكفن القديس بطرس وبولص ، وإلى أنها تحمل اسم « الله » ، وكان هذا فى ظنهم ، تعبيراً للكفر والإلحاد . وكان الخط الرومانى قد تطور فى المخطوطات ودخلت عليه الزخارف ، من أزهار وطيور ، فاتخذه المصورون طرازاً لأقمشتهم واستبدلوه بالخط الكوفى ، فأصبحت الأقمشة الإسلامية محلاة على صور المصورين بالخط اللاتينى ، فكان ذلك إلهاما أوحاه الخط الكوفى ، وظفر به منافسه القوطى .

ولعل أغرب ما نلحظ فى تطور هذا الخط ، تلك المرحلة التى وصل إليها ، مقتفيا أثر الاقتباس الأوربى للخط الكوفى ؛ إذ تعقدت الحروف اللاتينية واقتصر المزخرف على أن يضع منها حروفاً ، ثم يتناول هذه الحروف فى المجموعة الزخرفية الواحدة ، بالتكرار والإمتداد والتشبك والتعقد ، حتى أصبحت زخرفاً بعيداً عن أى معنى لغوى ، وحلية فنية فى حد ذاتها ، وسرًّا قصد به المصور أن يضع المشاهد موضع الحيرة ، وأن يترك له التكهن بالمعنى الذى يميل اليه ، أو الذى توحيه العقيدة أو الخيال .

وهكذا اتخذ رجال الفن فى أوروبا من الخط الكوفى أساساً لعنصر زخرفى ، ثم أحلوا الخط القوطى محله ، وصوروا حروفه بحيث تظهر بمظهر الخط الكوفى ، وتعبر عما يعبر عنه من الزخرف والجمال . واختلطت بعد ذلك ، الكتابة القوطية بالكتابة الكوفية ، وظل التمييز بينهما ، فى أوروبا ، سرًّا دفيناً طوال خمسمائة سنة .

وغريب أن تكون جميع الاقتباسات الكوفية فى الفن المسيحى قد ارتبطت كلها بعضها ببعض ، برابط واحد رغم اتساع بلدانها وبعد الشقة بينها . فهى كلها تقتبس من الحروف العربية سيقانها ورءوسها ، أما بطونها وأذنابها ، فقلما ظهرت فى مجموعات رجال الفن ، بل إن الألف وحدها هى قاعدة الحروف « وباقى الحروف متفرعة منها ومنسوبة إليها » . وتشابهت بالألف حروف كثيرة فى الخط الكوفى حتى إنك قد لا تجد كلمة واحدة مكتوبة به تخلو من الألف أو اللام أو مما شابههما . ولهذا اختلطت هذه الحروف على رجال الفن المسيحى وحسبوها

زخرفاً يدور حول عنصر واحد قوامه ساق الألف ورأسها . ولهذا أيضاً فإن كل ما كنا نعرفه من زمن قريب ، من اقتباسات أوربا للزخرفة الكوفية لا تخرج عن تكرار لحرفى الألف واللام ، ولا تؤدى فى اللغة معنى من المعانى ، فهى كلمات غريبة عن اللغة العربية ، خلقها ارتقاء الخيال وزخرفه .

ليس فى هذه المجموعات المنتشرة فى بلاد أوربا جميعاً ما يخرج عن هذه القاعدة إلا أثر واحد ، احتفظت به الأجيال المتعاقبة منذ نحو تسعمائة سنة ، فى كنيسة فى وسط فرنسا .

هذه الكنيسة هى كاتدرائية العذراء فى « البوى » . وذلك الأثر هو بابها الخشبى . وقد تنوعت التأثيرات الفنية الإسلامية فى هذه الكنيسة التى أقيمت فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ؛ فقبابها وزخارفها تتصل عن قرب أو عن بعد بالفن الإسلامى فى المغرب والأندلس . وبابها الذى نعنيه ، منحوت على خشبه صور من حياة العذراء ، بقى منها ست لوحات تمثلها مع ملوك المجوس ، وأمام البشرى . وتمثل ملاكا يبشر الرعاة بمولد اليسوع . وعلى هذه اللوحات كتابة لاتينية تفسر الصور التى تحتها .

وللباب مصراعان ، ولكل مصراع إطار يدور حوله ويحصر فى داخله اللوحات المنحوتة المصورة . وهذا الإطار حلية زخرفية مقتبسة عن الخط الكوفى . ولكن هذه الحلية لاتقتصر على العنصر الزخرفى فهى جملة مكتوبة ، وإن كانت خفيت على جميع من درسوها وامتدحوا زخرفها ، إلا أنها واضحة تقرأ فيها « ما شاء الله » وهى جملة إن لم يقرأها الكثيرون فقد نطقوا بها عند صعود أدراج هذه الكنيسة المرتفعة ، ومشاهدة بنيانها وهيئتها وزخرفها . أو ليس « ما شاء الله » تعبير عن الإعجاب والتقدير ! وهل أراد نحات هذا الباب أن يسجل عواطف المصلين حين تستقبلهم العذراء على أبواب بيتها ومعبدها ؟

تجرى « ما شاء الله » وتتكرر بانتظام حول كل مصراع من مصراعى باب الكنيسة . وليس فى تكرارها إلا خطآن خفيفان : أحدهما اضطر إليه النحات فى ركن من أركان الباب ، ضاق المكان بكلمة من الجملة فحذفها . والخطأ الآخر سهو غير مقصود فى ركن آخر من أركانه إذ تكررت كلمة مرتين . أما فيما عدا ذلك فإن الكلمات تكررت فى صحة وصواب ، عن ثقة واطمئنان ، بل فيها أكثر من ذلك ، فيها أن النحات حور ونوع فى مخارج الحروف وبطونها ورءوسها ، فهو تارة

يكتب رأس الشين الأوسط منثنياً بوريقة لها ثلاث حلقات ، وتارة ينهيه بوريقة ذات خمسة أقواس ، فكأنه ينتقى من أساليب الزخرفة الكوفية أنواعاً يودعها كلماته ، حتى يخدع الناظر ويحرك خياله فى تنوع التكرار دون أن يقف أو يمل .

هذه أول مرة (فيما يعرف من تحف العصور الوسطى المسيحية وآثارها) كتبت فيها جملة كوفية كاملة ، ذات مغزى ومعنى ، مقروءة مفهومة ، فهى أنموذج فريد فى نوعه ، وهو اقتباس وحيد فى تكوينه وإخراجه .

ليست هذه الكتابة مقتبسة مما كان يغمر أسواق المسيحية من صناديق الخشب العاج ، وأقمشة الكتان والحرير ، وأوانى الخزف والفخار ، وتحف النحاس والحديد التى كان ينتجها رجال الفن الإسلامى فى تلك العصور ، ويبدعون صنعها ، بل كانت هذه الكتابة منقولة نقلا عن إحدى الآثار الإسلامية التى كانت زاهرة فى بلاد الأندلس .

ويجد المتجول اليوم فى آثار مدينة الزهراء فى الأندلس قطعاً من الحجارة عليها نقوش كوفية . ويستطيع الباحث أن يقارن بين هذه النقوش وبين نقوش باب العذراء ، فيخرج من بحثه مقتنعاً بأن هذه صورة مطابقة لتلك ، ونقل صادق أمين عن أصل صحيح سليم . وليست عراقات الحروف ورؤوسها وبطونها وأذنابها تتشابه فى نقوش البلدين ، بل إن نقوش باب العذراء تطبق عن علم ومعرفة ما اتفق على أن يكون أصولا فى فن الخط الكوفى ، بالرغم مما يلاحظه المدقق فيها من ضعف فى التوازن وقصور فى الرشاقة ، وهما ميزتان يعهدهما القارئ فى الكتابة الأصلية ، وبالرغم من أن نقوش باب العذراء ينقصها شىء من دقة الرسم ، ويعوزها بعض من التمكن فى النحت .

هذا من حيث اقتباسها وتكوينها . أما من حيث إخراجها فقد اتبع مخرجها فى صناعته قواعد فى النحت انفرد رجال الفن الإسلامى بتطبيقها فى تلك العصور . فالنقوش مسطحة قطعت حِيَفُها قطعاً مستقيما لا انحناء ولا تقرير فيه ، بحيث تمتد على بساط مسطح أيضا ، وبحيث تظهر كأنها حروف مستقلة ألصقت على سطح الباب الخشبى ولم تنحت فيه . وكذلك الحال فى الصور المنحوتة على هذا الباب ، والتى تمثل حلقات من حياة العذراء ، سويت أجسامها فهى منبسطة ، ليس فيها انحناء أو تقوس يؤدى مظهر التجسم ، وقطعت حيفها بحدة لا ميل فيها ، فظهرت فوق أرضية منبسطة أيضاً ،

كأن هذه الصور ملتصقة على أرضيتها ، وليست بارزة منها ، مندمجة فى كتلتها . هذا النحو من النحت الذى تستوى فيه الأجسام ، والذى لا يظهر فيه إلا مسطحان مدرجان متوازيان ، كان ابتكره رجال الفن الإسلامى ، واتبعوه فى كثير من تحفهم الخشبية والحجرية المنحوتة ، وانتشر منهم فى بلاد أسبانيا وإيطاليا وفرنسا ، واقتبس عنهم فى الفن البيزنطى .

نقوش باب العذراء إذن مطابقة من وجوه عدة لأصول النحت والكتابة الكوفية ، بالرغم مما نلحظه فيها من اختلاف يسير فى النقل وتردد فى الاخراج ، يدل أن صاحبها لم يكن خبيراً بهذه الأصول ، أو أن بعضها كان قد خفى عليه .

وهو لاشك كان غريباً عنها ، فلم تكن العربية لغتــه ، ولم تكن الكوفية كتابته ، ولم يكن الإسلام دينه ، ولكن خياله كان خصباً ، وكانت مداركه وسعت فنون بلاده وفنوناً قصية عنها ، وكان لا شــك فريداً بين معاصريه ، فأنتج تحفة فريدة فى التاريخ .

كاتدرائية العذراء فى « البوى » تعرض على مشاهديها آثاراً مقتبسة من الفن الإسلامى ، فيها قباب وعقود وأقواس وزخارف ومنحوتات وتيجان ، تصلها صلة وثيقة بهذا الفن ، وتشهد للرجل الذى ابتكرها ورسمها وأخرجها بنبوغ رائع . وإذا كنا لا نعرف اسم هذا الرجل العبقرى ، فإنا نلمس مدى آفاقه فى أعماله . ولا يتمالك المتجول فى أنحاء كنيسته ، إلا أن ينطق بروعة أعماله ، ويؤمن بالمعنى الدفين الذى أودعه نقوشه الكوفية على باب العذراء ، فيقرؤها معجباً ، إن كان عليما بسرها ، وإن خفيت عليه نطق بما فى معنى « ماشاء الله » .

أحمد فكرى



زخرفة كوفية على باب كانوسا

صورة . . .

صديقى «شوكت» هذا لا أراه إلا لماما ، وكيف أظفر به وهو لا ينقطع تقلقله واضطرابه . . . أبواه يدللانه ويرهبانه ، وهو يفرّ منهما ليقيم وحده فى غرفة صغيرة على سطح الدار ، يستيقظ مع الشمس فيندس فى ثيابه ، ثم يتدهور على الدرج كأنه نجاسة تركلها أقدام طاهرة . . . حتى إذا خرج إلى الطريق خفّ خطوه وبدأ تسكعه . . . وعندئذ لا مفرّ من أن نودعه — وإن كانت الساعة لا تزال مبكرة — فهيهات للمخيلة أو للمنطق أن يفلحا فى تتبعه بعد ذلك ولو كنت به خبيراً . . . فهو قد يفطر فولا وطعمية فى سيدنا الحسين ، أو بيضاً مسلوقاً ولحماً بارداً فى مطعم بجوار المحكمة المختلطة . هو يدخل السينما لينام ، وقد يقضى أكثر الليل ساهراً فى مقعد على شطّ النيل .

استمع إليه يحدثنى ذات يوم : —

— اننى أتعلم كثيراً من دراسة معارض المصورين الفوتوغرافيين ، وأقف ساعات أمام سكانها المجهولين أتفرس وجوههم طويلا . وهذا دأبى منذ زمن بعيد . . . دع عنك مصورى البطاقات الشخصية ، فعملهم نوع من التأتأة . . . ولا أقصد مصورى الأحياء الإفرنجية ، فليس بينى وبين معارضهم وشيجة روحية ، وخاصة فى هذه الأيام التى أصبحت فيها كأنها ثكنات جنود . . . أما المصريون الذين يظهرون فيها بزىّ رسمى أو غير رسمىّ فأغلب وقفاتهم متكلفة : على الشفاه ابتسامة حائرة بين فرحة الفوز والاعتذار من الغرور . هؤلاء أناس قد تمرنت أقدامهم وأيديهم لطول بطالتها . . . أما أصدقائى فهم زبائن مصورى الأحياء الوطنية . كنت أعرفهم فيما مضى يشخصون بأبصارهم إلى العدسة ويحملقون فيها كأنما يتوقعون منها مفاجأة . . . أذرعهم متصلبة ، وأياديهم حائرة ، فهى إما مستقرة على الركبتين ، أصابعها تارة منفرجة وتارة مضمومة ، أو ملصقة بأفخاذهم وأصابعها ممدودة كوقفة صاحب الحلة الجديدة أمام الخياط فى

أول تجربة . إثبات الود بين الصديقين أن يتصافحا أمام العدسة ، وبعضهم يرفع يده إلى رأسه يحييك أنتَ والمصوّر والعالم كله . . . أما الفتيات فكالنباتات البرية لا تزال بشوكها . لا تضحك من أحذيتهن أو لتسريحة شعرهن ، بل انظر إلى العيون ترجذلا فطريا وفرحة الطفل بلعبة جديدة . أما إذا اعتمدت إحداهن برأسها على كفها فوق المائدة ، وتاهت نظرتها ، ومن خلفها ستار عليه رسم زهرية كبيرة أودرج فخم ، فاعلم أنها بنت مدارس ابتليت — والبركة فى القصص الغرامية — بداء الحب . . . كان ذلك فيما مضى . أما اليوم فقد كثر بين أصدقائى من يقلد كلارك جيبل أو بيتى جريبل . . . بعض هؤلاء الناس يثبتون فى أماكنهم لايتحولون عنها ، يوجهون إليك نفس النظرة سنين طويلة — كأنهم قطع متحف ، وبعضهم — كما فى عالم الأحياء — يظهر حيناً ثم يختفى ويحل غيره محله . وهذا يذكرنى بحادثة عجيبة لم أستطع نسيانها إلى اليوم .

صمت شوكت ، وقد تعامت ألا أستدرجه ، فصبرت حتى واصل الحديث فهو ممن لايطيقون كتمان السرّ ، ولو كان أمراً يشينه . . .

هو مصوّر فى ميدان من أهم ميادين القاهرة ، كل زبائنه من الأغنياء ، لايتم لهم عرس إلا إذا جاءهم قبل المأذون ، وكأنهم لايتثبتون من معرفة أطفالهم إلا إذا رسمهم لهم . . . كنت أسير غير ملق بالى إليه ، وإذا بشىء يجذبنى جذباً . . . التفت فسحرتنى نظرة نفاذة كأنها تيار كهربائى ، تنطلق من عينى فتاة جميلة ، ارتدت — ولا أدرى لماذا — خمارا أسود . هل يكون تصنع الحزن من بعض الدلال ؟ ومع ذلك هيهات ! فالنظرة تنطق بالصبا المتلهف إلى اللذة والمرح والبهجة ، يؤججه جسد زاخر بالحياة ، يسكنه عفريت لعوب . تتموّج على الشفاه ابتسامة كاهتزاز أوراق الشجر يداعبها نسيم الغروب . سرت قليلا ثم وجدتنى أعود إليها . ماذا تريد منى ؟ وماذا تريد أن تقول ؟ لم أستطع الانفكاك من سحر تلك النظرة ، ومع ذلك أحسست فى جسدى بشعور خفىّ لم أتبينه حينذاك ولكنه تركنى ضيّق الصدر مكروباً . مالى ومالها ؟ هى فتاة مغرورة تتباهى بجمالها وبصورتها الفخمة ، تريد أن تخلد فيها خيال مرآتها الفانى . ولكن لا ! إنها ليست نظرة موجهة إلى نفسها ، بل هى موجهة إلى غيرها ، إلى إنسان ، أياً كان .

أصبحت أقصدها وأقف عندها ولا أمرّ فى ذلك الطريق إلا سلمت عليها

وسألتها عن أخبارها . إن نشوتها تبرد القلب ، وسعادة الصبا تقلم أظفار الحسد وإن رغم أنفه ، وتقلب حسرة الشيوخ رضا وذكريات وأحلاما . . . ومرّت أيام وأنا أتوقع أن أراها ، كما رأيت كثيرات غيرها ، مستندة على ذراع عروسها فى ثوب أبيض ، له ذيل طويل طويل . انتظرت ظهور هذه الصورة أياماً بعد أيام ولكن سدى . . . وظلت نظرتها تثب من وراء الألواح الزجاجية وتختلط بالمارّة كأنها تريد أن تتشبث بإنسان من الناس .

ثم اختفت . وكرت الأسابيع والشهور ، فإذا بى أجدها من جديد . مَرْحباً ! مرحباً ! ولكن ما هذا ؟ خلعت خمارها فبدا لها شعر أسود فاحم فى أجمل زينة . وارتدت ثوباً وسطاً بين ثياب السهرة وثياب النهار ، حول عنقها عقد تعمد المصوّر أن يظلل واسطته لئلا تتبينها العين ، بل تدرك أنها ثاوية بين نهديها . ويلتصق بأذنها قرط على شكل زهرة . إنها اليوم لا تنظر إلى المارة . بل انصرفت عنهم قليلا ، فهى تريد ولا تريد أن تقع العين على العين وكفاها أذنها التى مالت بها قليلا نحونا كأنها تريد هذه المرة أن تسمع ما نقوله عنها ، قد لوّحتها الشمس — فقد كنا فى نهاية الصيف — وكأنها تسر إليك : « إننى كنت على الشاطىء ثم عدت إلى القاهرة » تطلعت إلى الصورة من اليمين ومن اليسار لعلنى أظفر بنظرتها التى سحرتنى فلم أفلح . ماذا دهاكِ ؟ ولِمَ تشيحين بوجهك ؟

وثبتت الصورة مكانها زمناً طويلا ، من حولها جيرانها وعالم المارة وموكب الحياة يدور ويدور كأنه رحى طاحون .

وتتابعت الفصول . . .

استدارت وارتدت ثوب سهرة يكشف عن واسطة العقد ومثواها معاً . وتركت شعرها ينسدل على كتفيها وواجهتنا من جديد بنظرة فيها تحدّ واعتداد وكبرياء وشموخ . العين مزججة بالكحل ، والشفة أرجوانية بل سوداء ، وكأنها ندّية . . . لما رأيتها تلك المرة أدركت الشعور الذى انتابنى حين لقيتها اول ما لقيتها . يا لله لهذا الفم ولتلك الثنايا . . . فم واسع عريض ، كأنه فوهة بئر مهجور . . . وشفتان غليظتان تكشفان عن ثنايا مفلجة . أى شىء لا يقدر عليه هذا الفم المتعطش من لثم وتقبيل وما يتلوهما من ثورات عنيفة لا أريدك بها علماً . شهوة عارمة جامحة ، مقيدة بأغلال . تذكرت . لقد شعر جسدى حين لقيتها أول مرة بذلك الإحساس الذى كان يعترينى وأنا صبى ، عند ما كنت أمر

على بعض الأزقة فأبصر بائعات الهوى يعرضن أجسادهن للناس . كنت أعزق : يدفعنى الشوق ، ورغبة الافضاء ، والغوص فى لجة الحياة ، وتصدنى دمامة الفساد ببخرها ونتنها وقروحها . لقد كان القبح مجسما جاثماً على فم هذه الفتاة . قبحٌ يثير فى النفس اشمئزازها ، ويهب عليها منه ريح حارة كالسموم . عندئذ عزمت على الفرار منها ، وهجرها وعلى أن لا أعود إليها .

***

ومرت أيام فى أثرها أيام . . . ثم لقيت صديقى شوكت مصادفة على قهوة فى شارع عماد الدين ، وأمامه حبات قليلة من الفستق ، هى كل ما كسبه بثلاثين قرشاً دفعها فى مراهنة بائع صعيدى مكار . وقال لى :

— اننى لا أخسر إلا إذا كنت مضطرب الأعصاب ، ولا تأس علىّ . فقد كسبت منه مرّة أقة كاملة بقرش واحد . فخذ اثنتين ، ودع لى اثنتين ، وأرجوك ألا تلح على أن أسير معك فلست الليلة خالى البال . لقد كنت أكذب عليك ، وإنى أخبرك الآن أننى عدت إليها . أيكون للقبح سحره أيضاً لأنه يجعلنا — إذا ما انقضى — أكثر قدرة على تذوق الجمال ؟ أم لعل القبح هو مبدأ الخليقة التى فرض عليها أن ترقى منه — بمجهودها — قليلا قليلا حتى تدرك الجمال . فسحر القبح نوع من الحنين إلى الماضى . ولكن حالى مع هذه الفتاة على خلاف ذلك . فلا يهمنى وجهها ، إن الذى يعنينى هو روحها . إنها لا تزال مكانها ، تمر أمامها هذه الجموع الغفيرة وليس فيها قلب واحد فهم آلامها ورثى لها . إننى ألمس عذابها ولياليها الساهرة ، وابتساماتها المتكلفة تتظاهر فيها بالسرور وقلبها مغموم . هى يد ممدودة لا تجد من يمد لها يداً . صدقنى . إننى أمرّ عليها فأجد نور عينيها ينطفئ يوماً بعد يوم كاحتضار المشكاة . ستقول إن الصور تشحب عادةً من طول تعرضها لأشعة الشمس ، ولكن اذهب بنفسك وشاهدها تجدها وحدها دون بقية الصور قد خيمت عليها ظلال كالعنكبوت ، بل أكاد ألمح على وجهها خطين متعارضين كأنهما لطمتان ، أو علامة الإلغاء على مسألة مغلوطة . . . ستقول أيضاً إن هذا من أثر تثنى ورق الصورة لقدم عهده بالمعرض . ولكن ثق أن قلبى صادق فى شعوره . بل إننى أكاد أجزم باقترابها من كارثة نازلة . ولو ذهبت إلى رجال الإسعاف وقلت

لهم : « اسرعوا ! تعالوا أدركوا فتاة دهمها خطر شديد ، فقد أصيب قلبها بجرح بليغ وتوشك أن تتحطم ، فعسا كم تنقذونها كما تنقـذون غيرها » لسخروا منى وعدونى مخبولا . . . وانصرفوا عنى أنا أيضاً فليس للخبل عندهم دواء .

وكانت قصة رهان صديقى قد ذاعت ، فتألب علينا بائعو السميذ والفستق واليانصيب وماسحو الأحذية والشحاذون فانقطع الحديث .

***

وذات ليلة من ليـالى الشتاء الماضى عدت إلى دارى متأخراً ، فوجدت « شوكت » بالباب ينتظرنى ، لايأبه للبرد ولا للمطر . ولم يكد يرانى حتى صرخ فىّ قائلا :

— أين كنت ؟ لقد بحثت عنك طويلا . إننى أريدك معى هذه الليـلة . لاتتركنى .

هو مخمور ، لسانه ثقيل ، وعيناه محمرتان .

— لقد رأيتها اليوم فى ذهابى إلى القهوة ، وأقسم لك أن نظرتها أصبحت أشد لمعـاناً كأنها نصل خنجر . . . وارتسم فيها الغل والغيظ والقنوط والألم معاً . . . تتلفت إلى المـارة ، وإلى جيرانها بنظرة ملؤها السخط والاحتقار . انقشعت الظلال ، وزال الخطان وتهيأت لأمر ، قد أطبقت أجفانها قليلا وضمت شفتيها وبدا على خديها غضون عميقة . . . ثم عدت بعد ساعتين فألفيت أمام المعرض زحاماً شديداً ، والزجاج هشيما متناثراً ، والصور ممزقة تحت الأقدام فى الوحل . . . بحثت بينها عن صورتها فلم أجدها . . . قال لى بائع جرائد إنه سمع صوت تكسر الزجاج كأنما أصابته رصـاصة . ولم ير أحد شيئاً . وقالوا لعله جندى عربيد قذفه بزجاجة خمر . ولـكن هـذا كلام لا يدخل عقلى . . . إن هاتفاً يهتف بى أن هذه الفتاة قد انتهت . . . سقطت أو انتحرت . وأن قلبها قد حطم أغلاله وانفجر .

يحيى حقى

تمثال الكاتب المصرى

اتخذت دار « الكاتب المصرى » لنفسها ومجلتها شعاراً ، هو صورة ذلك التمثال المشهور الذى يعتبر من روائع الفن المصرى القديم ، ومن أفضل بدائعه وآياته ، كما أنه شعار يرتبط بصميم القومية المصرية العريقة ، التى يسعى قادة الثقافة جاهدين إلى إحيائها ، وإلى اذكاء الشعور بها . لهذا كان من حق القارئ أن يقف على بعض المعلومات الوجيزة عن هذا الشعار الموفق المختار .

***

فى سنة ١٨٥١ ، وفى أثناء قيام الأثرى الكبير المرحوم ماريت باشا بالتنقيب عن الآثار فى أرض صقارة ، قبيل الكشف عن مدافن العجول — أو السرابيوم ، عثر على تمثال الكاتب المصرى فى مقبرة رجل اسمه سِنِجم — كا ، وهو أحد كبار موظفى الدولة القديمة ، من أواخر عهد الأسرة الخامسة الفرعونية . وعلى هذا يمكن رجع تاريخ صنع تمثال الكاتب إلى حوالى سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد .

والتمثال محفوظ الآن فى متحف اللوفر فى باريس . وهو مثار إعجاب كل من رآه أو تفرس فيه ، سواء فى مكانه ، أو فى عديد صوره الذائعة الانتشار .

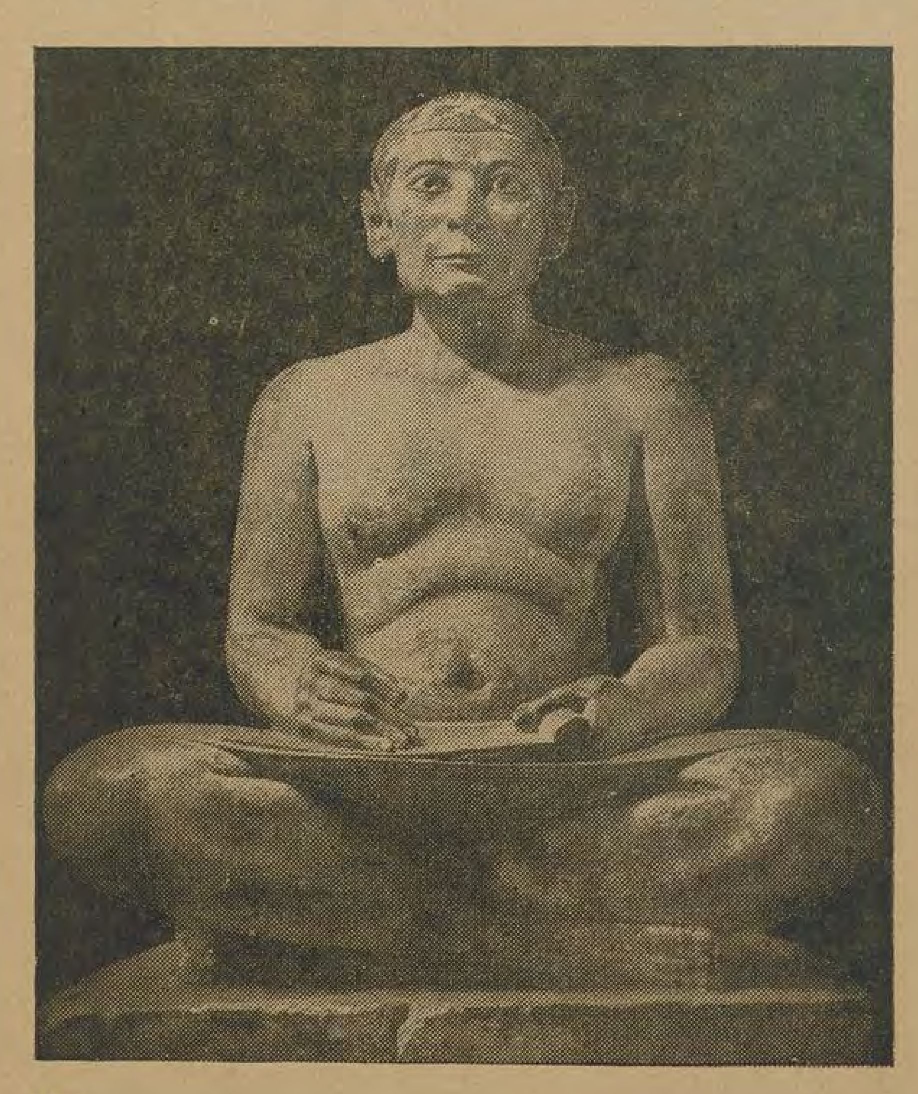
وذلك لأنه يمثل كاتباً مصريًّا قديماً جلس على الأرض متربعاً ، وقد بسط فى حجره ملفاً من ورق البردى ، يمسكه ويسنده بيسراه ؛ أما يمينه فتناولت قلم القصب واضعة إياه فى مكانه المعهود على الصحيفة المبسوطة أمامه . وكأن الرجل على أتم استعداد للكتابة ، أو لوصل ما انقطع أداؤه من عمله فى التحرير على مر العصور .

ولعل أول ما يسترعى النظر جملة فيه ، هو هذه الجلسة الشرقية التى تمتلئ بالحياة ، ثم هذه النظرة اليقظى التى تفيض بالحرص والانتباه لأداء الواجب المفروض ، فى رضا وحسن قبول .

أما التفاصيل فتبين أن التمثال صنع من الحجر الجيرى الملون باللون الأحمر الداكن ، وهو ذلك اللون التقليدى الذى اتخذه الفنان المصرى القديم للدلالة على أجساد الرجال .

الرأس راسخ مرتفع إلى أعلى ، يوعز بالثقة بالنفس فى غير ما زهو ولا خيلاء .

أما الوجه فيكاد يكون مربعاً ، ويدل فى مجموعه على أن صاحبه لم يكن على حظ من الملاحة كبير . إلا أن مهارة الفنان وأمانته فى تصوير تقاطيع الوجه وتعبيرات ملامحه قد أضفت عليه غير قليل من جمال السماحة وقوة الفتوة ،



يضاف إلى جمال الأداء والتعبير . فالعينان كبيرتان متسعتان ، تشعان بفيض من بريق الفطنة والذكاء الموهوب ، كما تدلان على هناءة الحياة النابضة بالعافية والنشاط الطروب . ويعلوهما حاجبان رقيقان مفترقان . أما الفم فمتسع ، تحده شفتان رقيقتان ، عليهما مسحة من بسمة ، هى عادةً دلالة الحذر الأريب . وإذا كان شكل الأنف عاديًا ، فإن عظام الصدغين والخدين تبرز واضحة المعالم ، لتدل على أن الكاتب كان فى آخر الشباب . أما الجبهة فضيقة ، إلا أنها سمحة ، تخلو من قطوب الجهامة والعبوس ، ويعلوها شعر كث قصير . وقد تلفت الأذنان النظر ، لأنهما كبيرتان سميكتان ، ثقيلتا المنظر فى بروزهما من جانبى الرأس .

أما سائر الأعضاء فهى أيضاً صادقة التعبير ، مليئة بالمعانى . فتفاصيل كل منها تتفق مع قواعد التشريح . والعضلات فى جملتها ، وخصوصاً عند الصدر ، قد اكتنزت وترهلت قليلا ، لتنسجم مع سن الرجل المتوسط العمر ، أو الذى جاوز سن الشباب بقليل ، والذى يلزمه عمله الكتابى بالجلوس والاستقرار الطويل ، ولا يسمح له هذا العمل بالحركة أو الرياضة إلا فى النادر ، ولوقت قصير . غير أنه يلاحظ على اليدين أنهما معروقتان ، تتجلى فيهما بعض الخشونة ، كما أن أصابعهما على شىء من الطول غير معتاد .

ولقد شُكِّلت الركبتان بمهارة فائقة ، تدل على أن الفنان أراد أن يبرز فهمه الدقيق لتصوير حركة الأعضاء .

وواضح أن الفنان قد أخضع كل أعضاء الجسم — كما أخضع تقاطيع الوجه — لحكم روح سائد فيها جميعاً ، هى روح الانتباه المنتظِر الصبور .

ولذلك إذا لوحظ مثلاً على عضلات الذراعين والجذع والكتفين أنها فى شبه استرخاء يقظ ، فإنه من اليسير أيضاً أن يُلاحَظَ أنها على أتم استعداد لاستئناف العمل فى الظرف المرتقب .

والواقع أن ما يوحيه تمثال الكاتب المصرى جملة وتفصيلا من صدق التعبير ، ودقة الذوق ، وقوة الحس ورفاهته ، وجمال الرضا بأداء الواجب المطلوب ، جدير بأن يمحو عن الفن المصرى القديم تلك الوصمة الذائعة ظلماً ، وصمة الصلابة والجمود .

اسكندر اسعد

شهرية السياسة الدولية

عند المعقبين الدوريين على الحوادث الجارية أن الشهر المنقضى قد برزت خلاله فى ميدان السياسة الدولية قيامة أذربيجان بذلت لأجل تسويتها مساعى الحكومة الايرانية لدى حكومات الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة وبريتانيا العظمى، وتبودلت بشأنها وبشأن الجلاء عن الأراضى الايرانية كلها مذكرات بين الدول العظمى الثلاث ، كما برز الاتفاق الفرنسى البريتانى على الموقف من سوريا ولبنان وسائر بلاد الشرق الأدنى ، وتجلى انعقاد مؤتمر وزراء الخارجية الثلاثة فى موسكو يحاولون فيه التقريب بين وجهات النظر قبل اجتماع هيئة الأمم المتحدة الجديدة .

وعند الباحثين والمؤرخين ، السياسيين منهم والاجتماعيين ، أن تلك الحوادث التى برزت خلال الشهر المنقضى إنما هى فى الواقع العلمى « تبلور » لنزاع كمن بعض الوقت واستبان بعض الوقت الآخر ، وتلاقت عناصره حيناً وتناثرت أحياناً ، منطوية على آراء جديدة وأخرى قديمة ، تتلاطم حولها التيارات المحافظة والحرة والتقدمية ، يحظى بعضها آونة بالفوز ويبوء بعضها آناً بالاخفاق .

وعندى أن ما يشهده العالم الدولى منذ وقفت رحى الحرب العالمية الثانية — وإن تكن مصادمات متفرعة عنها لا تزال قائمة فى أكثر من ركن — انما ينطوى على ما بلغه تطور النزاع بين تيارى التقدم والرجعية خلال السنوات الثلاثين الأخيرة . وقد بدأ هذا النزاع بالثورة الروسية « البلشفية » تدعو إلى « الثورة العالمية » فى وجه الرأسمالية المتحكمة فى الأفراد المستعمرة للشعوب ، فتألبت عليها قوات الرأسمالية فى كل مكان ووقفت منها موقف المحاصرة والتحفز للغزو ، بل أقدمت على الاعتداء عليها وانتزاع بعض الأقاليم منها . وباءت الدعوة إلى « الثورة العالمية » بالاخفاق ، ونال داعيتها « تروتسكى » ما ناله من إقصاء ، واستحالت النظرية الروسية إلى الحد من « دوليتها » ، ووجهت الجهود إلى الاستعداد للدفاع عن النفس وقد أصبح محتوماً أن يثير التنافس الرأسمالى حرباً عالمية ثانية تكون أراضى الاتحاد السوفيتى ميداناً من ميادينها . ووقعت الحرب التى كانت روسيا تنتظرها وأبلى فيها الجيش الأحمر أحسن البلاء آملا أن يقع عن طريق انتصاراته ما كانت نظرية الثورة الأوربية تتوق إلى تحقيقه فى العالم من طمأنينة وإخاء عن طريق ما كانت تدعو إليه من « ثورة عالمية ». لكن الدبلوماتية السوفيتية مافتئت ، منذ دخل الاتحاد السوفيتى الحرب إلى جانب « الحلفاء » ، تلمس عند حلفائها من خبيئات الأمور ومن صريح الاتجاهات ما ملأها إساءة ظن احتاطت لها بكثير — ربما تاخم الغلو — من الحذر .

وكانت ضرورات الحرب تقضى على الفرقاء جميعا بالكظم والمسايرة . فلما وقفت الحرب فى

أوربا ، وأنهيت الحرب مع اليابان بعيد استعمال الأمريكيين لقنبلتهم الذرية ، تكشفت الأمور وبدا الصبح ، فزمجر الكاظمون وضج الصابرون وتصلب المسايرون . وكانت الولايات المتحدة وكانت بريتانيا العظمى تعلمان قبل انتهاء الحرب من أمر القنبلة الذرية ما تعلمان ، فتنمرتا للاتحاد السوفيتي في مؤتمر سان فرنسسكو ما استطاعتا ، وخضعتا لبعض وجهات نظره مرغمتين — لأن الحرب كانت لا تزال قائمة وميادينها لا تزال متضامنة — ممنيتين نفسيهما بانتهاز الفرص التي ستسنح ، والجائيات منها أكثر من الرائحات .

وتم النصر وعقد مؤتمر تنظيم شؤونه في « بوتسدام » وتم الاتفاق فيه على مبادئ جوهرية تستند إليها الاجتماعات التالية ، ثم تبعه اجتماع وزراء الخارجيات الخمس ، فأخذ الانجليز والأمريكان والفرنسيون يتنكرون فيه لتلك المبادئ الجوهرية ويصورون الاتحاد السوفيتي على أنه هو الراجع في ارتباطاته ، فسادت إساءة الظن وباء الاجتماع بالاخفاق . وراح السوفيتيون إلى موسكو يقبعون كاظمين الغيظ ، وراح الانجلوسكسونيون يجتمعون في ويعلنون اتفاقهم على التهديد بقنابلهم الذرية ، وراح الرفيق مولوتوف يشير في خطاب عيد الثورة إلى أن لدى روسيا قنابل ذرية و « اشياء أخرى » كذلك .

ثم انتقل الميدان من التراشق المباشر إلى التنابذ غير المباشر . فأخذ ألانجلو سكسونيون يذكرون البلقان وما يقوم فيه من حكومات لا يريدون أن يعترفوا بها ، ويذكرون تركيا ويلوحون لها بتأييدهم إياها في موقفها من مشكلة المضايق . كما أخذت انجلترا تسعى إلى فرنسا تحاول تمهيد الطريق معها لعقد اتفاق يحقق فكرة « الكتلة الغربية » التي احتجت عليها روسيا ، وانتهت في سبيل هذا التمهيد إلى عقد الاتفاق الخاص بسوريا ولبنان والذي اتسعت دائرته حتى شملت العراق ومصر وفلسطين وشرق الأردن والعربية السعودية ، وهي الكتلة التي تنظر إليها روسيا على أن انجلترا إنما قد شجعت على « تجمعها » لتكون رقعة تتجه منها عند الاقتضاء صوب روسيا .

وبينما الأمور تسير على هذا المنوال إذا بالشعوب المضغوط عليها والمشتركة في الجنس مع أهالي جمهوريات ومناطق ومراكز داخلة في الاتحاد السوفيتي تتألب على الدول التابعة لها أو تتحفز للتألب . وكانت أذربيجان أول الأقاليم التي تألبت على إيران ، وكان الأكراد في إيران وفي تركيا وفي العراق ، وكان الأرمن في تركيا وفي مهاجرهم في الشرق وفي الغرب من المتحفزين للتألب ، وصورت الأوساط الانجلوسكسونية تألب المتألبين وتحفز المتحفزين على أنهما من فعل السوفيتيين ودسائسهم . فأبرز هذا التصوير في نظر الدول الصغيرة على الأقل الموقف العالمي على أنه تأييد من جانب الاتحاد السوفيتي لحركات التحرر القومي عند الشعوب المغلوبة على أمرها ، وعلى أنه تدخل من جانب دول الغرب لتسيير شؤون البلقان والشرق الأدنى على هوى الرأسماليين لا وفق رغبات الأهلين .

وفي هذا الجو يجتمع وزراء الخارجية الثلاثة في موسكو ، ويضاعفه مالا تفتأ الصحف السوفيتية تنشره هذه الأيام الأخيرة من ترديد لنغمات القتال الدائر في اندونيسيا والهند الصينية بين الأهلين وجيوش « الحلفاء » ، ومطالبة الهند ومصر وسوريا ولبنان بجلاء الجيوش الانجليزية والفرنسية والأمريكية عنها ، ومطالبة فلسطين بالاستقلال ، وحق سائر المستعمرات بنظام « الوصاية » تمشيا في سبيل الاستقلال ، وضرورة إقامة هذا النظام على قواعد دولية خيرة صحيحة .

وفى الوقت عينه لايزال التلويح بأسرار القنبلة الذرية وما قد يكون لدى روسيا من أسلحة مماثلة، ولا يزال التهديد بتعديل نصوص ميثاق الأمم المتحدة فيما يتصل بحق الرفض والاعتراض، لايزالان مستمرين من ناحية الانجلوسكسونين ، كما لا تزال مستمرة من ناحية السوفيتيين المطالبة بنصيب من حرية البحار لا فى الدردنيل والبوسفور وحدهما بل فى قناة السويس أيضاً وسائر المعابر فى العالم .

وإذن ـ سواء أأرادت الدبلوماتيات أم لم ترد ـ فان الوضع الذى يتجلى خلال الحوادث الدولية الجارية فى هذا الشهر المنقضى إنما هو وضع التقابل بين الموقف السوفيتى والموقف الانجلوسكسونى ، يظهر الأول بمظهر الاستناد إلى فكرة التحرير تتذوقها الجماعات التقدمية الواعية ، ويظهر الثانى بمظهر الاستناد إلى فكرة السيطرة تمقتها الشعوب المضطهدة وتخشاها الدول الصغيرة التى تنار على استقلالها وسيادتها

وفى هذا الجو ينتظر العالم انعقاد الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة فى العاشر من هذا الشهر المبتدئ . ويقول القائلون إن استقبال هذا الانعقاد بالتفاؤل او بالتشاؤم معلق فى كثير على ما سينبعث من اجتماع موسكو من روح .

محمود عزمى

شهرية المسرح

العباسة مسرحية شعرية تأليف عزيز أباظه

هذه مسرحية المؤلف الثانية . وقد اختلف استقبالها من الملقين والنقاد عن استقبال سابقتها « قيس ولبنى » . . . قوبلت الأولى بالترحيب الخالص والثناء المطلق ؛ بينما اختلفت الآراء فى استقبال الثانية ، وتعرضت للنقد ، الذى بلغ بعضه حد العنف والهجوم .

وهذه ظاهرة طيبة ذات مغزى قيم للأدب وللمؤلف جميعا . وأقل ما تدل عليه أن عنصر المجاملة لم يعد هو الذى يقرر مصاير الأمور فى الأدب . . . وأقول « المجاملة » دون أن أنتقص من قيمة « قيس ولبنى » التى كان لى أنا بالذات موقف قوى فى تقريرها ورأى قاطع فى تفوق مستواها الفنى والأدبى بالقياس إلى كل ما تحويه اللغة العربية من نظائرها . ولكنى أقول « المجاملة » لأن العمل الفنى الواحد الذى يحوز رضاء الجميع — كما بدا فى استقبال « قيس ولبنى » — غير موجود !

وهناك دلالة أخرى لهذا النقد الذى تواجهه « العباسة » وهى أن عزيز أباظة لم يعد ضيفا على مائدة الأدب ، يفسح له أصحاب المأدبة ويهشون فى وجهه ويبشون كما يصنع للضيفان ! إنما هو اليوم من أصحاب المأدبة ، يأخذ مكانه بينهم باستحقاقه وجهده ، وعليه أن يشق طريقه ويحتمل صدمات الزحام ! والذى لاشك فيه أنه قادر على الصدام فى الزحام !

تدور المسرحية على « نكبة البرامكة » هذه النكبة التى طالما هزت مشاعر الشعراء فى حينها وبعده بعشرات السنين ، حتى لقد كان بعض الشعراء يعرض نفسه للموت فى أيام بنى العباس ليطوف خفية بقبور البرامكة منشداً مآثرهم — كما ورد فى بعض الأخبار .

ليس عجيباً إذن أن تعود هذه المأساة فتحرك شاعراً عاطفيا مثل عزيز أباظة فى القرن العشرين !

وللمأساة جانبها التاريخى الراجح ، وجانبها الاسطورى الذى يصاحب عادة مثل هذه المآسى . والذين تتبعوا عزيز أباظة فى « أنات حائرة » وفى قيس ولبنى ، وعرفوا منهما لون مزاجه لم يكونوا ليشكوا فى أى الجانبين يختار ليقيم على أساسه روايته .

ومع هذا فان المؤلف حين أقام روايته على الجانب الأسطورى المستند على « خرافة زواج العباسة الصورى وفتوى أبى يوسف بحل النظر وحده تمكيناً للرشيد من أن يجمع بينها وبين جعفر فى مجلسه ! » لم ينقل الجانب التاريخى للمأساة وهو خوف الرشيد من طموح البرامكة إلى الخلافة أو تسليمها للطالبين منافسى العباسيين — وبخاصة بعد موقف جعفر البرمكى من يحيى الطالبى — وغيرته من البرامكة الذين أسلمهم مقاليد الامور فى الخلافة ، فعلوا حتى على الخليفة ، وانصرف إليهم الشعراء والقصاد بالأماديح والمطالب .

. . . ولكن المتتبع للرواية يلمح ميلا ظاهراً إلى ترجيح المؤلف للجانب الأول واتكائه عليه فى بناء الرواية كله .

وليس لأحد أن يملى على المؤلف اتجاها معينا : إلى التاريخ الراجح أو الأسطورة الشائعة ، أو إلى المزج بينهما مزجا متعادلا أو غير متعادل . فالعمل الفنى حر فى اختيار طريقه ، وكل مالنا هو أن نسأل فى النهاية : أوفق أم لم يوفق من الناحية الفنية البحتة ؟ وهل أضاف ثروة فنية أو نفسية إلى الرواية بمخالفة التاريخ ؟ . . . وهذا ما سنجيب عنه بعد قليل .

ولقد لفتت نظرى تلك البدعة النالية فى تقديس الماضى ، التى تقول : إن فى إقامة المسرحية على أساس هذه الأسطورة الشائعة تشويها للحضارة الاسلامية وتجريحاً للشخصيات التاريخية !

وفات الذين قالوا بهذا القول ، أن تلك الأسطورة ليست من صنع « عزيز أباظة » فهو لم يبتدعها ابتداعا ، إنما هى رواية وعاها التاريخ محققا أوغير محقق ، وعاشت بعد المأساة إلى اليوم . فاذا جنح مؤلف إلى استخدامها فى عمل فنى — لا فى تحقيق تاريخى — فانه لا يكون قد صنع شيئاً أكثر من ترديد رواية قائمة ، وصوغها فى صورة تنتلها إلى المستوى الفنى !

والذين يستعظمون أن يخون جعفر عهده مع الرشيد وأن يطيع الهوى مع العباسة ويستعظمون على العباسة — بحجة أنها أميرة هاشمية — أن تضعف فتستسلم . . . هؤلاء إنما يقدسون غير مقدس ، فوق إغفالهم للنوازع البشرية الحية التى هى قوام الحياة وقوام الفن أيضا .

على أن الراجح تاريخيا أن العباسة كأختها علية بنت المهدى لم تكن فوق مستوى الشبهات — وعلم ذلك عند الله طبعاً ولكننا فى الدائرة الأخبارية الشائعة نذكر هذا — وهناك رواية تقول : إنه كانت لجعفر « قهرمانة » تزين له الجوارى والنساء ، وتقدمهن إليه فى لياليه الحمراء ، وأن العباسة كانت مولهة بجعفر — وهو الذى نشأ صغيراً مع أخيها هرون — ولكن مكانها من الخليفة لم يكن يبيح لها ولا لجعفر إرواء هذا التوله ، فرغبت إلى قهرمانته أن تقدمها إليه فى ليلة دون تعريف . . . وكان هذا ، فلما كشفت له عن شخصيتها بعد ، تعاظمه الأمر وتوقع الشر !

وغير عزيز أباظة كان يؤثر أن يقيم روايتــه على مثل هذا الاتجاه — دون أن يلومه أحد — وكان يجد فى نزوات الوجد الجامح ، واندفاعات الهوى الآثم مجالا فسيحا لتصوير النفس البشرية — فى احد جوانبها — ولتصوير الجانب الداعر كذلك من الحضارة العباسية — وهو موجود بلا مراء مع جوانبها الأخرى — كما يجد مجالا لتصوير الدسائس تحاك حول البرامكة من الحاسدين والموغورين ، وتثير انفعــالات النقمة وأحاسيس الشرف فى نفس الرشيد . . . الخ

ولكن عزيز أباظة بفطرته الطيبة ، وبطهارة ضميره ونقاوته ، ثم بتجربته العائلية المقدسة ، لا يجنح إلى استلهام مثل هذا الجانب فى حيـاة الناس ؛ فهو موكل بالحديث عن العواطف الزوجية ورفعها إلى مستوى الطهارة المقدسة من جهة ، وإلى مستوى الاحساس الفنى من جهة أخرى . ولما كانت الحياة الزوجية بحكم هدوئها وتسلسلها قد لا يجد الفن فيها من الوهج والحرارة ما يجعلها تدخل دائرته ، فقد توكل بها هذا الشاعر العاطفى ، ينفث فيها من الوهج ، ويبث فيها من الحرارة ما يرفعها إلى المستوى الفنى فى أعماله كلها ، سواء فى ذلك « أنات حائرة » أو « قيس ولبنى » أو روايته « العباسة » الأخيرة . ولهذا اختار أسطورة الزواج

الصورى — وما فيه من تطلع وحرمان — ليوقع عليها أعذب أنغامه وأحرها ، وليرتفع بنغمات الحب الزوجي إلى مستوى ذبذبات الحب العذرى فى جميع العصور .

وها قد رأينا أنه لم يكن هناك تجريح لجعفر ولا للعباسة ، بل كان هناك تطهير لهما إذا نحن راعينا بعض الروايات التى تقصها الأخبار .

أما شخصية الرشيد فأنا ألاحظ أنها بدت فى الرواية أصغر مما هى فعلا ؛ بل لتبد بدت زرية فى بعض المواقف . ولكنى لا أذهب فى هذا مذهب الذين يقدسون الرشيد وينظرون إليه بعدسة الأساطير المكبرة !

والواقع أننا نخلط فى تصورنا بين عظمة عهد الرشيد والرشيد نفسه ، وهذا هو الخطأ التاريخى ... فعهد الرشيد كان عظيما بالفعل — وإن لم يبلغ إلى المستوى الأسطورى الذى يعيش فى بعض الأذهان — ولكن الرشيد نفسه لم يكن فى عظمة عهده . ذلك أنه كان وارثا للعظمة التى أسسها المنصور ودعمها المهدى ، فكان نصيبه هو نصيب الوارث لرصيد ضخم ، قد يستأهله ولكن عمله فيه محدود ! وهو على أى حال لا يبلغ عظمة المنصور العبقرية فى بناء الدولة ، ولا عظمة المأمون الفكرية فى بناء الحضارة العقلية .

والذى يؤخذ من وفاته صغيراً فى نحو الخامسة والأربعين ومن تصرفاته كذلك ، أنه كان عصبي المزاج ، سريع الانفعال ، كثير التقلب من طرف إلى طرف فى المشاعر الانسانية ، مغرقاً فى المتاع ، مفرطاً فى الشهوات — على ما كان ينتابه من نوبات الزهد وانفعالات العبادة ، فتلك سمة هذا المزاج المتقلب — وكان لهذا كله أثره فى معاجلة المنية له فى شرخ الشباب .

والآن نعود إلى السؤال الذى أرجأنا الاجابة عنه ، فنسأل : أوفق المؤلف أم لم يوفق من الناحية الفنية البحتة ، وزاد فى الثروة الفنية والنفسية بمخالفة التاريخ أم لم يزد ؟

والاجابة على هذا تقتضى أن نوقع حوله بضعة تقاسيم قبل أن ندخل فى الصميم !

إذا كان العمل الفنى غير مطالب بموافقة الحوادث التاريخية الجزئيـة ، فانه مطالب بصحة تصوير الجو التاريخى العام . وقد كانت الفرصة سانحة للمؤلف ليصور عهد الرشيد كله فى ضوء نكبة البرامكة . ولكنه ضيق الدائرة فكاد يحصرها فى قصر الرشيد وفى دسائس القصر حول البرامكة ومكايد نسائه وثورة بغداد ، وعلى الهامش ثورة مصر وثورة الشام ، وهى التى ألم بها المؤلف فى الطريق .

ولقد كانت حياة العصر وحياة الرشيد نفسه أوسع من أن تحصر فى هذا المحيط الضيق . كانت هناك غزوات الروم وهى التى أنفق فيها الرشيد سنوات من حياته ، وكانت هناك حجاته المتوالية التى كانت سنواته دولة بينها وبين الغزوات. ولاحدى هذه الحجات علاقة بجعفر فقد سبقت النكبة وكان لجعفر فيها مكان ملحوظ — وهذه وتلك لم يبد لها ظل فى الرواية كلها — وكانت هناك حضارة العصر المادية والروحية والفنية بشتى مظاهرها وملابساتها — وهذه وردت فى الرواية إشارات لهـا ، ولكنها إشارات لفظية فى معرض تفاخر الرشيد أو الثناء على البرامكة ، وكان يمكن إبرازها فى ملابسات أظهر وأقوى من الكلمات المجردة ، وإبراز إشعاعاتها فى جو الرواية كله لاشعار النظارة بحقيقـة عظمة العصر ، وهو عصر الامبراطورية الاسلامية فى أزهى أيامها .

ولست أبغى — بطبيعة الحال — أن تستحيل الرواية دراسة مطولة لعصر الرشيد —

وبخاصة أن ابنها « العباسة » يحد من جمالها — ولكنى كنت أود أن يتسع محيطها إلى الحد الذى يسمح لشخصياتها الأساسية بأن تضطرب فى محيط مناسب لها وللعصر الذى عاشت فيه ، وأن تبدو جميع جوانبها الانسانية أو أكبر عدد منها فى هذا المحيط الفسيح .

فاذا نحن تجاوزنا عن هذا ونظرنا إلى الرواية فى محيطها المحدود الذى أراده لها المؤلف فاتنا نطالع التوفيق المعجب فى حركة الرواية ، وفى إدارة الحوادث ، وفى رسم الشخصيات ، وفى الخصائص الفنية المسرحية ، وفى الأداء الأدبى . . . كلها جميعاً . وإن كانت لنا بعض المآخذ على الفصل الرابع وعلى بعض الفصول الأخرى .

للمؤلف حاسة فنية مسرحية لا شك فيها ، تتبدى بوضوح فى توزيع الحوادث والانفعالات والحركات فى رقعة الرواية توزيعاً تبدو فيه الحيوية والتناسق اللذان لا يتوافران إلا لأصحاب هذه الحاسة الموهوبة . وإن كانت هذه الحاسة تخون صاحبها فى الفصل الرابع وتفتر قليلا فى الفصل الأول ، ولكن إلى حد لا يؤثر فى هذه الصفة البارزة المطردة . (ويضيق المقام عن ضرب الأمثلة المفصلة)

وللمؤلف فطرة سليمة فى رسم الشخصيات وبث الحياة فيها ، الحياة الطبيعية السليمة ، فجميع شخصياته حية تتصرف تصرف الأحياء فى مجريات طبيعية للسلوك بلا تكلف ولا تعمل للحادثة أو للانفعال ، ولكل منها مبررات طبيعية لسلوكها وأسباب قوية لاتجاه حياتها .

فالعباسة هى المرأة المحبة والزوج المحرومة ، والأم الحانيــة ، وهى تصارع فى هذا كله امرأة أخرى ليست دوافعها بأقل أصالة عن هذه الدوافع . تصارع « زبيدة » المرأة الغيور ، والملكة صاحبة التاج وأم ولى العهد ، وهى تنفس على العباسة شبابها وجمالها وأثارتها عند الرشيد ، وتخشى على تاج الخلافة ، وتنافح عن ولى العهد ابنها الحبيب !

وجعفر هو الشاب الذى تدين له الدنيا فى هذا الوقت فيزهى بالشباب والمجد ، وهو الزوج المحب المحروم من حبه لسبب لا يرتضيه ، فهو سليل الأكاسرة الذى يجد نفسه — مع كل أمجاده — ينبز بالهجنة ويوصم بعدم الكفاءة للأميرة الهاشمية ، فترتج فى نفسه وتثور جميع رواسبها وانفعالاتها .

والرشيد هو الخليفة الذى يخشى على العرش والخلافة ، والذى يطعن فى ترفعه الهاشمى من رفيق شبابه وصباه ، مع ما هو واقع فيه من تأثير الزوجة الغيور ، ودسائس الحاقدين والموتورين ، وهى ليست كذباً كلها . فجعفر فى ثورة من ثوراته يشير إلى خراسان وجنودها ويقرر أن ليس الملك والخلافة عليه منيعين !

ويحى بن خالد هو الشيخ المجرب الفطن المحنك ، يرى بفطنته وتجربته تلك البوادر البعيدة التى لا يراها جعفر فى اندفاعه وفتوته ، وفتنته بالمجد والشباب ، وثورته فى فورة الحب والاعتزاز .

وهرثمة بن أعين هو القائد العربى المظفر الذى لا يجد له مكانا فى الدولة البرمكية ، فلا عجب أن يشترك فى المؤامرة الواسعة النطاق . . . وكذلك بقية الشخصيات الثانوية .

وهكذا نجد كل شخصية ، طبيعية فى مواقفها ، طبيعية فى اتجاهاتها ، ونلمس المبررات الواضحة لسلوك كل منها فى الحياة . ولا ننسى — فى هذه المناسبة — أن نلمح من وراء هذه المبررات طبيعة عزيز أباظة الطيبة السمحة الودود !

وباعجاب كبير نلحظ ذلك الصراع الدائم بين المرأتين الاساسيتين فى الرواية : العباسة

وزبيدة . فهو صراع تجمعت له كل أسبابه الطبيعية كما أسلفنا . وهو — بعد هذا — صراع امرأتين خاصة لا مطلق صراع ، فيه طرائق الأنثى فى الحبكة والحركة والمؤثرات والدوافع . وعليه طابع الصراع الأنثوى المميز ، وهو بروز المكايدات الصغيرة الهازلة فى زحمة الصراع الضخم وفى حرارة الحب الرصين . فزبيدة الملكة الحصيفة العظيمة لا تترفع عن دفع سكينة بنت الربيع إلى غمز العباسة فى رجلها جعفر من الناحية الأنثوية فاذا هى تعرض بذكر الجوارى اللواتى أحضرهن معه من غزوته المظفرة ! ولكن علية أخت العباسة ترد الغمزة بنفس الطريقة

لعلها هدية الوزير مرفوعة للعاهل الكبير
إن القيان زينة القصور !

ومثل هذه اللفتات كثيرة ، وهى تدل على براعة نفسية كالبراعة المسرحية الفنية !

فأما القمة فيبلغها المؤلف فى ميدانه الأصيل ، حينما يصور نوازع جعفر الزوج المحروم وعواطف العباسة الزوجة الوالهة . يبلغ هنا قمته الفنية وقمته العاطفية وقمته الأدبية جميعاً ، ويصل إلى درجة الروعة فى نهاية الفصل الثالث على ما تفرق من روائع فى بقية الفصول . ذلك حين يضطران — وهما الزوجان — أن ينتزع منهما ابنهما ويذهب عنهما بعيداً خيفة أن يكون وجوده وانفضاح صلتهما الحقيقية سلاحاً فى أيدى المتآمرين !

حينئذ تنفجر العباسة فى نشيد دام رائع أشبه بالنشيج الجرح المكتوم :

وددت لو كنت فى بغداد جارية ... فى بيت صالحة من أهل بغداد
أظل أقضى لها شتى حوائجها ... وأتته الزاد ما أعطى من الزاد
وأرتدى الثوب من أخلاق ما خلعت ... أزهى به بين أترابى وأندادى
حتى إذا مال ميزان النهار بنا ... فصلت أهفو إلى زوجى وأولادى
أضمهم بجناحى رحمة وهوى ... كالطير تحنى على أفراخها العادى
والدار حالية تبهى بأسرتها ... كما ازدهى بالنمير السلسل الوادى

وهنا تسقط جميع المظاهر والشبهات وتتبدى المرأة المحبة المفجعة عارية فى أروع عواطفها وأصح خوالجها ، وأعمق اتجاهاتها . ومثل هذا فى الرواية كثير ، وهو وحده يبلغ بها حداً معجباً من التوفيق .

وددت لو ظللت أردد هذه النغمة التى تعبر عن كثير من العمل الفنى فى الرواية ، ولكننى مضطر أن أعود إلى التاريخ وموقف المؤلف منه فى الفصل الرابع . . .

ليس على المؤلف من بأس فى أن يخالف الواقع التاريخى ، على أن يعوضنا عنه بالواقع النفسى . ولكن المؤلف فى الفصل الرابع قد خالف الواقعين جميعاً .

فتلك المحاورة الطويلة بين الرشيد وجعفر لم تقع تاريخياً ، وليس لها مكان فى الواقع النفسى ، بل هى مخالفة لطبائع الأشياء . فالرشيد الذى يعلم من أمر البرامكة ومكانهم فى الدولة ما يعلم لا يقدم على الايقاع بهم إلا بعد تدبير محكم مبيت منذ زمن طويل ، ولا يفشى نياته

هذه ولا يظهر منها شيئاً خفية انتقاض البرامكة قبل تمام التدبير — وهذا ما حدث فعلا فى التاريخ — بخلاف مابدا فى الرواية ، فالجميع كانوا يحسون بالنكبة قبل وقوعها ويتنبأون بها .
كما يبدو فى الرواية أن الرشيد لم يصمم إلا بعد هذا الحوار الطويل الذى أمر فى نهايته بقتل جعفر ؛ فكأنه لم يمض بين التصميم والنكبة إلا دقائق لا يتسع فيها الوقت للتدبير المحكم الشامل الذى تقصى البرامكة فى طول البلاد وعرضها كما يقول التاريخ ، وكما لا بد أن يكون.
وكثير من الحوار ليس طبيعياً أن يقوله الرشيد ، ففيه غض من كرامته وتحقير لشأنه ولا يقدم عليه خليفة مهما تكن الظروف ، ومهما كان واقعاً ، فحسبه أن يحسه فى نفسه ثم يكتمه رعاية لمقامه وحفظاً لكرامته .

وقد يكون عذر المؤلف أنه شاء أن يبرر موقف الرشيد . ولكن هذا لا يكفى من الناحيتين الفنية والواقعية . على أن هذا الحوار يمكن إغفاله كله دون أن تنقص هذه المبررات شيئاً ؛ فقد علمناها جميعاً فى ثنايا الرواية قبل الحوار ، وعذرنا الرشيد فى الاصغاء للمؤامرات وأدركنا أنها ليست كذبا كلها من بدوات جعفر ، ومن تصرفه مع يحيى الطالبى ، ومن ثورة الصناع ، وما قالوه عن ضعف الخليفة واتساع سلطة البرامكة . . . الخ

وقد يكون فى الوقت متسع ليحذف المؤلف هذا الحوار كله ، ويعيد بناء الفصل الرابع على أساس هذا الحذف دون أن تفقد الرواية شيئاً يذكر ، بل لتزيد صحة وترتفع فناً .

وهناك هنات أخرى صغيرة — ولعلها ليست هنات بل وجهات نظر — فحديث الجوارى والرعاع كان من حيث المستوى الفكرى والتعبيرى فى مستوى حديث الخليفة والوزير والعباسة وزبيدة . . . وأنا أوثر أن يتحدثوا فى مستواهم مع المحافظة على مجرد صحة اللغة دون روعة الأداء . وهناك شعراء يقوم الواحد منهم إثر الآخر فيتحدث بنفس البحر والقافية فى الثناء على البرامكة ، وكان من الخير أن تتنوع النغمة بتنوع المتحدثين ؛ فهذا هو الطبيعى فى الحديث .

أما الهنات التى لا شك فيها فهى تلك الأناشيد التى يستقبل بها جعفر البرمكى فى الخارج بعد عودته من الشام والخليفة على رأس الموكب ، وتلك الأماديح التى يخص بها الشعراء جعفرا فى حضرة الخليفة وكأن الخليفة صفر على الشمال كما يقولون ، بل إنه ليسلك نفسه فى عداد الشعراء والمداحين للوزير !

ثم هى فى بعض التعبيرات التى استحدثت فى العصر الحاضر ولم يكن لها فى ذلك العهد وجود . . . مثل أن تقول العباسة - أخت خليفة الاسلام - عن طفلها :

أنظر إليه ملكا حالما كأنه عيسى عليه السلام

ومثل أن يسلم مسلم على الخليفة فيقدم اسم المأمون على الأمين ، وهذا ولى العهد . وممن يقع هذا ؟ من العباس بن محمد الهاشمى فى وقت تثور فيه عصبيتان : العرب والفرس وتتصارعان .

ولكن حسب الرواية بعد هذا كله أن مواضع الاجادة فيها متفق عليها من الجميع ، وأن مواضع النقص قد تختلف فيها الآراء . ثم حسبها أنها أسلم من جميع المحاولات الشعرية السابقة فى اللغة العربية ؛ وهذا حق يجب إبرازه وتقريره .

وبعد ، فماذا صنع المخرج والممثلون بالرواية على المسرح ؟

الجواب — مع الأسف — مما يؤذى المسرح المصرى والفرقة المصرية للتمثيل ! الجواب أن الاخراج أبرز الحضارة الاسلامية فى عهد الرشيد فى صورة زرية ، وأبرز الرشيد نفسه فى صورة أكثر زراية . وإنى لأسائل : أهؤلاء هن جوارى عهد الرشيد ، وهذه هى مغنيته ؟ أهذه فخامة القصور فى عهد الرشيد ومشاهد الحضارة فى زمانه ؟

يقال : إن العذر هو فقر الفرقة ، وفقر الأوبرا . . . وهذه فضيحة ! فأين الدولة ! ولم لا ترصد لهذه الروايات التاريخية إعانات خاصة من وزارة المعارف كالتى تمنح للفرق الأجنبية ؟

وإذا تجاوزنا المناظر والملابس والمظاهر المزرية ، واتجهنا إلى الممثلين ساءتنا تلك الصورة التى أبرز فيها الرشيد . فلئن كان المؤلف قد جار على هذه الشخصية بعض الشيء فلقد أجهز المخرج والممثل عليها تماما ! ما هذه المسبحة فى يده ؟ وما تلك الانحناءات والاهتزازات المتكررة ؟ وما هذه المشية والحركة . . . أهو «درويش مهبل» ، ذلك الرشيد صاحب أكبر امبراطورية إسلامية ؟ ! . . . وزبيدة ! أهى تلك المتقعرة اللفظ المتكلفة الحركة كأنها إحدى المتحذلقات !

وابن الهادى ! لقد حسبته أحد الصعاليك فى قماءته الزرية وإشاراته المضطربة ونطقه المرتج وحركاته الرعناء ، وبقية الهاشميين والبرامكة ! عن أى مصدر من مصادر التاريخ أو الخيال ، أخذ المخرج حركاتهم فى المشى والجلوس والاشارة والكلام ؟ ! تلك الحركات التى تصلهم بالدراويش أو الرعاع ؟ ! ثم أين السواد ، شعار العباسيين التاريخى الشهير ؟

ثم الاسراف فى البكاء والانفعالات العنيفة . لقد كان ربع هذه الدموع والحشرجات كافياً وكان أليق بوقار العواطف الصادقة فى مثل هذه المواقف وبخاصة دموع «العباسة» ونشيجها وحشرجاتها وصرخاتها . وكان ربع انفعالات «جعفر» وحركاته التشنجية يكفى كذلك . . . فإلى متى يخضع المسرح المصرى لهذه المظاهرات الرخيصة ؟

إذا كان هناك تشويه لحضارة العهد العباسى وشخصياته شكا منه بعض النقاد فلقد كان معظم هذا من صنع الاخراج والتمثيل ، وكان أقله من صنع التأليف . وهذا كذلك حق يجب إبرازه وتقريره .

سيد قطب

من كتب الشرق والغرب

أسطورة الحرية

خرج العالم من جحيم حرب ضروس تلظي بنارها خلال ست سنوات جلبت عليه الخراب والدمار ، وفتكت بالجنس البشرى فتكا ذريعاً لا هوادة فيه فأذاقته ألواناً من العسف والذل لم نسمع بمثلها منذ عهد جنكيز خان ، وقادته إلى هاوية اقتصادية وأخلاقية يتردى فيها للقاع ولا يتوقع أشد الساسة تفاؤلا أن ينقشع كابوس الحرب وما خلفته من صعاب قبل مضى سنين طويلة ، يعلم الله ما قد يحدث أثناءها من مشكلات عويصة ، نرى نذرها منذ الآن وقد تؤدى فى النهاية إلى كارثة عالمية ثالثة يفنى فيها الكون وتفنى فيها المدنية فتصبح أطلالا دارسة ولا تقوم لها قائمة من جديد .

ومن أروع ما جرته الحرب فى أذيالها من نتائج خطيرة ضياع القيم الروحية وتلاشى القيم الأخلاقيــة واضمحلال القيم والمقاييس الثابتة التقليدية . فقــد فقدت أسمى الكلمات معناها ، وتجردت أرفع الألفاظ عن مدلولها فأضحت جوفاء فارغة ، وأصبح الناس يحذرون من الألفاظ يطنانة الخداعة مثل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والمساواة الخ . . . وأصبحوا يشكون فيمن يلوح بها ويرمونه بالاغراق فى الخيال أو الامعــان فى التضليل . ولئن فقدت الألفاظ معانيها وسلبت بريقها الخلاب فان السبب فى ذلك يرجع الى الاكثار من استعمالها والمبالغة فى انتحالها أعذاراً تستر تحتها أغراضاً تتنافى مع معناها المألوف . وكأن ساسة اليوم لايرغبون فى الحيد قيد أنملة عن تلك العبارة الشهيرة التى قالها تاليران : « لقد منح الانسان النطق كى الستر به فكره » . ومما ساعد على تجريد اللفظ — مهما علا ومهما سما — من معناه المألوف بين الناس جنوح رجال السياسة على اخــتلاف أحزابهم ومشاربهم وقادة الفكر على تباين آرائهم بل تناقض نظرياتهم إلى التمسك بأهداب لفظ واحد — كالحرية أو الديمقراطية — والتعلق به وإقحامه فى كل جدل وفى كل مناسبة ، يتخذه كل فريق منهم حجة لتعزيز رأيه وادحاض رأى الفريق الآخر . يزعم كل منهم أنه شعاره وأنه اللواء الذى ينضوى تحتــه لقيــادة الانسانية إلى السعادة والكمال . وبما أن المبادىء التى ينتحل اللفظ شعاراً لها ، والآراء التى يتخذ اللفظ رمزاً لها ، غالباً ما تكون متناقضة لا يمكن التوفيق بينها ، وبمــا أن اللفظ عينه ينقلب آخر الأمر إلى « قاسم مشترك أعظم » بين نظريات وأفكار متنافرة كل التنافر بل متضاربة كل التضارب ، فنحن نرى الناس حيارى جزعين لا يهتدون إلى الحقيقة ولا يعرفون من الأجدر بالتصديق ، ومن ثم تتبلبل العقول وتضطرب الأفكار ، ويتسرب الشك إلى النفوس ويختلط الحابل بالنابل فتفقد الألفاظ قوتها ومعناها ، شأنها فى ذلك شأن

ثوب يرتديه عدة أشخاص من طبقات مختلفة ولأغراض متباينة ، فتصبح الالفاظ خالية من أى معنى كما يصبح الثوب مهلهلا .

وإنا لو اجلنا النظر إلى الماضى وقلبنا صفحات التاريخ لأدركنا معنى تلك العبارة الشهيرة التى قالتهـا مدام رولان — وقد ضحت بالثمين والرخيص فى سبيل نصرة الحرية إبان الثورة الفرنسية — عنـد ما اقتيدت إلى المقصلة : « أيتها الحرية كم من جريمة ارتكبت باسمك » .

ومنذ ست سنوات خاض العالم غمار حرب طاحنة للذود عن الحرية وللدفاع عن الديمقراطية . فادعى هتلر أنه يحارب فى سبيل تحرير أوربا ، وفى سبيل إنشاء نظام جديد بعـد القضاء على الاستعمار البريطانى والوباء البلشفى . كما ادعى الحلفـاء أنهم يدافعون عن الحرية والحق والديمقراطيـة ، وفى سبيل انشاء عالم يكون خيراً من العـالم الحالى . وأخيراً انتهت الحرب ورفرف السلام على الأرض فتسابق قادة الأمم فى إسدال ستار كثيف على تلك الأحلام الجميلة وتلك الألفاظ المعسولة التى ظلوا يتشدقون بها طوال أيام الحرب ، وكل منهم يسعى وراء سياسة استعمارية تحقق أغراض وطنه دون مبالاة بالعدل وبالحرية للامم الصغيرة والأمم المغلوبة على أمرها ، وما أصرح المستر تشرشل حين قال وهو رئيس للوزارة إبان المعمعة :« انى لم آت الى الحكم فى هذه البـلاد لتصفية الامبراطورية البريطانية » . وكل منا يذكر مهزلة « ميثاق الاطلنطى » التى طواها النسيان وقبرها الزمان .

ومن الأدلة الملموسة على قلق النفوس واضطراب الأفـكار من جراء تجرد الألفاظ من معانيها حتى أصبحت فى حاجة إلى تعريف جديد يصطلح عليه الناس عامة — وقلما اتفق الناس على شىء بالاجماع — ذلك النزاع الخطير القـائم اليوم بين صفوف الحلفاء المنتصرين أنفسهم حول تفسير كلمتى « الحرية والديمقراطية » . فبينا نرى انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية — يؤيدها فى ذلك الفاتيكان — ترمى روسيا السوفيتية باتباع نظم دكتاتورية تتنافى مع أغراض الحرب ، وبينا نراها تصرح بأن المواطن الروسى لا يتمتع بالحرية الفردية ولا سبيل له لابداء آرائه السياسية عن طريق الانتخاب أو الصحف أو محطات الاذاعة ، نرى من جانب آخر حملات لا تقل عنفاً فى صحف روسيا الرسمية ترمى نظم تلك الدول بالفـاشية حيناً وبالدكتاتورية المالية (البلوتوقراطية) حيناً آخر ، وتأخذ عليها الروح الاستعمارية المتسلطة عليها وتعيب عليها استغلال الطبقات المالكة للطبقات العاملة استغلالا فاحشاً ينجم عنه بون شاسع بين حالة الطبقات الغنية وبين حالة الشعب الفقـير رغم ما يترتب على تلك الفوارق العظيمة من ظلم واستعباد وذلة تتنافى مع مبـادىء الحرية والمساواة وتكافؤ الفرص ، وتتعارض مع الشعور بالـكرامة الشخصية التى يحق لـكل إنسان أن يحتفظ ويفتخر بها أياً كانت مهنته .

يضيق بى المقام للتوسع فى شرح حجج كلا الفريقين حول تفسير معنى الحرية والديمقراطية ولـكل منهما أسانيد قوية وأدلة ساطعة تبدو للمرء قاطعة جامعة . يخيل إلى أن الأنجلوسكسون يقصدون بهذين اللفظين « الحرية السياسية » حق الفرد فى القول والانتخاب والاجتماع ، وحق الصحافة فى نشر ما يروق لها وحق الشعب فى تأليف أحزاب سياسية مختلفة ينتمى الفرد إلى ما يفضله منها ، وحق المعارضة فى أن تمثل فى المجالس النيابية الخ .

ويخيل من جهة أخرى أن روسيا السوفيتية تقصد بالحرية والديمقراطية الحرية الاقتصادية ، أى تكافؤ الفرص لـكل فرد من الأفراد ، وإلغاء الفوارق بين الطبقات ، تلك الفوارق التى

تنشأ غالبا عن المزايا الموروثة وعن استغلال طبقة قليل عديدها لطبقة الشعب العامل ، أى منع تسلط أقلية على أغلبية . كما يقصد الروسى بالديمقراطية منح كل شخص حسب عمله ، ومنح كل فرد الحق كاملا فى التعليم والعلاج بلا أجر يؤديه ، ومنح كل فرد الحق فى العمل والانتاج بعيداً عن شبح الفاقة والبطالة وهما داءان قديمان منتشران فى أوربا الغربية وفى أمريكا وفى روسيا نفسها قبل الثورة ، ينتجان عن سوء توزيع الثروة القومية ، كما أبان ذلك كارل ماركس ولينين فى مؤلفاتهما .

تناول الكتاب والمفكرون النزاع القائم حول معنى لفظى الحرية والديمقراطية ، ولكل فريق من الفريقين — الروسى والانجلوسكسونى — أنصاره ومؤيدوه .

وقد نشر أخيراً فى الولايات المتحدة الأمريكيه كتاب عن روسيا السوفيتية وعن نظامها السياسى والاقتصادى ، تناول مؤلفه فيه بحث مدى ما يتمتع به الفرد من الحرية فى روسيا . وانتهى به البحث بعد زيارة لتلك البلاد إلى الجزم بأن النظام السوفيتى نظام دكتاتورى بحت لا أثر فيه لأية حرية فردية . أما ذلك الكتاب فعنوانه « تقرير عن الروس *Report on the Russians* » لمؤلفه الصحفى الأمريكى الشهير وليام وايت William White . وقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة فى أمريكا وانقسم الرأى العام بشأنه إلى قسمين بين ناقد له ومثن عليه . وتعرض له الكتاب فى الصحف بالغلو فى التقريظ أحياناً ، وبالغلو فى الطعن أحياناً أخرى ، شأنه فى ذلك شأن كل ما تجود به قريحة المفكرين فى كل بلد حى يعنى أهله بالبحث والتمحيص للوصول إلى الحق وللوقوف على القيم الحقيقية للأفكار . وقد بلغ الجدل حول هذا الكتاب حداً لم يبلغه حول سائر المؤلفات الأخرى التى تناولت الموضوع نفسه ؛ إذ طالب فريق من الرأى العام الأمريكى — يؤيده فى ذلك نخبة من الصحفيين — بحبس الكتاب عن التداول ومنع نشره ، ولكن السلطات الأمريكية لم تجب تلك المطالب المتطرفة احتراماً لمبدأ حرية الفكر .

وغنى عن القول أن رأى جمهرة الشعب الأمريكى فى نظم الحرية والديمقراطية المتبعة فى روسيا لا يختلف كثيراً عن الآراء التى أذاعها وليام وايت فى مؤلفه .

ولنسمع الآن صوت الجرس الآخر كما يقول الفرنسيون ، ولنبحث عن آراء بعض الكتاب الغربيين — ولا أقول بعض الكتاب الروس — ممن زاروا أمريكا التى يعدها العالم حصناً منيعاً للديمقراطية تذود عن الحرية الفردية وعن حقوق الانسان . بل أكثر من ذلك لنستعرض آراء بعض الكتاب والمفكرين الأمريكيين أنفسهم فيما يتمتع به المواطن الأمريكى من حرية فردية ، ومدى تلك الحرية وأثرها فى حياتهم الاجتماعية ونظمهم السياسية الديمقراطية .

ظهر فى باريس فى عام ١٩٣٨ كتاب بالفرنسية لفت الأنظار بعنوانه الغريب « الولايات المنقسمة *Les Etats-Désunis*, Denoël, éd. » لمؤلفه فلاديمير بوزنر Vladimir Pozner وهو كاتب فرنسى من أصل روسى . أما وجه الغرابة فى هذا العنوان فيرجع إلى أن موضوع الكتاب يتناول رحلة قام بها مؤلفه إلى « الولايات المتحدة الأمريكية » فى عامى ١٩٣٦ و١٩٣٧ — وأما وجه الغرابة فى الكتاب نفسه فيرجع إلى أن المؤلف لم يحرره بأسلوبه الشخصى ولم يقحم نفسه فى الموضوع الذى تناوله بسرد مشاهداته أو ملاحظاته الشخصية مثلاً ، وإنما اكتفى فى أغلب الأحيان بنقل مقتطفات من الصحف الأمريكية المختلفة تروى وقائع معينة

متنوعة دون أن يعلق عليها الكاتب أى تعليق ، كما عنى بذكر اسم الجريدة وتاريخ صدور العدد . وقد قابل المؤلف عدة شخصيات أمريكية فى عالم الأدب والفكر فسجل فى كتابه أحاديثهم التى أدلوا بها إليه .

وقد استعرض فلاديمير بوزنر بعض المشكلات الأمريكية مبيناً علاقتها بمبادئ الحرية والديمقراطية كما يستسيغها الأمريكيون تاركا للقارئ مهمة استخلاص حكمه عليها من الوقائع التى وردت فى الصحف الأمريكية نفسها ، وتاركا له استنباط المغزى الذى يروقه من هذه المقالات وتلك الأحاديث .

تناول الكاتب بطريقته الفريدة فى نوعها مسائل شائكة وأبان الحلول التى لقيتها تلك المسائل فى العالم الجديد . تناول مثلا مشكلة البطالة فى الولايات المتحدة ، وأظهر خطرها الاجتماعى — إذ بلغ جيش العمال المتعطلين عدداً يربى على اثنى عشر مليونا قبل الحرب طبقاً للاحصائيات الأمريكية نفسها — وأوضح أن أولئك العمال لا يتمتعون إلا بقسط متواضع من الحرية لا يعدو حرية التجول نهاراً للبحث عن عمل ، والنوم ليلا تحت جسر من الجسور . وقد اشتهر « كوبرى بروكلين » فى نيويورك بعدد العمال المتعطلين الذين تؤويهم أعمدته .

ثم تحدث عن مشكلة الزنوج فى أمريكا ، وهى مشكلة عويصة لم يوفق أولو الأمر لحلها إلى الآن ، وأبان مايلقون من عسف وذل وما يسامونه من عنت وهوان وازدراء مع أن عددهم يربى على العشرة الملايين ، ومع أنهم مواطنون أمريكيون فى عرف الدستور .

ثم خاض المؤلف فى مسألة استغلال الشركات الرأسمالية القوية الجبارة لطبقة العمال الضعيفة المستسلمة ، ووصف حالة عمال المناجم فى ولايات الغرب الأمريكى وصفاً دقيقاً رائعاً ، أتى فيه على تفاصيل حياتهم وطرق معيشتهم وكشف أجورهم الزهيدة وسوء حالتهم البدنية لانعدام بعض الوسائل الصحية التى لا غنى عنها فى صناعة المناجم مما يترتب عليه إصابة كثيرين منهم بمرض السل وهم لا يزالون فى ريعان الشباب . ثم استطرد فأشار إلى سيف التهديد بالفصل المسلط فوق رقاب من تحدثهم أنفسهم بالاحتجاج لعلمهم علم اليقين بأن جيش العمال المتعطلين مستعد فى أى وقت للحلول محلهم بأقل من أجورهم . ثم ساءل الكاتب عما بقى للحرية الفردية من أثر لدى هؤلاء العمال وأولئك الزنوج .

وأهم ماجاء فى هذا الكتاب — بل أغرب ما حواه — تلك الأحاديث التى أدلى بها إليه ثلاثة من قادة الفكر ومن أئمة الأدب الأمريكى الحديث حين أثار معهم موضوع الحرية والديمقراطية .

أما هؤلاء الثلاثة فهم :

أولا — جون دوس باسوس John Dos Passos الكاتب والمفكر الشهير ، ألف عدة كتب فى قالب قصصى عن آثار الحرب الماضية فى نفس الجندى الأمريكى بوجه عام . أهمها « ثلاثة جنود » و « الولايات المتحدة الأمريكية » و « ١٩١٩ » .

قال جون دوس باسوس :

« نحن بلاد همجية بل أكثر الأقطار همجية . إننا مهد الفاشية ، وقد أخذ الألمان كثيراً
» عن بعض المفكرين الأمريكيين . لقد تأثرت أوربا كثيراً بتعاليم الولايات المتحدة المنافية
» للمدنية ، وأقصد بذلك أولئك الذين هجروا إلى هناك بعد أن عاشوا هنا ردحاً من الزمن ،

« فادخلوا فى أوربا ديدن الخضوع للقوة بعد أن فقدوا أنفسهم التقاليد الأوربية . لقد كانت
« جمعية « الكو - كلوكس - كلان » الأمريكية « Ku-Klux-Klan » أول مظهر منظم
« من مظاهر الفاشية . إن ألمانيا الهتلرية لتبدو نعيم الحرية إذا قيست بمدنتنا الصناعية العظيمة .
« لقد انتشرت الفاشية عندنا إلى حد أشعرنا أن لدينا إزاءها شيئاً من المناعة . بلادنا شاسعة
« وتضرب فيها الفوضى أطنابهـا بحيث لم يتمكن كبار رجال الصناعة من الاتفاق فيما بينهم
« لتفوق سلطة كل منهم .

« الشعور بالفوارق بين الطبقات الاجتماعية غير منتشر بين العمال الأمريكيين ، كما ينقصهم
« ذلك التضامن التقليدى الذى يربط العمال الأوربيين بعضهم ببعض . لقد شاهدنا حركات
« رائعة ولكنها لم تدم . إن مصانعنا العظمى لا تقر بوجود عمل لا غنى لهـا عنه ، لديها
« الآلات وبعض الأخصائيين وكفى » .

أما ثانى أولئك الكتاب فهو ولدو فرانك Waldo Frank وقد أدلى بالحديث الآتى :

« إننا شعب عجيب . فمعظم الأمريكيين لا يفكرون ، وإذا أراد أحدهم أن يفكر فلا أقل من
« أن يكون له عقل الجبابرة حتى يستطيع التفكير وهو مجذوب تتلقفه الصحف والراديو والسينما .
« إن التفكير فى أمريكا عملية تتطلب جهداً شاقاً لا يحتمله إلا القليل من الناس ، ولا يغرى
« إلا بعضهم . لقد خلقت وسائل اللهو وإذاعة الأخبار الجارية لدى الأمريكيين عادة البحث
« السطحى . وللآن لم يهضم الجمهور التشريع الحديث المعروف باسم « نيوديل New Deal »
« ولم يفهمه المفكرون كذلك . وعلى العموم فان مفكرينا لا يفكرون أكثر من سائر الناس .

« إننا حقاً لشعب عجيب . إذا جاءنا نظام الفاشية يوماً ما فانه سوف يتخذ شكلا خاصاً ،
« سوف يستند على الدستور فى كل أعماله فيصبح نظاما فاشيا دستورياً نيابيا . لن يرتدى
« أعضاء ذلك الحزب قمصاناً سمراً ، وإنما سيكتفون بالقمصان الثقيلة ذات النشا ، سيكون
« نظام فاشية بملابس السهرة .

« أصبح العنف والاستخفاف بالقوانين من تقاليدنا القديمة . ومن شواذ الشعب الأمريكى
« المميزة له تقديسه الدستور وعدم احترامه للقانون فى آن واحد . وتساعد حالة مدنيتنا
« الحاضرة على تشجيع هذا العمل ؛ إذ لدينا عدد هائل من العمال المتعطلين ينحدرون رويداً
« رويداً نحو الفاشية ولأن الالتجاء للعنف عادة مألوفة عندنا » .

أما ثالث أولئك الكتاب فهو « تيودور درايزر Theodore Dreiser » مؤلف رواية
« مأساة أمريكية » وقصص أخرى شهيرة ظهر بعضها على الشاشة البيضاء .
قال تيودور درايزر عن الحرية فى أمريكا :

« الصحافة والقضاء والاذاعة كل شىء فى أمريكا تابع للشركات الرأسمالية المسماة « ترست
« Trusts » . نشرت يوما كتاباً أسميته « أمريكا المفجعة *L'Amérique tragique* » ولكنه
« حذف بأكمله تقريباً . يالها من بلاد مخيفة حيث تسيطر فئة من « وول ستريت Wall Street »
« (حى المال والبورصات) على صناعة السينما وتفرض عليها رقابتها . ومن المحال عليك أن

« تتحدث عن السياسة أو المسائل الاجتماعية من محطات الاذاعة . وفى الواقع أنه من المحال
« عليك أن تتحدث منها عن أى شيء عدا السخافات . طلب منى ذات يوم أن أذيع حديثاً
« بالراديو . وقد كان فى وسعى أن ألقى سلسلة محاضرات عن موضوعات شتى يهمنى التحدث
« عنها فاستفهمت أأنا حر فى اختيار ما أتحدث عنه ؟ فأجبت أن حديثى سوف يراجع قبل
« إلقائه فأبيت . وكثيراً ما أدليت بعدة أحاديث إلى مراسلى صحيفة « نيويورك تايمس »
« « وهرالد تريبون » وصحف أخرى . وكلما ذكرت لهم شيئاً ذا مغزى رأيت الصحف
« تتناضى عن نشره . إن رجال المال فى أمريكا يسيطرون على كل شيء فهم يسيطرون على
« الصحافة والاذاعة والسينما ويسعون إلى فرض نفوذهم على المدارس ليهيمنوا على الفرد
« وليكتفوا بتعليمه تلك الجمل الدارجة المحفوظة المعروفة باسم « سلوجان Slogans » حتى
« لا ينفض الناس عن أنفسهم غبار الاستعباد .

« لقد اتضح أن رجال المال هم وحدهم القادرون على إدارة دفة العالم اليوم . كلا !
« لا تعتقد أنى فقدت كل أمل ، ولكنى أجابه الحقائق بصراحة وأشهد تفشى داء كداء
« السرطان يهدد الملايين من البشر ولا أرى من يحاول اكتشاف جرثومته ولا من يسعى
« لمقاومته أو القضاء عليه فى حين يستشرى الداء ويقتل . وما الذى سوف يؤدى إلى
« اكتشاف يقضى على هذا السرطان ؟ الرعب » .

والآن لأختمن مقالى بوصف مؤلف كتاب « الولايات المنقسمة » لأهل مدينة « واشنجتون » وهو وصف لا يخلو من الفكاهة . قسم فلاديمير بوزنر معظم سكان تلك المدينة إلى أربعة أقسام : الربع الأول — موظفون لا يعملون شيئاً يذكر ، ورجال السلك السياسى (الدبلوماسيون) وهم لا يعملون شيئاً البتة ومثلهم رجال « الطبقة الراقية » . والثانى — رجال الصحافة ولا هم لهم صباح مساء إلا وصف أعمال الفئة السابقة . يليهم الثالث وهم الزنوج ويربى عددهم على مئة وستين ألفاً ، وهؤلاء يتمنون عملا ويسعدون لو عثروا عليه ، ولكن ثلاثة أرباعهم متعطلون . أما الربع الباقى فانه يعمل ،

تلك عجالة عن الحرية والديمقراطية كما يتخيلها بعض الناس وكما يطبق مبادئها البعض الآخر ، وهى تصور لنا ما يراه أنصار الديمقراطية بعضهم فى بعض مندفعين بالطبع إلى شيء من الغلو فى الحكم والتقدير . فعلينا نحن أن نقف من هذين المذهبين موقف الانصاف ، وأن نتبين وجه الحق فيهما . وأغلب الظن أن الحق إنما هو بين بين .

فؤاد وصفى أبو الذهب

من وراء البحار

الكلية الامبراطورية بلندن

احتفلت الكلية الامبراطورية للعلوم والصناعات فى لندن بمرور مائة عام على إنشائها أو على الأصح على إنشاء إحدى الكليات الثلاث التى تتألف من مجموعها ، فان الكلية الامبراطورية نفسها لم تبلغ هذا المدى فى القدم ، فقد تألفت بمرسوم ملكى من ضم ثلاثة معاهد وهى الكلية الملكية للعلوم ، والمدرسة الملكية للمناجم ، وكلية المدينة والحرف ، وهذه المعاهد نفسها وليدة معاهد أخرى أقدم منها ، وأقدم هذه المعاهد هى الكلية الملكية للكيمياء التى أنشئت فى سنة ١٨٤٥ ، وهذه هى المناسبة التى اتخذتها الكلية الامبراطورية للاحتفال .

وقد أصدرت نشرة أخبار العلوم الانجليزية عدداً خاصا تكلمت فيه عن نواحى النشاط لمعاهد الكلية الأمبراطورية وتاريخ نشأتها ، فذكرت فيما يتعلق بالكلية الملكية للكيمياء أنه فى الربع الثانى من القرن الماضى بعد انتهاء حروب نابليون فى فجر النهضة الصناعية انتبه الناس إلى قيمة العلوم فى تحسين حال البشر ، ففكر بعض الانجليز سنة ١٨٤٢ فى إنشاء مدرسة للكيمياء العملية يطلق عليها اسم سير همفرى ديفى ، ولكن الفكرة لم تقرر إلا فى اجتماع عقد فى ٢٩ يوليه سنة ١٨٤٥ ، وقبل البرنس ألبرت رياسة الكلية الجديدة التى افتتحت فى أكتوبر من تلك السنة .

وكان الرئيس كبير الاهتمام بالموضوع ، فاستطاع بمجهوداته أن يعين هوفمان العالم الكيميائى أول أستاذ بها . وتمكن هوفمان فى تجاربه من فصل البنزين عن القار ، وابتدأ سلسلة من الاستكشافات الهامة لم تنته بعد ، من أحدثها مادة البلاستيك (وهى مادة مركبة تكيف بحيث تصير صالحة لما يصلح له الزجاج أو الأخشاب أو مواد البناء وغيرها من المواد) ، واستكشفت الكلية فيما بعد مئات الأصباغ من أهمها الأنيلين .

أما المدرسة الملكية للمناجم ، فقد افتتحت فى سنة ١٨٥١ على أثر إنشاء متحف الجيولوجيا العملية . وقد قامت هذه المدرسة بخدمات جليلة ، ويرد إليها الطلبة من جميع أنحاء العالم ، فطلابها يعملون على نشر معارفهم لا فى الامبراطورية وحدها بل فى ممالك متباعدة مثل أسبانيا والصين والمكسيك وجنوب أمريكا . وقد قام قسم الجيولوجيا فيها ببحوث جليلة دونت فى آلاف من الكتب والنشرات . وكان لقسم المعادن فضل الكثير من الاستكشافات ، فطريقة بسمر هى أول طريقة عملية لانتاج الصلب من طبقة عالية ، وهى التى تعدلت أخيراً ولكنها لا تزال أساساً للعمل .

وعند افتتاح البرلمان الانجليزى فى سنة ١٨٥٢ ، أعلنت الملكة فيكتوريا عن وضع

مشروع كبير لتقدم العلوم والفنون ، وعلى أثر ذلك أنشئت مدرسة العلوم . وكانت دراسة العلوم فى مبدأ الأمر تميل إلى اتخاذ اتجاه عملى ، ولكن الأستاذ توماس هكسلى عمل على نقل الكلية إلى بناء منعزل يعرف الآن باسمه ، وصارت مدرسة للعلوم منفصلة ، ثم نظمت فى سنة ١٨٨١ واتخذت نظام كلية للعلوم ، وقد قام أساتذتها ببحوث علمية جليلة .

وقامت جمعيات الحرف فى سنة ١٨٧٦ بانشاء مدرسة الغرض منها تخريج أساتذة فنيين ومهندسين ميكانيكيين ومدنيين ومعماريين وكهربائيين وفى الزخارف ، ثم تخريج مديرين للمصانع .

وقد أنشئت كلية السيتى والحرف ، ولكنها تطورت فيما بعد وصارت فعلا مدرسة هندسية .

مالرو الفرنسى وسيلونى الايطالى

شغل عدد أكتوبر من مجلة هورايزن الشهرية بالكاتب الفرنسى « أندريه مالرو » فنى ذاك العدد أربع مقالات عنه ، كتب إحداها الكاتب أدموند ولسن وقارن فيها بين مالرو الأديب الفرنسى وبين الأديب الايطالى اجناتزيو سيلونى ، وهما الكاتبان من الدرجة الأولى اللذان عبرا فى فترة ما قبل الحرب عن التنازع المركسى بين الطبقات .

وهذان الكاتبان من جيل واحد ولد الفرنسى منهما فى باريس سنة ١٩٠٠ والايطالى فى قرية بجبال الأبروتزى فى سنة ١٩٠١ ودرس مالرو اللغات الشرقية ثم سافر إلى الشرق للبحث عن الآثار وهناك اهتم للثورة الصينية واشترك مع رجالها بين سنتى ١٩٢٥ ، ١٩٢٨ وكان يعمل مع الشيوعيين الكومنتانج وكان عضواً فى لجنة الاثنى عشر التى نظمت الثورة فى كانتون ، وقد ضمن روايتيه « الفاتحون » و « حظ الانسان » التجارب التى عرفها عندئذ . ولفتت الرواية الأولى أنظار تروتسكى فتعرف إليه عند ماكان مقيما فى فرنسا . وحاول تروتسكى أن يصحح ما زعمه من خطأ فى نزعات مالرو إذ يرى فيه نزعة رومانطيقية زال عهدها وأراد أن يجعل منه ماركسيا لاشك فيه . ولقد اشترك مالرو فيما بعد فى الحرب الأهلية الأسبانية كرئيس فرقة . وقبل الخضوع لموسكو فى توجيهها وسياستها فى أسبانيا ، وفيما عدا ذلك ظل مستقلا تمام الاستقلال عن نفوذ تروتسكى وستالين .

أما سيلونى الأديب الايطالى فقد كان عضواً ثوريا عاملا منذ سنة ١٩١٧ وهو فى السابعة عشرة من عمره عند ماكان سكرتيراً لحركة الفلاحين النقابية التى نشأت فى موطنه ، وانتقل بعد ذلك إلى روما حيث صار رئيس تحرير جريدة اشتراكية ثم أحد الذين أنشأوا حركة الشبان الشيوعية تحت تأثير موسكو ، ثم اشترك سنة ١٩٢١ فى تنظيم الحزب الايطالى الشيوعى . وبين سنتى ١٩٢٥ و ١٩٢٩ كان عضواً فى اللجنة المركزية للحزب ، وظل يقوم بنشاط سرى فى عهد موسولينى . وكان يمثل الحزب لدى موسكو عند ما يلقى زعيمه فى السجن ويكون هو نفسه طليقاً .

وقد بدا حوالى سنة ١٩٣٠ أن الدولية الشيوعية الروسية تملى سياستها ناظرة إلى صالح روسيا قبل كل شىء ، وأنها لاتتيح للأحزاب الشيوعية فى الأمم الأخرى من الحرية ما يمكنها

من السير بما يتفق ومصالح تلك البلاد . فاستقال سيلونى من الحزب ، واستقال معه نصف الأعضاء الايطاليين تقريباً ، ولم ينضم مع ذلك لبوخارين أو تروتسكى . وقد هاجر من إيطاليا وسكن بلاد سويسرة ، وبدأ يؤلف الروايات ولم يعد إلى روما إلا فى سنة ١٩٤٤ بعد سقوط نظام الفاشست .

ويختلف الكاتبان مع ذلك فى نواحى تفكيرهما ، فبينما نرى أن فى مالرو جانبا من روح المغامر نرى سيلونى يميل إلى استنتاج القيم الأخلاقية . ولكن مما لا ريب فيه أن للمؤلفين تأثرا تأثراً عميقاً عند ما انكشفت تلك الخرافة التى قيل فيها أن روسيا تعمل لسيادة الاشتراكية فى العالم وذلك فى أغسطس سنة ١٩٣٩ حين وقعت روسيا ميثاقاً مع هتلر .

ولقد أخرج مالرو أخيراً قسما من قصته الجديدة المسماة « النضال مع الملاك » فى سويسرا سنة ١٩٤٣ ، ولم يخرج القسم الأخير منها للآن ، وهى تدل على حيرته وتردده فى تعريف منحى الانسان فى تفكيره وهل يؤدى هذا التفكير إلى نتيجة .

وأخرج سيلونى مسرحية طويلة نشرها فى سويسرا سنة ١٩٤٣ وأعيد نشرها الآن فى روما اسمها «ثم أنه أخفى نفسه» وفيها نجد أنه نزع إلى نزعة المسيحية الأولى ، ولكنها مسيحية خاصة به تهدئ من تردده وحيرته .

مستر أتلى

فى العدد الأخير من مجلة بريطانيا اليوم — عدد نوفمبر ، مقال طريف عن مستر أتلى رئيس للوزارة البريطانية بقلم مارى إجنز هاملتون ، فهى تقول إن كليمنت رتشارد أتلى يبلغ الآن من العمر اثنتين وستين سنة ؛ إذ هو مولود فى ٣ يناير سنة ١٨٨٣ وليس فيه ما يلفت النظر وما يسهل مهمة المصورين الهزليين غير أنف طويل أقنى وعينين براقتين وشارب قصير وخطه الشيب وجبهة عالية عراها الصلع فزاد من بروزها ، وهو يلبس ملابس حسنة التفصيل لا تظهر الجدة عليها ، وياقة غير منشاة وقبعة طرية . وإذا قابلته وأنت على سفر ولم تكن تعرفه حكمت بأنه ذكى وطيب القلب من النوع الذى يلجأ إليه فى الملمات . وهو شديد الحياء ولاريب فى أنك تجده مستغرقا فى كتاب أو جريدة ، وإن قابلته فى سفر خارج انجلترا فلا شك فى أنك تحكم عليه بأنه انجليزى قح .

وهو فى الواقع يمثل الرجل الانجليزى حق التمثيل ؛ فهو سياسي ظل أكثر من ربع قرن يعمل فى مجال السياسة ، ومع ذلك تجد أعماله خيراً من أقواله وخطبه ، وهى بحكم مركزه كثيرة فى القراءة خيراً منها فى السماع . وليس لديه شىء من مواهب الخطيب ولا أثر من الجاذبية التى تجذب الجماهير إلى الواقف على منصة الخطابة . أما قراءة هذه الخطب بعد النشر فتدل على أنها صادرة من عقل واضح أمين متزن وتعبر عن إرادة ثابتة تعرف أهدافها . والانجليز وإن كانوا يتأثرون بالخطابة لا يثقون فيها ، وكليمنت أتلى يشاركهم فى ذلك .

وإذا كان انجليزيا فى كبير الأمور فهو انجليزى فى صغيرها ، فهو يدخن البيبة التى تساعده كما تساعد مواطنيه على أن يخوضوا الحديث دون ان يتكلموا كثيراً . وهو يحب أسرته

ومنزله وحديقته ويمضى وقت فراغه فى المنزل . وهو يحسن بعض الألعاب — التنس والمراقد والشطرنج والبريدج . وقد قاتل فى الحرب العالمية الاولى فكان من الجنود الاشداء والضباط الاقوياء ، ثم عاد إلى وطنه وفيه تعلق شديد بالسلم .

ولكنه لا يمثل الانجليز من رجال القرن التاسع عشر بل رجال أواسط العشرين . فالانجليزى الآن يحب التنظيم الاجتماعى من أعماق نفسه ، وهو الآن على استعداد لاجراء تغييرات كبيرة إذا كان فيها ضرورة للاحتفاظ بالمساواة الاجتماعية كما كانت فى أيام الحرب ، وهذا هو السبب فى نتيجة الانتخابات التى تعبر عن عزم أهل بريطانيا على ألا يعودوا أدراجهم فى مناحى الحياة بل يسيرون إلى الأمام نحو الجديد ، وقد تلقوا دروس هذا الجديد فى زمن الحرب .

أما خطوات وصوله إلى رياسة الوزارة فيمكن إيجازها فى إخلاصه لمبادئ الحزب السياسى الذى ينتمى إليه . وهذا الحزب لم يكن موجوداً قبل خمسين سنة ، فقد نشأ هذا الحزب تحت تعاليم كارل ماركس إذ تكونت جماعة فى سنة ١٨٩٣ حول شخصية كير هاردى وكان من عمال المناجم وكان غرض هذه الجماعة اقتحام نقابات العمال لميدان السياسة .

ماذا فى باريس ؟

تدلنا نشرة الانباء الفرنسية على أن أولى الشأن اخذوا يفكرون فى بناء دار جديدة للراديو وقد خرجوا من الفكرة إلى مجال العمل ، وخصصت قطعة كبيرة من الأرض بين برج إيفل وكوبرى ألما تبلغ مساحتها ٤٩ الف متر مربع لهذا الغرض .

وقد وضع تصميم لهذا البناء على شكل نصف دائرة ترتفع إلى أربعة أدوار ، وقطر هذه الدائرة عبارة عن طرقة طويلة تطل عليها الأبهاء العديدة وغرف الاذاعة ويخصص كل طابق لعمل خاص ، فالطابق الأرضى أماكن الفنانين ، والطابق الأول أماكن المهندسين ، وفوق ذلك موئل للجمهور ، حيث يستطيع الناس ان يطلوا منه خلال نوافذ زجاجية ، على ما يجرى فى غرف الاذاعة ، وفى الدور الرابع رجال الصناعة .

ولكى يحال بين غرف الاذاعة والأبهاء وبين الضوضاء ، أحيطت بمكاتب من جميع الجهات فى كل دور حتى تكون فى عزلة تامة .

وتقوم الاذاعة الفرنسية الآن بعشرة برامج فى وقت واحد ، ثلاثة او أربعة على موجة طويلة أو متوسطة ، وستة أو سبعة على موجة قصيرة . وهى إذاعات لفرنسا وللبلاد الأجنبية وما وراء البحار . وهذا العمل يتطلب استعداداً فنياً من أدق ما يكون ، فيجب أن يكون فى بيت الاذاعة إذن نحو خمسين من غرف الاذاعة خصص كل منها للأنواع العديدة كالمسارح والملاهى والموسيقى والتحدث . وينتظر أن يكون فى البناء الجديد ثلاثة أبهية كبيرة للحفلات الموسيقية والتمثيل . وهنالك فضلا عن ذلك ، الملحقات الضرورية كالمكتبات الموسيقية ، والمسرحية ، ومكتبة الاسطوانات ، وأماكن أخذ الأصوات ، والتسجيل على الأشرطة ، والاسطوانات ، وقسم التوزيع إلى غير ذلك .

أخبار الأدب فى باريس

جائزة جونكور

تقرر فى اجتماع من أندريه بيلى وليو لارجييه ولوسيان دكاف وورولان دورجليس وكوليت وفرنسيس كاركو منح جائزة جونكور لجان لوى بورى لقصته « قريتى فى زمن الالمان » وهو أصغر مؤلف نال هذه الجائزة ، إذ ولد فى سنة ١٩١٩ ، والقصة عبارة عن ذكريات فى أيام الاحتلال ، حيث تصغى فتاة إلى إذاعات لندن وإليها هرب خطيبها ، بينما أبوها وأخوها من أنصار الألمان ، وحول هذه الأسرة سكان القرية ، وتنتهى القصة عند تجدد الآمال بنزول الحلفاء إلى الأرض الفرنسية .

جائزة رينودو

وأعلن كذلك أن جائزة رينودو منحت لهنرى بوسكو من أجل قصته « كفرتيوتيم » وهذا الكاتب يعيش فى مراكش بعد أن خدم فى الخارج وعاش فى اليونان وتركيا وشمال أفريقا وهو مؤلف « البرانس » و « الباشق » وقد نشر أشعاراً .

جائزة الدول المتحالفة

ظل القائمون على شئون الجائزة خمس سنوات كاملة لا يمنحونها لأحد وقد قرروا أخيراً منحها فى احتفال يقام فى ١٧ ديسمبر ويجب أن تمنح لروائى مشتغل بالصحافة .

جائزة النصر

تمنح جائزة النصر هذا العام فى يوم عيد الميلاد لأديب مبرز من رجال الصحافة .

وفاة

توفى أخيراً الاديب الفرنسى أوجستان هامون مترجم برنارشو إلى الفرنسية .

ظهر حديثاً

ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة للأستاذ سعيد الأفغاني (المطبعة الهاشمية دمشق)

في التعاون الثقافي بيننا وبين أقطار الشرق العربي نقص خطير ما زلت أدعو إلى تلافيه منذ أعوام طوال دون أن أجد من يصغي لهذا الدعاء فضلا عمن يستجيب له . ويخيل إلى أن من أول واجبات مجلس الجامعة العربية ولجنته الثقافية بوجه خاص تلافي هذا النقص الذي كان يجب تلافيه منذ وقت طويل . فليس بين مصر والأقطار العربية تبادل صحيح للثقافة ، وإنما ترسل كتبنا وصحفنا ومجلاتنا إلى هذه الأقطار ، ولا تكاد الكتب والصحف والمجلات التي تصدر فيها تصل إلينا إلا إذا تفضل أصحابها فأرسلوها إلى فلان أو فلان أو إلى هذه الصحيفة أو تلك . ولست ألاحظ أن في هذا التقصير ظلماً للأقطار العربية وحدها ، فمن حقها أن نقرأها كما تقرؤنا ، وإنما ألاحظ أن فيه ظلماً لمصر نفسها ، فان هذا التقصير يفوت عليها نفعاً كثيراً .

ففي أقطار الشرق العربي كما في أقطار الغرب الأوربي رءوس تفكر تفكيراً خصباً وأقلام تنتج أدباً قيماً . ومن الحق علينا لأنفسنا أن نقرأ هذه الآثار القيمة التي ينتجها إخواننا من أدباء العرب ، وأريد أن يقرأها الجمهور المثقف من المصريين ، لا أن يقرأها الأفراد القليلون الذين يتلقونها بين حين وحين . أريد أن تكون قريبة التناول تقدم إلى قرائنا في الصحف ويجدها قراؤنا حيث يجدون كتبنا المصرية وحيث يجدون الكتب الفرنسية والانجليزية في غير مشقة ولا عناء . وإنه لمن المؤلم حقاً أن نلاحظ شيئين كلاهما ثقيل على النفس بغيض إليها . أولهما أن كتبنا المصرية تعرض على القراء في الأقطار العربية عرضاً متصلا وأن كتب الأدباء في هذه الأقطار لاتعرض على قرائها عرضاً متصلا ولا منقطعاً . فالأقطار العربية تعرف عنا أكثر مما نعرف عنها ، بل أكثر مما نعرف نحن عن أنفسنا أحياناً . الثاني أن المصريين يعرفون كبار الكتاب وصغارهم في الغرب الأوربي ، لأن كتبهم تعرض في مصر عرضاً مستمراً ، ولا يكادون يعرفون شيئاً عن كبار الكتاب والشعراء في الأقطار العربية . وليس لهذا كله مصدر إلا أننا نحن نقدر على الاصدار أكثر مما تقدر عليه البلاد العربية الأخرى ، كما أن أوروبا تقدر على الاصدار إلينا أكثر مما نقدر نحن على الاصدار إليها . وسواء أكان من الخير أم من الشر أن نقصر في الاصدار إلى أوربا ، فان من الشر الذي لا شك فيه أن نقصر في استيراد الكتب والصحف والمجلات التي تصدر في البلاد العربية ، فان الذين يريدون التعاون الثقافي الصحيح يجب أن يتعارفوا قبل أن يتعاونوا ، ولا سبيل إلى التعارف إلا بأن يقرأ بعضنا بعضاً ، ويفهم بعضنا بعضاً ليحب بعضنا بعضاً ، ثم لنتعاون بعد ذلك عن ثقة وبصيرة لا عن قرارات تلقيها إلينا الحكومات أو مجالس الجامعة العربية ولجانها .

وقد تحدثت فى العدد الماضى من هذه المجلة عن هذا الانتاج القيم الذى أنتجه الأستاذ سعيد الأفغانى حين أصدر كتابه عن الاسلام والمرأة، وحين نشر جزءاً من كتاب الذهبي عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها.

وأعود اليوم مرة أخرى إلى الأستاذ سعيد الأفغانى وإلى إنتاج قيم آخر له، هو كتابه عن ابن حزم ونشره لرسالة من رسائل ابن حزم فى المفاضلة بين الصحابة. فالأستاذ سعيد الأفغانى يمتاز حقاً فى نوعين من أنواع الانتاج العلمى الخصب: أحدهما النشر الدقيق للنصوص القديمة، والآخر الدرس الصحيح الرائع للموضوعات التى تتصل بهذه النصوص. ودرسه لابن حزم من أروع ما يقرأ فى هذه الأيام، ففيه استقصاء دقيق شامل لحياة هذا العلم العظيم من أعلام الاسلام، والبطل القديم من أبطال الحرية. وليس فى هذا المكان متسع لنقد هذه الدراسة نقداً مفصلا ولا للتنويه بمزاياها وما أكثرها، ولكن أقرر مخلصاً أنها من خير ما يقدم إلى الشباب؛ لأنها تعرض عليهم نموذجاً صالحاً لمناهج البحث العلمى الدقيق الذى يخلو من الغلو ويبرأ من الاسراف ويحرص على الاعتدال وصدق التقدير، وتقدم إليهم فى الوقت نفسه مثلا صالحاً للرجل الحر الكريم كما ينبغى أن يكون الرجل الحر الكريم، مؤثراً للمعرفة أولا ولنشر المعرفة ثانياً على الجاه الرفيع والثراء العريض والاستمتاع بالراحة والنعيم. مؤثراً لحرية الرأى بعد ذلك لا أقول على الخفض والدعة بل أقول على السلامة والأمن. وقد كان ابن حزم صورة صادقة لهذا الرجل الحر الكريم، فآثر العلم على الوزارة والثراء، وآثر حرية الرأى على الهدوء والاطمئنان، بل على الحياة نفسها، وتعرض لألوان المحن فلم يضعف ولم يهن، وإنما كانت المحن تمنحه قوة وأيداً، وتغريه بالجهاد الذى لا ينقضى، وترك لنا بعد ذلك تراثاً رائعاً ذهب أكثره، ولكن فى القليل الباقى منه كنوزاً لا تنفد ولا ينقضى العجب من قدرة صاحبها على البحث والاستقصاء.

وقد عرض الأستاذ سعيد الأفغانى علينا هذه الصورة عرضاً هادئاً معتدلا، فيه كثير جداً من الاستبصار الدقيق الرفيق؛ فهو يعجب بابن حزم إلى غير حد، ويحملنا على أن نعجب به إلى غير حد، ولكنه فى الوقت نفسه ينبهنا إلى ما كان ابن حزم يختص به من هذا المزاج الحاد العنيف الذى كان يخرج به عن طوره، ومن هذا اللسان الذرب الطويل الذى كان يكلفه ويكلف الناس شططاً كثيراً. وللاستاذ سعيد الأفغانى وقفات رائعة عند أدب ابن حزم سواء أكان هذا الأدب شعراً أم نثراً، وعند هذا التناقض بين رقة هذا الرجل العظيم حين كان يحب، وغلظته حين كان يخاصم. وقد نخالف الأستاذ سعيد الأفغانى فى هذا الرأى أو ذاك من آرائه فى أدب ابن حزم، ولكن هذا لا يغض من الكتاب شيئاً ولا ينقص من إعجابنا بالمؤلف قليلا ولا كثيراً.

فأنا مثلا لا أشبه ابن حزم بالجاحظ إلا فى كثرة الانتاج وفى الأسلوب أحياناً، ثم أرى بعد ذلك أن الرجلين يفترقان أشد الافتراق. ففى الجاحظ لين ويسر وتفرق، وفى ابن حزم شدة ورصانة ونظام واطراد. وأنا لا أوافق الأستاذ على أن القرون الخمسة الأولى من تاريخنا لم تنتج مثل الجاحظ وابن حزم، وأرى أنها قد أنتجت أعلاماً آخرين ليسوا أقل خطراً من هذين العالمين العظيمين. وإذا لم يكن بد من أن نقرن إلى ابن حزم رجلا من أهل الشرق، فقد أقرن إليه أنا عظيم الشام وشيخ المعرة أبا العلاء، وكان أبو العلاء معاصراً لابن حزم. ولعل بين علماء المسلمين من سمع للرجلين جميعاً وأخذ عنهما بعض ما نشرا

من العلم . وكان فى الرجلين جميعاً عنف شديد ورقة شديدة ، ولكن رقة ابن حزم كانت حباً للجمال الذى رآه ، ورقة أبى العلاء كانت حباً للخير وعطفاً على الضعيف . وقد تعرض الرجلان جميعاً لبغض العامة والخاصة فى حياتهما وبعد موتهما . وكان مصدر هذا البغض حرية الرجلين وإيثارهما لهذه الحرية على كل شىء . ولكن ابن حزم أزعج عن داره ، وكانت آفة أبى العلاء وتسامح الشرقيين مصدراً لما أتيح له من العافية . كلا الرجلين كان له رأى أو آراء ، وكلا الرجلين جاهد فى سبيل آرائه . وكلا الرجلين ظلم فى عصره ويوشك ان يظفر بالانصاف فى العصر الحديث . فأين يقع الجاحظ من هذين الرجلين على ما للجاحظ من مكانة ممتازة فى الادب العربى الرفيع !

ومهما يكن من شىء فانى أشكر للأستاذ سعيد الأفغانى أصدق الشكر وأخلصه هديته القيمة ، وأتمنى مخلصاً أن يتاح لكتابه هذا أعظم حظ من الانتشار ، فما أشد حاجة الشباب والشيوخ إلى أن يقرءوه ويقرءوه .

أما رسالة ابن حزم فى المفاضلة بين الصحابة فآية من آيات الدقة فى المنطق وحسن الاستقصاء فى البحث وجودة التصوير للرأى وروعة التعبير عن هذا الرأى . وهى تروق القارىء الحديث لما فيها من هذه السذاجة الحلوة ، ومن هذا اليقين المطمئن ، ومن هذا العنف العنيف فى مناضلة الخصوم والتسلط عليهم بالحجة الدامغة أو التى كان ابن حزم يراها دامغة ، والبرهان القاطع أو الذى كان ابن حزم يراه قاطعاً . والموضوع بعد ذلك خطير كل الخطورة لأنه يمس المسألة التى انقسم المسلمون حولها وما زالوا منقسمين ، مسألة المفاضلة بين أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وبين خلفائه الراشدين بنوع خاص . وقد استكشف الأستاذ سعيد الأفغانى أن هذه الرسالة إنما هى جزء من كتاب « الفصل » لابن حزم ، ولكنه على ذلك لم يتردد فى نشرها للأسباب التى بينها ، وحسناً فعل . فالذين يفكرون فى كتاب الفصل وينظرون فيه قليلون لطول الكتاب وبعده عن متناول الكثرة من المثقفين المحدثين . ومن يدرى ! لعل إذاعة هذه الرسالة أن تغرى بعض الناس بالنظر فى هذا الكتاب العظيم .

أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الاسلام تأليف عبد الحليم الجندى (مطبعة دار سعد مصر)

وما دمنا قد تحدثنا عن كتاب موضوعه بطل من أبطال الحرية فى الأندلس هو ابن حزم ، فلنتحدث عن كتاب آخر موضوعه بطل من أبطال الحرية فى الشرق وهو أبو حنيفة عظيم الفقهاء . فقد نشر الأستاذ عبد الحليم الجندى هذا الكتاب وتفضل باهدائه إلى فى نفس الوقت الذى وصل إلى فيه كتاب الأستاذ سعيد الأفغانى عن ابن حزم . ولأمر ما اتفق هذان الكتابان فى دمشق والقاهرة على العناية برجلين كلاهما يمتاز بحب الحرية والجهاد فى سبيلها والتعرض فى أثناء هذا الجهاد لاحتمال المحن الثقال . فقد يظهر أن فى ضمير الشرق العربى طموحاً هائلا إلى الحرية من جهة وحرصاً عظيما على وصل قديمنا بحديثنا فى حب الحرية والحرص عليها من جهة أخرى .

وكتاب الأستاذ عبد الحليم الجندى ممتع كل الامتاع ، مافى ذلك شك . تأخذنى قراءته

فتحب موضوعه كما تحب كاتبه . تجد روحاً من الاخلاص يحبب إليك المضى فى القراءة ، ثم يعرض عليك هذا المضى فما تزال تقرأ حتى تتم الكتاب . فاذا صرفتك شواغل الحياة عن هذه القراءة فأنت تنصرف عنها كارهاً ، وأنت تنتهز الفرصة لتستأنف هذه القراءة التى لا تريد عنها سلواً . ومع ذلك فامتاع هذا الكتاب لقارئه لا يأتى من منهج البحث ولا من طريقة العرض ولا من التعمق فى درس الموضوع ولا من الاستقصاء لما يتصل به من المسائل ، فكل هذه خصال لم يتح للأستاذ عبد الحليم الجندى منها فى هذا الكتاب إلا القليل . فأبو حنيفة يوشك ألا يكون موضوعاً للكتاب وإنما هو تعلة اعتمد عليها المؤلف ليكتب هذا الكتاب . وهو من أجل ذلك ينتهز فرصة أبى حنيفة ليحدثنا عن كل شىء عن العرب فى عصورهم القديمة والحديثة ، وعن اليونان والرومان والأوربيين المحدثين . فاذا عيب على الكتاب شىء فهو هذا التشتت الكثير وهذا الاستطراد الذى لا تخرج منه إلا لتعود إليه . ولست أدرى أمصيب أنا فى النظر إلى هـذا التشتت والاستطراد على أنهما عيبان ، فهما لا يصرفانك عن الكتاب ولا يزهدانك فيه وإنما يغريانك به ويدفعانك إليه دفعاً . ومصدر ذلك فيما أعتقد أن الكاتب مؤمن بالقديم مخلص فى حبه والاعجاب به . وإذا صدر الكاتب عن الايمان والاخلاص فهو واثق بأنه سيجد من القارىء محبة وقبولا حتى حين يذكر أثينا وإسبرطة بمناسبة بناء بغداد ، وحين يشبه أبا حنيفة «بسولون» على بعد ما بينهما فى الزمان والمكان والطبيعة ، وحين يملأ عليك الجو علماً وأدباً وحكماً وأمثالا . ولن يعاب الكتاب بأنه لم يصور أبا حنيفة تصويراً صادقاً أخاذاً يبلغ الروعة فى كثير من الأحيان ، فأنت واجد هذه الصورة فى الكتاب من غير شك ، ولكنك تجدها بعد شىء من المشقة وكثير من الصبر ، لأن الكاتب يدنيك منها ثم لا يلبث أن يبعدك عنها ، ثم يعود بك إليها ثم ينأى بك عنها مرة أخرى ، وأنت فى هذا الاقبال والادبار والقرب والبعد منذ تبدأ قراءة الكتاب إلى أن تفرغ منها .

وقد كنت أحب أن يخلص الكاتب من كل هذا العلم الغزير والأدب الكثير ويعكف على أبى حنيفة وحده فيدرسه درساً عميقاً ويعرض علينا هذا الدرس ، فاذا قرأناه عرفنا الرجل وفقهه وبيئته وأثره حق المعرفة ، ولا علينا بعد ذلك ألا نعرف هذه الأطراف الكثيرة القايلة التى ملأت الكتاب بعلم وأدب لهما قيمتهما من غير شك ، ولكنهما يستنفدان من جهد الكاتب والقارىء مقداراً كان أبو حنيفة أحق أن يستأثر به .

وما أحب أن أشكر للأستاذ عبد الحليم الجندى جهده العظيم دون أن أنوه بأن الأستاذ رجل من رجال المدرسة الحديثة ، تعلم فى المدارس المدنية وتخرج فى كلية الحقوق ، وهو يعمل فى أقلام القضايا . فعنايته بالأدب القديم وإتقانه لهذا الادب وتفرغه للفقه القديم وبراعته فى هذا الفقه وسبقه إلى التأليف فى أبى حنيفة قوماً كانوا أجدر أن يؤلفوا فى أبى حنيفة ، كل هـذه خصال يجب أن تعرف للأستاذ وأن تحمد له أصدق الحمد . وقد لاحظ الأستاذ أن الله قد رفق بالمسلمين فأهدى إليهم الشافعى حين قبض إليه أبا حنيفة . رحم الله الرجلين العظيمين . فما رأى الأستاذ فى أن يفرغ لدرس الشافعى كما فرغ لدرس أبى حنيفة . وللشافعى رحمه الله إلى مكانته الممتازة فى تاريخ الفقه والأدب صلة بمصر لعلها أن تغرى الأستاذ بالتفرغ والعكوف عليه .

طه حسين

فن القصص لمحمود تيمور بك (نشرته مجلة الشرق الجديد فى أكتوبر سنة ١٩٤٥)

فى إحدى المجموعات الاولى التى نشرها الاديب محمود تيمور بك من قصصه ، وهى مجموعة الشيخ سيد العبيط التى نشرت فى سنة ١٩٢٦ ، كتب المؤلف مقدمة طويلة قيمة عن القصة جاء فيها عن الكتاب المعاصرين الذين أخذوا فى الاقبال على هذا النوع من الأدب : « لقد ظهر فى الوقت الحالى أى فى البضع السنين الأخيرة بعد المرحوم محمد تيمور مؤلفون عالجوا فن كتابة الأقاصيص . وهم على قلتهم وقلة مؤلفاتهم يبشرون بمستقبل زاهر جميل ، ولا ريب فى أن بلاغتنا القصصية فى المستقبل ستكون بمجهودهم الصادق فى العمل على إيجاد آداب مصرية بالمعنى الصحيح ووضع أساس هذا الفن . ومن هؤلاء الأدباء ممن لم تخن ذاكرتى فى عدهم هم : المرحوم عيسى عبيد مؤلف كتابى إحسان هانم وثريا ، وشحاته عبيد مؤلف كتاب « درس مؤلم » وإبراهيم المصرى وحسن محمود ومحمود عزى وطاهر لاشين وخيرى سعيد وعبد القادر المازنى وحسن صبحى وسليم شحاته ... وغيرهم من الأدباء القصصيين العصريين الذين يتكاثرون كل يوم فيزيدون ثروتنا الأدبية القصصية » .

هذا ما كتبه محمود تيمور بك منذ عهد يقرب من عشرين عاماً ، والآن نستطيع أن نحكم على « المستقبل الزاهر » فى هؤلاء الذين ذكرهم ، وهو طبعاً حين كتب هذه الأسماء لم ينتبه إلى أن أحدهم وقد توفى فى العهد الذى كتب فيه لم يعد له مستقبل . والآن بعد ما يقرب من عشرين سنة لا نجد فى مجال القصة أو على الأصح الأقصوصة غير ثلاثة من هذه الأسماء : طاهر لاشين الذى نشر مجموعات من الأقاصيص فى الدرجة الأولى من الاتقان ثم طال عهد سكوته . ومحمود عزى الذى ينشر الأقاصيص بين حين وحين ، قد نشرت له مجلة « الكاتب المصرى » قصة طريفة . وإبراهيم المصرى الذى يوالى تأليف القصص وقد نشر أخيراً مجموعة بديعة من الأقاصيص تحت اسم « خريف امرأة » . أما من سواهم فقد اتخذوا اتجاهات أخرى بعضهم فى الأدب والبعض فى الصحافة والبعض نشر قصصاً طويلة والبعض لم ينشر شيئاً .

على أن هنالك أديباً رابعاً بدأ كتابة الأقاصيص منذ نحو عشرين سنة واستمر عليها وقد وضع فى هذا العمل الأدبى الجليل روحه ونشاطه حتى صار زعيم الأقصوصة فى الأدب المصرى وربما كان زعيمها فى الأدب العربى ، وهذا الأديب هو محمود تيمور نفسه .

نشر مجموعتى « الشيخ جمعه » و « عم متولى » فى سنة ١٩٢٥ ثم تلاها بمجموعتى « الشيخ سيد العبيط » ، و « رجب افندى » سنة ١٩٢٦ وبعد ذلك ظهرت مجموعات عديدة قصصية وقصص طويلة ومسرحيات نذكر منها « الحاج شلبى » و « ابو على عامل ارتيست » و « بنت الشيطان » و « الأطلال » و « قلب غانية » و « سهاد » وهو يوالى الكتابة فى كل مكان قصصاً ومسرحيات ، فصار فى طليعة الحركة الأدبية الحديثة .

والآن بعد كل هذا النشاط وهذا المجهود الحميد يخرج لنا محمود تيمور بك « كتاب فن القصص » الذى طبعته مجلة الشرق الجديد فى عدد خاص . ولا يظنن أحد أنه يتلقى دروساً فى هذا الكتاب الجديد يستفيد منها الناشىء ، فليثق الناشىء أنه لا يستفيد شيئاً من هذا الكتاب . وكتابة القصص فن لا يعلم من الكتب ، فقد تفيد الكتب فى معرفة تركيب القصة وتقسيمها

إلى مقدمة وقلب الموضوع وخاتمة وغير ذلك ، ولكن القصص الجدير بالحياة زمنا قصيراً أو طويلا لا يعلم ، شأن كل شيء فني .

فهذا الكتاب إذن تجارب أديب عليم بأسرار القصة يتحدث في وجوهها حديثاً مليئا بالخبرة عن مشكلات تعرض لكاتب القصة بعضها خاص باللغة العربية باعتبار أن فن القصص جديد فيها وهو ما أشار إليه الدكتور شادة في محاضرة بمؤتمر المستشرقين عن قصص محمود تيمور ونشرت مع مجموعة « الحاج شلبي » ، وبعضها مشكلات تعرض للأديب في الشرق والغرب معاً مع تطور الحياة الاجتماعية .

وهذه الآراء التي بسطها الأديب وأوجد لها حلولا سواء وافقت عليها أم لا توافق فانك تنتهي منها وفي نفسك تقدير للمجهود الذي بذل ، لا سيما إذا تذكرت أن هذا الأديب لم يقتصر على البيان النظري وإنما كان له شأن كبير في بناء القصة وتطورها في الأدب العربي ،

وينتهي الكتاب ببعض الأقاصيص الشيقة لمحمود تيمور بك ومنها لا تستبين مقدار فنه فان ذلك يوجب عليك أن ترجع للعشرات من الكتب التي نشرها الأديب وإنما تتذوق فقط أمثلة لهذا الفن .

حسن محمود

من أعماق الجبل للاستاذ صلاح لبكي (منشورات دار المكشوف بيروت)

مع ستة رسوم بريشة قيصر الجميل ، ومقدمة مستفيضة في معنى « الأسطورة » ودلالتها على التاريخ وأثرها في تربية الأمة ، بقلم الأستاذ بطرس البستاني .

هذا كتاب من لبنان ، فيه نفحة من عطره ، ونغمة من وتره ، ولمحة من سناه ؛ مؤلفه شاعر لم يلهمه شيطان ، في دمه ذرة سابحة منذ الأزل تحدرت إليه في أصلاب الأجيال من أسلافه جيلا بعد جيل حتى انتهت إليه ، وسكنت في أعراقه ، واتخذت مسبحها في دمه ، فاذا هي بعد ليست ذرة جامدة ، بل قوة متفجرة جياشة ، تفيض في قلبه طهراً ، وفي جوه عطراً ، وعلى لسانه شعراً ؛ وإذا نغمة من غناء علوي اللحن له في كل قلب صدى ، ونور سماوي اللمح له في مرأى كل عين سنا ؛ وإذا صوت تلفظه شفتان ولكنه من قوة الأثر وصدق التعبير كأنه صوت الأجيال الهاتفة من وراء الغيب قد احتشدت جيلا فجيلا تهتف بأغنيتها فتتجاوب أنغامها بين السهل والجبل وبين البحر والبادية . . .

ذلك صدى هذا الكتاب !

بضع أساطير ، قد لا يكون فيها كل جمال الصنعة ولكن فيها قوة الفن ، وقد لا يكون فيها براعة الخلق ولكن فيها براعة صدق التعبير !

بضع أساطير ، هل اصطنعها صلاح لبكي ليعبر بها عن روح لبنان ، أو هي روح لبنان ، قد اصطنعت صلاح لبكي لتعبر بلسانه عن حقيقتها ؟ . . . لست أدري ، ولكنه على أي حاليه كتاب من لبنان ، فيه نفحة من عطره ، ونغمة من وتره ، ولمحة من سناه ؛ وفيه صوت الأجيال الهاتفة من وراء الغيب قد احتشدت جيلا فجيلا تهتف بأغنيتها فتتجاوب أنغامها بين

السهل، والجبل وبين البحر والبادية . . . فليكن هو كتاب لبنان ، أو فليكن كتاب صلاح لبكي ؛ أو لعل صلاح لبكي في هذه الأساطير هو روح لبنان مصوراً في كتاب وكاتبه ! . . .

قصر الحير الغربي نقله من الفرنسية الأستاذ إلياس أبو شبكة (منشورات دار المكشوف بيروت)

قصر الحير الغربي : هو القصر الذي اتخذه هشام بن عبد الملك « بادية » على جانب الطريق المؤدية من دمشق إلى تدمر ، أيام كانت دمشق هي حاضرة بلاد الخلافة لعهد الأمويين . وهذا القصر هو واحد من مجموعة من القصور الأموية التي كانت تشاد على الكثير الغالب في الصحراء ، ويسمونها « الباديات » أو البوادي ؛ وذلك أن الأمراء كانوا يرغبون في الاستراحة من عناء الحكم فيبنون لأنفسهم بيوتاً ريفية ، يطلقون على كل منها اسم « بادية » ويزينونها زينة بديعة يأوون إليها في أيام الراحة والاستجمام . . . ومن تلك « الباديات » المشهورة : قصر الحير الشرقي في مقاطعة تدمر ، وخربة المنية ، وخربة المفجر في فلسطين ، وقصر القراني ، وقصر الطوبي ، وقصر المشتى في شرق الأردن ، وغيرها . . .

وقد ظل قصر الحير الغربي هذا مطموراً في بطن الصحراء مئات من السنين حتى وفق للكشف عن أطلاله وما بقي منه البحاثة الفرنسي « دانيال شلومبرجه » في سنة ١٩٣٩ فاستنقذ ما بقي منه وأقامه صورة ناطقة بما بلغته الحضارة الاسلامية لعهد الأمويين في هندسة البناء وطراز الحياة . . .

وقد نشر ذلك العالم الأثري الفرنسي في سنة ١٩٣٩ مبحثاً مستفيضاً بالفرنسية عن هذا الأثر التاريخي الذي استكشفه في مجلة « سيريا » المختصة ببحث الفنون والآثار الشرقية . وهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو الترجمة العربية لذلك المبحث الفريد ، مخففة شيئاً ما عن أصلها الفرنسي ليسهل تناولها على القارئين جميعاً ولو لم يكن لهم اختصاص فني في مثل هذه البحوث الأثرية الدقيقة .

ويشتمل الكتاب إلى ما فيه من معلومات — طائفة غير قليلة من الصور ، بعضها عن الحقيقة وبعضها تخطيطات هندسية تمثل ما كان عليه ذلك القصر قبل أن تأتي عليه الأيام .

وقد أحسن الأستاذ إلياس أبو شبكة بترجمة هذا البحث إلى العربية ، وأحسنت دار المكشوف بنشره وإذاعته في هذا الوقت التي يتلفت فيه العرب في مختلف الأقطار إلى ماضيهم المجيد يستلهمونه العزم والقوة في نهضتهم هذه الحديثة التي يرجى إن شاء الله أن يكون لها في المستقبل القريب أطيب الثمرات .

خلاصة الفكر السياسي منذ الثورة الفرنسية نقله عن الانجليزية خدوري خدوري ومجيد عبد الله (مطبوعات جمعية الرابطة الثقافية بغداد)

وهذا كتاب تخرجه المطبعة العربية في أوانه ؛ فقد كانت تلك الحرب التي وضعت أوزارها منذ قريب نذيراً بعيد الصدى ينبه العرب في هذا الشرق ، أفراداً وأمماً ، إلى ما لهم من الحق

فى حياة إنسانية كريمة يتحقق بها معنى الأخوة المشتركة بين الناس فى مختلف أقطار الأرض .
وقد استمع العرب إلى هذا النذير ؛ ففى نفس كل عربى اليوم — على اختلاف الديار — روح قوى يحفزه إلى الجهاد لاستكمال حريته والظفر بحقه . وهذا كتاب يحاول مؤلفه « ستيفن سوينكر » أن يجمل فى صفحاته القليلة صورة مختصرة واضحة عن تطور الفكر السياسى منذ الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ حتى تطبيق المبادئ الماركسية فى ثورة سنة ١٩١٧ الشيوعية .
ولم يقتصر المؤلف فيما أجمل من القول ، على ذكر الحقائق والاشارة إلى الحوادث ، بل حلل الآراء والمذاهب التى عرض لها فى كتابه تحليلا دقيقاً وناقشها نقاشاً علمياً موجهاً ، ولم يغفل مع ذلك عن ربط الآراء المتعاقبة والمذاهب المختلفة بعضها ببعض ، مبيناً علاقة كل مذهب منها بالعصر التاريخى الذى نشأ فيه ، ثم مكانته بين المذاهب وصلته بما سبقه منها وما تفرع عنه .

ولا بد أن ذينك المترجمين الأديبين قد تنبها إلى مقدار حاجة القارئ العربى فى هذه الفترة الانتقالية فى التاريخ الانسانى إلى مثل هذا الكتاب يقف منه على ما يجب أن يقف عليه كل إنسان مثقف يحرص على أن يعرف ما له من حقوق بإزاء ما عليه من واجبات ، فبذلا ما بذلا من الجهد فى ترجمة هذا الكتاب وإخراجه فى أوانه ، ليكون تحت عين ذلك القارئ كالمقدمة لما ينبنى عليه من آراء ؛ فان الانسانية اليوم لتتمخض عن فكر جديد نرجو أن يكون فيه صلاح الناس ويستقيم به أسلوب الحياة .

المهرجان الالفى لابى العلاء المعرى (مطبوعات المجمع العلمى العربى)

منذ أكثر من عام أقامت الأمة العربية مهرجاناً أدبيا للاحتفال بذكرى شاعر العربية العظيم أبى العلاء المعرى ، لمناسبة مرور ألف سنة قمرية على مولده فى شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ ، ولعل هذه الأمة العربية لم تحتفل بذكرى شاعر من شعرائها مثل هذا الاحتفال الذى احتفلته بذكرى أبى العلاء . وإنه لأهل لذلك ؛ فقد اجتمع لشهود مهرجانه فى الشام — حيث كان مولده ومقامه ووفاته — وفود العرب من مختلف أقطارها ، فيهم المغربى ، والمصرى ، والشامى ، والعراقى ؛ فلم يبق بلد من بلاد العربية إلا كان له فى ذلك الاحتفال وفده وخطيبه . واستمر ذلك المهرجان أسبوعاً أقيمت حفلاته الخطابية فى دمشق ومعرة النعمان وحلب واللاذقية ، فشهدت بلاد الشام أعظم حادث أدبى فى تاريخ الأدب العربى ، وكان شغل الناس وحديثهم ، وموضوع الصحف وحديث الاذاعات اللاسلكية .
على أن حديث الصحف والمجلات عن ذلك المهرجان قد ظل بعد ذلك زمانا ، تتناقل ما قيل فيه ، وتنشر ما كتب عنه ، فلم يظفر حادث فى السنين الأخيرة بما ظفر به هذا الحادث الأدبى من عناية الناس ولهج الألسنة .

وقد كان ما ألقى فى ذلك المهرجان وكتب لأجله من الدراسات والبحوث والقصائد والخطب ، من خير ما جادت به قرائح أقطاب العلم وفحول الأدب فى هذا العصر ، وإنه لديوان من دواوين العرب وثروة من الفكر والبيان كأنها تتمة ذلك التراث الأدبى الخالد الذى خلفه أبو العلاء للعرب ، فكان حفظه بين دفتى كتاب وإذاعته على الناس من تمام

فضل أبى العلاء على العرب والعربية . وقد تحقق ذلك الأمل باخراج هذا السفر الذى بين أيدينا الساعة . وإنه لسفر اشترك فى تأليف فصوله نحو أربعين أديباً وعالماً من خير من أنجبت الأمة العربية فى تاريخها الطويل . وحسب القارئ أن يكون بين يديه كتاب قد احتشد له فكر هذه الجمهرة من الباحثين وأهل الأدب ليعرف أى كتاب ذاك وأى مكتوب عنه !

محمد سعيد العريان

فى مجلات الشرق

الإعلان والشهرة

فى عدد رمضان — شوال سنة ١٣٦٤ من مجلة « المجمع العلمى العربى » بدمشق ، نشر الأستاذ محمد كرد على بهذا العنوان فصلا من كتابه « أقوالنا وافعالنا » الذى لم يطبع بعد ، يقول فيه :

« الاعلان علم جديد قديم ، فيه نفع وضر ، وفيه خير وشر ، مداره على الارتزاق والارتفاق ، وسبيله الحظوة وتحسين السمعة واستفاضة الصيت ... ... ولا مشاحة فى أن الغرب أفرط كثيراً فى الاعلان ، وأساء استعمال الحرية ، ففتحت الصحف فى بعض الممالك صدرها لنشر الاعلان عن المواخير والحانات والبغايا والراقصات ، وأمسى الناس هناك يسكرون بالاعلان ، ويفسقون بالاعلان ، ويتبايعون بالاعلان ، ويقدرون بأكثر من قيمهم بالاعلان ، ويخدعون بحسن حالهم على لسان الاعلان . والشرق فى ذلك يتقيل طريق الغرب ويقلده وينقل عنه ، بمقياس مصغر الآن . وما ندرى إلام يصير فيما يستقبل من الأزمان ... ... »

اميتنـا

وفى عدد ذى القعدة — ذى الحجة من هذه المجلة يقول الأستاذ محمد كرد على فى مقال بعنوان أميتنا :

« ما أدرى إن كانت مصر لم تهتد إلى طريقة حقيقية للقضاء على الأمية أو أنها تتعمد غض النظر عن إنهاض التعليم الأولى ليبقى التعليم أوستقراطيا مقصوراً على الموسرين ، ويظل الفلاح فلاحاً لا يستهويه نزول المدن إذا هو ذاق من العلم مايخرجه عن الأمية . ومصر على مايظهر من القديم كانت ولم تبرح ينعم أفراد بخيراتها يتعلمون ويترفهون والكثرة النامرة لاتستطيع أن تنعم ولا ان تتعلم . مشكلة صعبة الحل نتركها لنظر من هم أعرف بها منا من المصريين ، ذلك أن مسألة التعليم عندهم معقدة ما دام أرباب القوة لا يروقهم إلا بقاء الشعب على أميته ، وأرباب الاصلاح يتذرعون باخراجه من جهالته مهما كلفهم الأمر . »

فن الأكل

مقال طريف بقلم الأستاذ حسين الجزيرى فى عدد رمضان من مجلة « الثريا » التى تصدر فى تونس ، وفيه اثر شهر الصيام وما يثير فى الجائعين من أشواق ... يقول فيه :

« يحسب الناقلون أن عاطفة الحب لا تتشبث إلا بجمال الوجوه ، وبحسن الغزال النافر ،

ولا يدرون ما هو حاصل فوق هذه الأرض من وجود مغرمين يكاد الحب يشق مرائرهم ، ويوشك الوله والوجد أن يذهبا بعقولهم ، وما حب هؤلاء إلا فى جمال الموائد الحسان ، وما تحويه من مختلف الأصناف والألوان . وأنا شخصيا لا أحسب قول الشاعر :

قلب بدون غرام جسم من الروح خال

إلا منصرفاً إلى الهيام فى القطائف الزاهرة ، والكريمة الباهرة . ولا أظن قول من قال :

أحب من أجلها ما كان يشبهها حتى لقد صرت أهوى الشمس والقمرا

مريداً به غير فطائر الجلجلان ، أو مقروض القيروان ، أو بريك الحليب ، أو شراب الزبيب »

إلى آخر ما فى هذا المقال من لطائف أدبية ، وموازنات طريفة بين عاطفة الحب وعاطفة « الأكل » !

شاعر الأمير

ويتحدث الأستاذ مارون عبود فى العدد ٤١٨ من مجلة « المكشوف » التى تصدر فى بيروت عن نقولا الترك ، أديب لبنان فى القرن الماضى ، فيسميه « شاعر الأمير » يعنى الأمير بشير الشهابى ، يقول :

« كان للبنانيين ، أمير كالملوك ، له بلاط ، وله شعراء يكدون قرائحهم ليعملوا شعراً لائقاً بصاحب السعادة ، وكان سعادة الأمير يهتز لهم كعوالى المران فى أيدى الكماة ، فتتدفق الصلات فى قصر « بيت الدين » العامر ... حيث عاش الأمير العظيم سيداً تراوده الدول العظمى ، يستقبل فى « قاعة العمود » السفراء والوزراء والقواد والقصاد ، وعليه أبهة الملوك وسيماء الأسود ... نذكر أعمال الأمير ونضاله وبطشه وننسى أنه كان لهذا الأمير شعراء وأنه كان سيف دولة زمانه ، لم يجتمع بباب ملك من ملوك عصره أكثر مما التف حوله من أمراء الكلام فى زمانهم ، ولكل زمان دولة ورجال ... ... »

وبعد أن يورد الكاتب طائفة من الآثار الأدبية ، شعراً ونثراً ، لنقولا الترك شاعر الأمير بشير الشهابى ، يقول :

« ورب قائل قال : ولماذا آثرت هذا على شاعر الأمير الأشهر بطرس كرامة ؟ . . . قلت : لأنه شاعر الأمير الأول ، ولأنه هو الذى قرب كرامة من مولاه ، ولأنه فنان طموح إلى التجديد ، ذو شخصية ينم عنها أدبه الحافل بالطريف الظريف ، فله فى كل مقام مقال . وأخيراً لأنه ابن نفسه وقد استلهم محيطه ... »

نمط عتيق

وفى العدد نفسه من مجلة «المكشوف» مقال للأستاذ رئيف خورى جمل عنوانه « نمط عتيق من الدراسة الادبية : طرفة بن العبد ، ماء الأشعار وطينتها وكنز القوافى ومدينتها ! » — يقول فيه :

« حسبك أن تسلخ نوادر من أخبار الشاعر تتوخى فيها الغريب ، وملحا من شعره تحشدها فى صفحات ترصعها بـ « ما أجمل » و « ما أبدع » و « ما أروع » وسائر ما اطرد على هذا القياس من النعوت التى تحشو الفم والأذن ولا تدعو العقل إلى محاكمة واقتناع — حسبك أن يكون لك هذا حتى تسمى دارساً وناقداً أدبياً . . . ... أما أن تحاول الغوص إلى أعماق هذا الشاعر حيث يؤمن وحيث يشك ، حيث يأمل وحيث يقنط ، حيث يتبرم وحيث يرضى ، حيث يمجن وحيث يتوقر ، وتجتهد فى ربط كل هذه الأعراض بأسبابها ، فليس من عملك . ليس من عملك أن تنتهى فى درسك إلى شخصية بشرية طبيعية تحس فيها نبض الحياة وإن تكن طويت منذ عشرات القرون ... ... لا يا هؤلاء ... إن الأدب لأكثر جدوى من أن يكون ألفاظاً تقرع السمع ولاتفيد سوى أنها تقرع السمع ... معرض النفوس البشرية : هذا هو الأدب . تأليف الشخصيات الكاملة : هذا هو درسه ؛ وكلاهما مفضاه إلى قلب الحياة كما هى أو كما ينبغى أن تكون . . . »

عندما يلتقى الموت والحياة

فى العدد ١٧ من مجلة « الطريق » التى تصدر فى بيروت ، بهذا العنوان :

« تألفت فى اليابان ، قبل استسلامها الأخير ، فرق فى الجيش دعيت بفرق « مرشحى الموت » وهى تتألف من المتطوعين الشباب المتعصبين الذين يعتقدون أن موتهم هو أكبر شرف لهم ، يقودهم حتما إلى جنات النعيم ، وهم يذهبون إلى المعركة لا ليحاربوا فقط ، بل ليموتوا أيضاً ... وفى هجوم الجيش الأحمر على اليابان . . . جابهت فرق الجيش الاحمر فى منشوريا هذه الفرق من مرشحى الموت ، وكانت من أشرس الفرق التى جابهها الجيش الأحمر طول معاركه الكبيرة الحاسمة ، ولكن الجيش الأحمر قد تغلب عليها . ووصف قائد سوفياتى أسباب هذا التغلب بهذه الكلمات الموجزة : إن الجندى الأحمر يحب الحياة إلى درجة أن يموت فى سبيلها ، أما مرشح الموت اليابانى فقد عاف الحياة إلى درجة أنه يريد أن يتخلص منها .. والجندى الأحمر لا يحارب من أجل « ميكادو » ما .. وهذا فرق أساسى بين الفريقين ! »

أمريكا والتراث العربى

وفى العدد الثانى من مجلة « الفكر الحديث » التى تصدر فى بغداد ، مقال للدكتور فيليب حتى بذلك العنوان يقول فيه :

« إن ما اصطلح المؤرخون على تسميته بالعصور المظلمة لم تترك أثراً من ظلمتها ولم تكن

كذلك فى بلاد الناطقين باللغة العربية ، وخلال فترة كبيرة من ذلك العصر كان مشعل الحضارة مضيئاً من الخليج الفارسى فى الشرق وآسيا الغربية وشمال إفريقية وجنوب وغرب أوربا حتى المحيط الأطلنطى فى الغرب ... بين منتصف القرن الثامن وأوائل القرن الثانى عشر للميلاد ... إن ما كتب بالعربية فى مختلف فروع العلم والتاريخ والفلسفة ليفوق ما كتب من جميع اللغات الأخرى وبضمنها اللاتينية ... »

وبعد أن يورد الدكتور فيليب حتى طائفة غير قليلة من أسماء العلوم التى كان للعرب فضل إنشائها ، أو ابقائها حية حتى انتقلت إلى الغرب ، وطائفة أخرى من المصطلحات والاسماء العربية التى نقلت بحروفها إلى اللاتينية وغيرها من لغات الغرب كدليل على أصلها العربى — يقول :

« إن الفروع العربية لغنية بأدب ثلاثة عشر قرنا يتطرق إلى كل نواحى الحياة والفكر الانسانى ... وقد وصف أحد أساتذة جامعة يال الامريكية اللغة العربية بكونها الثالثة بين اللغات التى لها الفضل الاكبر فى حمل خلاصة الفكر والادب . ومما يسترعى الانتباه غياب اللغتين الانجليزية والفرنسية عن هذه القائمة . ويقول أحد المستشرقين فى جامعة بنسلفانيا : إن اللغة العربية تمتاز بتطور وانتشار عظيمين ، وإنه خلال القرنين الاخيرين فقط بدأت الانكليزية بمزاحمتها لهذه اللغة التى تشكل لغة التفاهم لاكثر من خمسين مليونا من العرب ، واللغة الدينية لاكثر من ٢٥٠ مليونا من المسلمين المنتشرين فى مختلف أقطار المعمورة ...

« ... وبمساعدة جامعة برنستون ومكتبتها الغنية بالكتب والمخطوطات العربية ... سيتعلم (بعد هذه الحرب) عدد كبير من الامريكيين اللغة العربية بصورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الولايات المتحدة ... »

وادى الزبانية !

وهذا عنوان الافتتاحية الاولى فى العدد الاول من مجلة « الوادى » التى تصدر فى بغداد ، كأنها تقدمة المجلة الناشئة لقرائها ، نقرأ فى هذه الافتتاحية من قول المحرر :

« للزبانية واد هو وادى عبقر ، وللزبانية ندوة هى ندوة الزبانية ، فمن تبعات زبانية الندوة أن يحرروا « الوادى » ومن واجباتهم أن يحسنوا سمعة الأدب العراقى بما يكتشفونه من قابليات أدبية كامنة غطى عليها الجهل ، وبما يدثرونه من أصنام واهية أقامتها البلادة ، فقد كفانا ما نعانيه من شيوخ عفنت عقولهم وبلد إحساسهم وابتعدوا كل الابتعاد عن معانى الخير والحق والجمال ، وناوءوا أدباء الشباب بما يذيعونه عنهم من اتهامات وبما يفرضونه من الكف عن ذكرهم على أصحاب الصحف والمجلات ... ... »

فهى مجلة جديدة يحررها هؤلاء « الزبانية » الشبان متعاونين على معاداة شيوخ الادب فى العراق ، وهذا هو العدد الاول من مجلتهم ... وحسبنا من وصفه ما اقتبسنا من تلك العبارات ، لننظر فى الاعداد الآتية ما يكون من خبرهم فى تلك المعركة التى رفعوا رايتها متحمسين ، وراحوا يتدربون على أساليب الهجوم والدفاع بما ملأوا به هذا العدد الأول من حديث بعضهم عن بعض ساخرين متهكمين بأنفسهم فى أسلوب طريف ، حتى خلا العدد إلا من تلك النماذج التى يعرضون فيها صورهم « البيانية » متحفزين للنضال ، استعداداً لمعارك

قادمة يكونون فيها صفاً واحداً فى وجه أولئك الشيوخ الذين يصفون ، إلا أن يؤثر الشيوخ أن يتركوهم وحدهم فى « وادى عبقر » لا يجدون متنفساً لنشاطهم إلا أن يسخر بعضهم من بعض أو يبارك بعضهم بعضا ! . . .

الرسالة الزرقاء

وفى العدد التاسع والعشرين من مجلة « الأصداء » التى تصدر فى دمشق — مقال قصصى لطيف للأستاذ مواهب الكيالى عنوانه « الرسالة الزرقاء » يصف فيه ما يلقى الصحفى الحر من الحرج والضيق ، وما يعرض له مع ذلك من أسباب الاغراء ليفتن عن رأيه ، لولا ما يربط على قلبه من أسباب الإيمان أو من أسباب الحب . . . يقول فيما يصف من حال صحفى من هؤلاء :

« ... وكانت بالطبع قضية تخصه وحده ، فليس لأحد أن يملى عليه أمراً أو يطلب إليه ما لا يفكر فى القيام به . إن الصحافة بالنسبة إليه ليست باب رزق أو شبكة صيد . إنها رسالة ، إنها مدرسة ، إنها ... وتدافعت الكلمات على ورقة أمامه ، ثم توقف ليلقى نظرة على الورقة التى خلفها الرجل ، فاذا بها « شيك » كامل بمبلغ محترم لا ينقصه إلا توقيع الثرى الأمثل صاحب السعادة ... وداخلته الحيرة ، وكان العرض مغرياً لانه يحسم كثيراً من المشكلات التى تقلق راحته ، لولا ... وعاد الى الرسالة الزرقاء ، رسالة السيدة المجهولة التى « اغتنمت فرصة من خلال مشاغل البيت لتكتب له ، وتبثه إعجابها الخالص » ، وكان نظره يتنقل بين الورقتين كرقاص الساعة : لمن يمنح نفسه ؟ لا يدرى ! ... إن الجميع يفعلون هكذا ، ولكن ألم يقل إنه سيتميز عن « الجميع » ؟ ... وأخيراً ... ... »

فهرس المجلد الأول

أكتوبر ١٩٤٥ — يناير ١٩٤٦

برنامج ١

دراسات أدبية

أحمد نجيب الهلالى

تكافؤ الفرصة ٢٨

توفيق الحكيم

الخلق فى الفن ٣٣

حسن محمود

تأملات فى مسرحية روسية ٥٢٢

حسين فوزى

عالم الطفولة ٨٦

سارتر (چان بول)

* تأميم الأدب(١) ٣٣٩

سلامه موسى

ذكريات أول وجدانى الذهنى ٢٢٨

سهير القلماوى

صلة الأدب بالحقيقة والواقع ١٧٥

بين القدماء والمحدثين ٤٨٩

طه حسين

الأدب العربي بين أمسه وغده ٤

بول فاليرى ٦٧

شاعر الحب والبغض والحرية ١٢٩

طه حسين

صور من المرأة فى قصص فولتير ٢٨٩

على أدهم

أبو الطيب المتنبى ٤٩٧

على النجدى ناصف

التعقيد فى شعر المتنبى ٥٠٧

كانبي (هنرى سايدل)

* نمو الأدب الأمريكى(٢) ١٧٠

لويس عوض

أوسكار وايلد ٣٩٤

ت . س . إليوت ٥٥٧

ماركيه (رنيه برنار)

أدب القصة فى الاتحاد السوفيتى(٣) . ١٠٥

محمد كامل حسين

التعقيد فى شعر المتنبى ١٦٣

وداد سكاكينى

السهولة فى شعر المتنبي ٥١٢

يحيي الخشاب

كتاب تنسر ٢٣٥

استقبال معالى عبد الحميد بدوى باشا فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية (خطبة الدكتور طه حسين بك
كلمة معالى عبد العزيز فهمى باشا ــ خطبة معالى عبد الحميد بدوى باشا) ٤٠٤

---

* كل مقال أمامه هذه العلامة كتب خاصة للمجلة بقلم كتاب أوربيين أو أمريكيين .

(١) Jean-Paul Sartre, *La nationalisation de la littérature.*

(٢) *The Growth of American Literature,* by Henry Seidel Canby.

(٣) René-Bernard Marquet, *La littérature soviétique.*

دراسات اجتماعية واقتصادية

بشر فارس

رأى فى تدبير التربية فى لبنان ٥٤٧

سلامه موسى

جورج واشنطون والديمقراطية الأمريكية ٣٦١

سليمان حزين

الحرب والجامعات فى بريطانيا ٥٣

مصر حلقة الاتصال بين الشرق والغرب. ٣٦٩

الجامعة العربية ٥٢٩

سهير القلماوى

حول خلق آدم ٤٧

على أدهم

الثقافة والمجتمع ١٩٧

محمد صلاح الدين

السياسة والتعليم ٤٦٦

محمد عبد الله عنان

دولة إسلامية شيوعية فى القرن الرابع الهجرى ٢٢٢

محمد عوض محمد

من المحيط إلى المحيط ١٣٩

محمود عزمى

تأميم بنك انجلند ٣٠٨

تأميم البنوك فى فرنسا ٤٨٢

مراد كامل

عامان فى الحبشة ٢٠٧

نزار سعيد

الشرق محافظ . لماذا ؟ ٣٩٠

***

* نقل ملكية بنك إنجلترا إلى يد الدولة (١) ٢٥٦

دراسات سياسية

طه حسين

بريطانيا العظمى والشرق الأدنى ... ١١٥

محمد رفعت

مشكلة المضايق ٣٧

مصر وحيدة قناة السويس ١٥٢

مشكلة طنجة ومنافذ البحر المتوسط ٣٣١

مشكلة إسكندرونة ٤٧٤

محمد عبد الله عنان

مستقبل أسيا بعد هزيمة اليابان ٧٩

مصر ومصير المستعمرات الايطالية... ٥١٦

محمد عوض محمد

المسرح الجديد للسياسة الدولية ٣١٣

***

الجمهورية الفرنسية الرابعة ٢٦٣

دراسات علمية

محمد محمود غالى القنبلة الذرية وانعدام الذرة ٩٢

(١) *The Nationalisation of the Bank of England,* by a well-known British Student of Economic History.

دراسات الفن

أحمد فكرى

ما شاء الله ٥٦٩

اسكندر أسعد

تمثال الكاتب المصرى ٥٨٢

قصص

حسين فرج زين الدين

الأسماك الجائعة ٣٢٦

طه حسين

المعذبون فى الأرض ٤٤٩

كاليه (هنرى)

* رب إقليم الفلاندر (١) ١٨١

محمود عزّى

تذكار من القدر ٢٤٨

يحيى حقى صورة ٥٧٧

شعر

إبراهيم محمد نجا

حياتى ١٦٠

عبد القادر القط

أنت كالناس ٦٢

غياب ٣٨٥

عزيز فهمى

عيد أول ابريل ١٠٣

الشاعر ٢٠٥

على شوقى

ذكرى الشباب ٣٥٨

محمد عثمان الصمدى

بين المثالية والطباع البشرية ٥٤٣

محمد مهدى الجواهرى

دجلة فى الخريف ٤٨٦

وصفى قرنفلى

تاريخ ٥١٤

شهريات

شهرية السياسة الدولية (لمحمود عزمي) ٥٨٥

شهرية المسرح (لسيد قطب) ٥٨٨

من كتب الشرق والغرب

أحمد فؤاد الأهوانى

الانسان والعالم فى نظر الراغب الأصفهانى ٤٢٥

محمد كمال أبو على

أصول النظام السياسى فى دول الشرق والغرب ٢٦٦

فؤاد وصفى أبو الذهب أسطورة الحرية ٥٩٥

(١) Henri Calet, *Le Dieu des Flandres.*

من وراء البحار

فرنسا بعد أن وجدت العالم ووجدها ١٢١ ، الملك هنرى الثامن وزوجاته ٢٧١ ، رأى فى القنبلة الذرية ٢٧٣ ، أوربا ووحدتها الثقافية ٢٧٤ ، پول سارتر ٤٣٣ ، ماذا فى ألمانيا ؟ ٤٣٤ ، السكلية الامبراطورية بلندن ٦٠١ ، مالرو الفرنسى وسيلونى الايطالى ٦٠٢ ، مستر أتلى ٦٠٣ ، ماذا فى باريس ؟ ٦٠٤ ، أخبار الأدب فى باريس ٦٠٥ .

ظهر حديثاً

إبراهيم مدكور ومريت غالى
الأداة الحكومية ٤٣٧

ابن حزم الأندلسى
المفاضلة بين الصحابة ٦٠٦

أبو عبيد البكرى
معجم ما استعجم ٢٧٦

أبو العلاء المعرى
شروح سقط الزند ٢٧٨

إلياس أبو شبكة
قصر الحير الغربى ٦١٢

خدّورى خدّورى ومجيد عبدالله
خلاصة الفكر السياسى منذ الثورة الفرنسية ٦١٢

الدعاية العامة ببغداد
فيصل بن الحسين ٤٤١

سعيد الأفغانى
الاسلام والمرأة ٤٣٨

سليم حسن بك
الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة. ٢٧٩

شمس الدين الذهبى
عائشة بنت أبى بكر ٤٤٠

صلاح لبكى
من أعماق الجبل ٦١١

عبد الحليم الجندى
أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الاسلام ٦٠٨

عبد الرحمن بدوى
الزمان الوجودى ٢٨١
من تاريخ الالحاد فى الاسلام ٢٨٣

المجمع العلمى العربى
المهرجان الألفى لأبى العلاء المعرى .. ٦١٣

محمود تيمور فن القصص ٦١٠

فى مجلات الشرق

أقوى من الفتنة ٢٨٥ ، روفائيل بطى ٢٨٥ ، الدكتور نقولا فياض ٢٨٦ ، أبو الطيب الكندى ٢٨٧ ، مطران فى بيروت ٢٨٨ ، الكتاب ٤٤٤ ، أدب العراق فى القرون المظلمة ٤٤٤ ، هل ينقذ الأدب الانسانية ٤٤٥ ، نظرات فى شعر المرأة ٤٤٦ ، الأدب العربى والمصريات ٤٤٧ ، قضية الجلاء والاستقلال ٤٤٨ ، العمل المنتج ٤٤٨ ، الاعلان والشهرة ٦١٥ ، أميتنا ٦١٥ ، فن الأكل ٦١٥ ، شاعر الأمير ٦١٦ ، نمط عتيق ٦١٧ ، عند ما يلتقى الموت والحياة ٦١٧ ، أمريكا والتراث العربى ٦١٧ ، وادى الزبانية ٦١٨ ، الرسالة الزرقاء ٦١٩ .